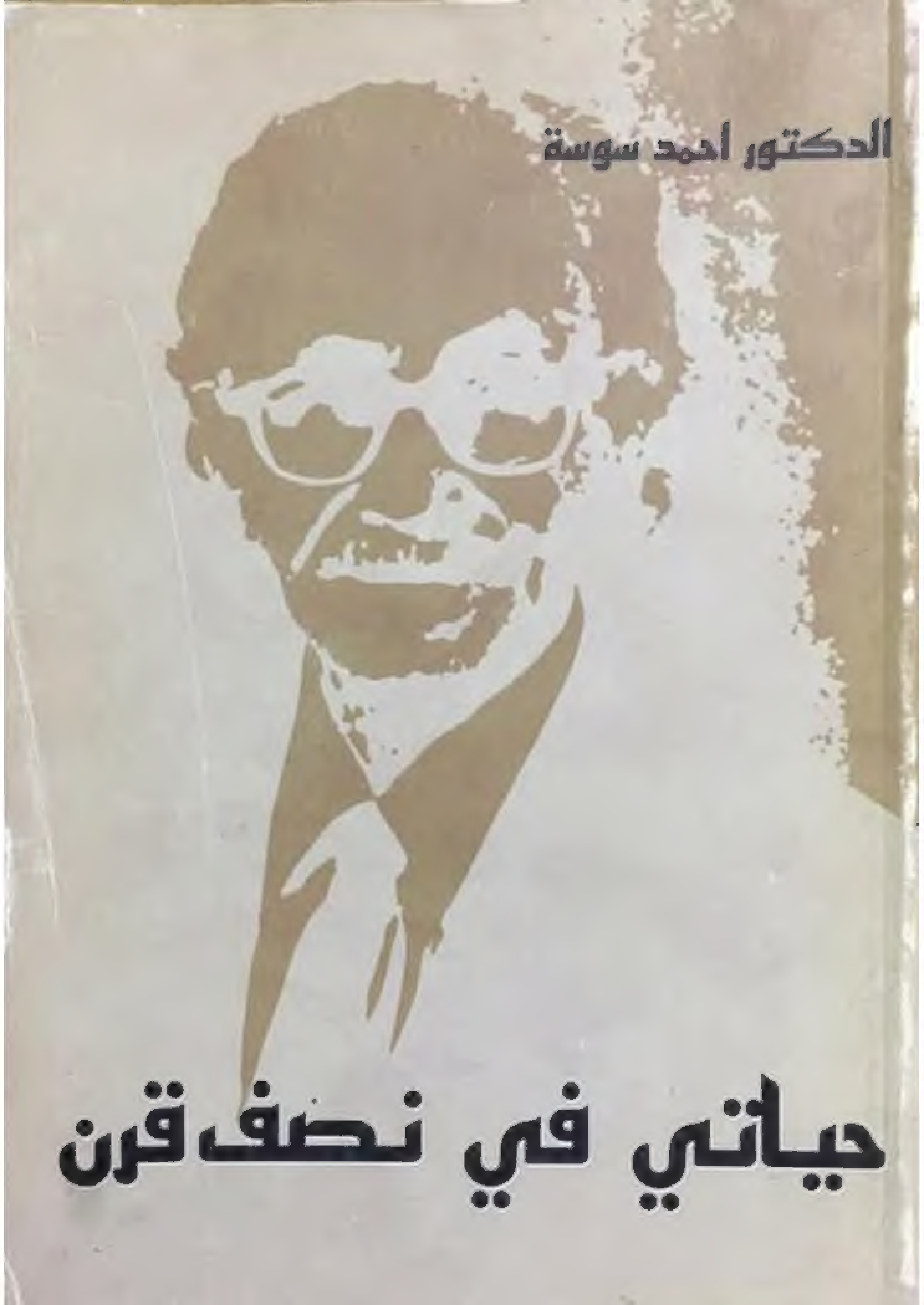


الدكتور احمد سوسة
حياتي في نصف قرن



حياتي في نصف قرن

الطبعة الاولى

١٩٨٦

حياتي في نصف قرن

الدكتور أحمد سوسة



الإهداء

إلى ولديَّ عاليةَ وعليّ

أهدي هذه المذكرات، وهي تمثل مدى نضالي في معترك الحياة في خلال نصف قرن تحويه وأنا أفتش عبر السنوات الخمسين عن الطريق السوي لكي أسلكه في خدمة الأمة العربية التي أنبتتني، وخدمة الوطن الذي رعاني ورعيته عسى أن تجدا فيها عبرة في مسيرة حياتكما وحياة أنجالكما.

أحمد سوسة

المحتويات

الملاحق

التصاوير والمرتسمات

المقدمة

التصوير رقم (٦) ـ هذه صورة ثانية اخذت في اثر حفلة التكريم التي اقامتها جمعية الهداية الاسلامية ويرى الاستاذ محمد الخضر حسين رئيس الجمعيـــة يحيط به اعضاء الجمعية وبعض شباب الجامعة المصرية ..

التصوير رقم (٧) ـ من قصيدة للعلامة الشيخ كاظم آل كاشف الغطاء الى المؤلـف (مؤلف كتاب « في طريقي الى الاسلام » ..) ..

التصوير رقم (٨) ـ صورة غلاف كتاب « مفصـل العرب واليهـود في التاريخ » ، الطبعة الرابعة ، قام بنشره المكتب العربي للاعلان والنشر والطباعة والترجمة ، دمشق ، ١٩٧٥ .

التصوير رقم (٩) ـ مشروع سدة الهندية (١٩١١ـ١٩١٣) ، قام بتصميمه وتنفيـذه السير ويليام ويلكوكس احياء لمشروع بالاكوباس القديم ..

التصوير رقم (١٠)ـ سير ويليام ويلكوكس (١٨٥٢ـ١٩٣٢)

التصوير رقم (١١) ـ المؤلف في مزرعة وبستان المناوية ١٩١٢ ، حيث كان يقضي اكثر اوقاته فيهما ..

التصوير رقم (١٢) ـ مشهد من حفلة إفتتاح مشروع سدة الهندية يوم ١٢ كانون الاول ١٩١٣ (انظر الفقرة ٦)

التصوير رقم (١٣) ـ صورة كتاب « مشروع سـدة الهندية ـ تاريخه ، تصميمه ، عمله » ، مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٢٥ .

التصوير رقم (١٤) ـ اطلال مدينة بابل ..

التصوير رقم (١٥) ـ المؤلف فوق اسد بابل سنة ١٩١٩ .

التصوير رقم (١٦) ـ منظر لاطلال مدينة كيش .

التصوير رقم (١٧) ـ صورة غلاف كتاب « تاريخ حضارة وادي الرافدين » ، دار الحرية ، ١٩٨٣ .

القسم الاول ـ اسرة آل سوميـــخ

التصوير رقم (١٨) ـ الامام المغفور له الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في الحلة يحيط به وجوه البلد (انظر الفقرة ٩) .

مرتسم رقم (١) ـ اقدم مستعمرة سامية تمارس الزراعة التي تعتمد على الري في منطقة الخابور (انظر الفقرة ٥) .

القسم الثاني ـ موجز تاريخ يهود العراق القديم

مرتسم رقم (٢) ـ خارطة تبين منطقة حدياب في شمال العراق ومنطقة بابل اللتين سبي اليهما اليهود في زمن الآشوريين والكلدانيين (الفقرة ٤)

التصوير رقم (١٩) ـ إحد الرحـــالة اليهود في شـــمالي العراق قبل تهجيرهم الى

«اسرائيل» وهم من بقايا السبي الاشوري لم يزالوا يتكلمون بلهجتهم القديمة « لغة المسيح » المعروفة بالترجوم (انظر الفقرة ٥) .

القسم الثالث ــ حياتي المدرسية

أ ــ نشاتي الاولى « دراستي الابتدائية »

التصوير رقم (٢٠) ــ بلدة الحلة كما كانت عليه سنة ١٩١٩ (انظر الفقرة ١)

التصوير رقم (٢١) ــ والد المؤلف وكان عضوا في مجلس ادارة لواء الحلة , انظر الفقرة (١)

التصوير رقم (٢٢) المؤلف بالزي العربي سنة ١٩١٩ . (انظر الفقرة ٢)

التصوير رقم (٢٣) ــ المؤلف في مكتبة والده في الحلة سنة ١٩١٩ (انظر الفقرة ٢)

التصوير رقم (٢٤) ــ المؤلف على ظهر فرسه المتكية ذات الارومة الاصيلة سنة ١٩١٩

التصوير رقم (٢٥) ــ المؤلف على ظهر جواده « ترتقل » . (انظر الفقرة ٢)

التصوير رقم (٢٦) المؤلف في سيارته (الفورد) سنة ١٩١٩ ــ أول سيارة اهلية تدخل بلدة الحلة . (انظر الفقرة ٩)

التصوير رقم (٢٧) ــ منظر من مناظر سباق الفرات (نيسان ١٩٢٠) الذي اقامه الانكليز في الحلة (انظر الفقرة ٩)

التصوير رقم (٢٨) ــ منظر آخر من سباق الفرات (نيسان ١٩٢٠) (انظر الفقرة ٩)

التصوير رقم (٢٩) ــ فرس المؤلف الفائزة في سباق الفرات . (انظر الفقرة ٩)

التصوير رقم (٣٠) ــ أول محطة للقطار تؤسس في الحلة تحت ادارة موظفين من الهنود بعد الاحتلال البريطاني (انظر الفقرة ١١)

التصوير رقم (٣١) ــ أول محكمة مدنية تشكل في منطقة الفرات برئاسة حاكم بريطاني بعد الاحتلال البريطاني (انظر الفقرة ١١)

التصوير رقم (٣٢) أول تشكيل لجيش اهلي في الحلة برئاسة ضباط عراقيين تحت اشراف مدربين انكليز وكان يعرف بجيش الشبانة . (انظر الفقرة ١١)

التصوير رقم (٣٣) ــ ضابطان عراقيان في جيش الشبانة (انظر الفقرة ١١)

التصوير رقم (٣٤) ــ أول تشكيل لجيش الشبانة من الخيالة تحت اشراف مدربين من الانكليز (انظر الفقرة ١١)

القسم الثالث ــ حياتي المدرسية

ب ــ دراستي في الجامعة الامريكية في بيروت

التصوير رقم (٣٥) ــ صورة تاريخية للطلاب العراقيين في الجامعة الامريكية في بيروت [أول بعثة عراقية توفد الى الخارج للدراسة] مع رئيس الجامعة المستر بايارد دوج اخذت في ٢١ مايس ١٩٢٤

الجالسون على الارض من اليمين الى اليسار :

جلميران ، خدوري خدوري ، ناظم غنام

الجالسون على الكراسي :

من اليمين : شلومو ، احمد سوسة ، رئيس الجامعة دودج ، متي عقراوي ، انور ملكة

الصف الاول الواقفون :

مظهر فهمي ، اكرم رفعت ، ممتاز عارف ، اكرم فتحي جلميران ، ناجح الشخماني ، .... النعمة .

الصف الثاني : يعقوب وذن ، فؤاد حسو ، انور مله ، اكرم زينل ، يونس حنا ، انطوان صبري بدنتو ، عبدالاحد بيثون .

الصف الثالث : محمد الدشتي ، لوري روفائيل ، داود سلمان ، فرج‌الله ويردي ، كمال خليل ، .... ، درويش الجيدري ، يوسف خدوري ، يحيى الباججي .

الصف الرابع : حسن جواد ، احمد النعمة ، ابراهيم البسام ، صبيح الوهبي ، تحسين ابراهيم ، وديع سليمان ، صموئيل بيثون ، توفيق شكوري ، جميل جمعة ، اسماعيل الجوربجي

الصف الخامس : احمد دوغرامجي ، بدروسيان ، محي‌الدين يوسف ، يوسف زينل ، خليل قدو ، فائق ...

التصوير رقم (٣٦) ـ المؤلف يتوسط مجموعة من زملائه في الجامعة الامريكية في بيروت سنة ١٩٢٥ .

القسم الثالث ـ حياتي المدرسية

ج ـ دراستي في الولايات المتحدة الامريكية

التصوير رقم (٣٧) ـ المؤلف يمارس تمارين القفز فوق الحواجز على ظهر الخيل سنة ١٩٢٦ . (انظر الفقرة ١ د)

التصوير رقم (٣٨) المؤلف في فرقة الخيالة . (انظر الفقرة ١ د)

التصوير رقم (٣٩) ـ المؤلف وهو احد طلاب الصفوف العليا يضرب احد طلاب الصف الاول (انظر الفقرة ١ هـ)

التصوير رقم (٤٠) ـ المؤلف وهو الثاني من اليمين اخذت في ٢٨ شباط ١٩٢٦ .. (انظر الفقرة ١ هـ)

التصوير رقم (٤١) ـ المؤلف وهو يحمل على ظهره امتعته في جولته في احدى الجبوبية من الولايات المتحدة الامريكية (انظر الفقرة ١ و)

التصوير رقم (٤٢) ـ سرب من طالبات جامعة تكساس في احدى متنزهاتهن . . (انظر الفقرة ٤)

التصوير رقم (٤٣) ـ المؤلف في كلية تكساس العسكرية (انظر الفقرة ٥)

التصوير رقم (٤٤) ـ المؤلف في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الامريكية . .

(انظر الفقرة ٥) .
التصوير رقم (٤٥) — المفتاح الذهبي الذي يمنح لخريجي الجامعات في امريكــا بتفوق (انظر الفقرة ٥)
التصوير رقم (٤٦) — المؤلف في احدى حدائق كولورادو (نظر الفقرة ٦)
التصوير رقم (٤٧) — المؤلف في كلية تكساس العسكرية (انظر الفقرة ٦)
التصوير رقم (٤٨) — المؤلف في كلية تكساس العسكرية (انظر الفقرة ٦)
التصوير رقم (٤٩) — المؤلف مع ماكي لي في مغامرته الغرامية الاولى .. (انظر الفقرة ٧)
التصوير رقم (٥٠) — تصوير آخر للمؤلف مع ماكي لي في مغامــرته الاولى .. (انظر الفقرة ٧)
التصوير رقم (٥١) — المؤلف مع دوبي في مغامرته الغرامية الثانية في حــدائق كولورادو . (انظر الفقرة ٧)
التصوير رقم (٥٢) — المؤلف في زي التخرج من جامعة جونس هوبكنس سنة ١٩٣٠
التصوير رقم (٥٣) — المؤلف في رحلـــة مع الاخوة العراقيين وهم من اليمين : المؤلف ، المرحوم الشاعر الشيخ مهدي البصير ، عبدالوهاب كمونة ، سي الوائلي ، عبود شلاش (اخذت في ٢٩ تموز ١٩٣٠) (انظر الفقرة ٧)
التصوير رقم (٥٤) — ماري في بغداد قبيل اصابتها بالختاق اخذت في تموز ١٩٣٢ (انظر الفقرة ٧)
التصوير رقم (٥٥) — فيصل جميل وهو في السنة الثانية من العمر
التصوير رقم (٥٦) — صورة بيت ماري في المزرعة في « آيوا سيتي »
التصوير رقم (٥٧) — فيصل جميل وزوجته «جودي»
التصوير رقم (٥٨) — جيفري سوسة ، وهو في الثالثة والنصف من عمره .
التصوير رقم (٥٩) — اول لقاء بين فيصل جميل وبين اخته مالية عندما كنت تتمتع بزمالة في امريكا سنة ١٩٦٥ .



تقديم

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »
صدق الله العظيم

مرت ثلاثة اعوام ونيف على رحيل العلامة الدكتور احمد سوسة ولا تزال بعض آثاره مخطوطة لم تر النور بعد • ومذكراته هذه التي اضعها بين يدي القارىء الكريم هي احدى هذه الآثار • كان الفقيد قد قضى العقد الاخير من حياته متفرغا للبحث والتاليف ، وهو في العقد الثامن من عمره حتى وافته المنية مساء السادس من شباط عام ١٩٨٢ •

ومن مؤلفاته التي صدرت في تلك الفترة « العرب واليهود في التاريخ » (بخمس طبعات الاولى عام ١٩٧٢ والاخيرة - مفصل العرب واليهود في التاريخ - عام ١٩٨٢) ، « الشريف الادريسي في الجغرافية العربية » (بجزئين ١٩٧٤) ، « ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق » (١٩٧٨) ، « حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور » (١٩٧٩) ، « حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين » (١٩٨٠) ، و « تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية» (بجزئين صدرا بعد وفاته ١٩٨٣ - ١٩٨٥) •

ولد الدكتور سوسة في مدينة الحلة سنة ١٩٠٠ ، واتم دراسته الاعدادية في الجامعة الامريكية ببيروت سنة ١٩٢٤ ، ثم حصل على شهادة البكلوريوس في الهندسة المدنية سنة ١٩٢٨ من كلية كولورادو في الولايات المتحدة . وواصل بعد ذلك دراسته العالية فنال شهادة الدكتوراه بشرف من جامعة جونز هوبكنز الامريكية سنة ١٩٣٠ ، وقد انتخب عضوا في مؤسسة « فاي بيتا كابا » العلمية الامريكية المعروفة ، كما منحته جامعة واشنطن في سنه ١٩٢٩ جائزة « ويديل » التي تمنح كل سنة لكاتب احسن مقال من شانه ان يسهم في دعم السلم بين دول العالم . ويعد اقدم مهندس عراقي تخرج في الجامعات الغربية .

وبعد عودته الى الوطن ، عين اول مرة مهندسا في دائرة الري العراقية سنة ١٩٣٠ ، ثم تقلب في عدة وظائف فنية ذات مسؤولية في هذه الدائرة مدة ١٨ سنة حتى عين سنة ١٩٤٦ معاونا لرئيس الهيئة الفنية التي الفت لدراسة مشاريع الري الكبرى العراقية . وفي سنة ١٩٤٧ عين مديرا عاما للمساحة ثم مديرا عاما في ديوان وزارة الزراعة سنة ١٩٥٤ ، ثم اعيد مديرا عاما للمساحة وبقي في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٧ .

وعند تاسيس مجلس الاعمار سنة ١٩٥١ عين مساعدا شخصيا في الامور الفنية لنائب رئيس مجلس الاعمار

اضافة الى وظيفته الاصلية • كما كان من اوائل اعضاء المجمع العلمي العراقي منذ تاسيسه سنة ١٩٤٦ وبقي عضوا عاملا فيه حتى وفاته •

وخلال سنتي ١٩٣٩ و١٩٤٠ تراس البعثتين اللتين اوفدتهما الحكومة العراقية الى المملكة العربية السعودية لدراسة مشاريع الري في الخرج والاشراف على تنفيذها • وقد مثل الحكومة العراقية في اكثر المؤتمرات الهندسية للبلاد العربية عضوا ورئيسا للوفد العراقي • وكان احد مؤسسي جمعية المهندسين العراقيه سنة ١٩٢٨ ، وعمل فيها سكرتيرا عاما لاكثر من عشر سنوات ،وبقي حتى وفاته عضوا فيها وفي نقابة المهندسين العراقية التي عمل فيها بصفة مدير عام سنة ١٩٦٢ ثم مستشارا للنقابة سنة ١٩٧٠ وحتىسنة ١٩٧٤ حيث تفرغ للبحث والتاليف •

اما مؤلفاته فتربو على الخمسين من كتب وتقارير فنية واطالس اضافة الى اكثر من (١١٦) من المقالات والبحوث التي نشرت في الصحف والمجلات العلمية المختلفة • وتتوزع مؤلفاته في حقول الري والهندسة والزراعة والجغرافية والتاريخ والحضارة • والى جانب كتابه « في طريقي الى الاسلام » بجزئين ١٩٣٦ ، و «نظام الامتيازات في الدولة العثمانية» الذي طبع باللغة الانكليزية عام ١٩٣٣ ، فان اغلب مؤلفاته الاولى كانت في حقل الري واهمها: « المصادر عن ري العراق » (١٩٤٢) ، « وادي الفرات » (بجزئين

١٩٤٤ـ١٩٤٥) ، « تطور الـــري في العراق » (١٩٤٦) ، « دليل ري العراق » (١٩٤٤ بالانكليزية) ، «الري في العراق» (١٩٤٥ بالانكليزية) ، « سدة الهندية » (١٩٤٥ بالانكليزية) ، « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » (بجزئين١٩٤٨) ثم صدر له في الستينيات « فيضانات بغداد في التاريخ » (بثلاثة اجزاء ١٩٦٣ و١٩٦٥ و١٩٦٦) و« الري والحضـــارة في وادي الرافدين » (١٩٦٨) ٠

اما اهم الاطالس التي وضعها فكانت « اطلس بغـداد » (١٩٥٢) ، « اطلـس العراق الاداري » (١٩٥٢) ، « اطلـس العراق الحديث » (١٩٥٣) ، « العـراق في الخوارط القديمة» (١٩٥٩)، «الدليل الجغرافي العراقي » (١٩٦٠) ، « اطلس العراق » (بالانكليزية ١٩٥٣) ، « اطلس العراق المصور » (بالانكليزية ١٩٦٢) ٠ هذا الى جانب اشتراكه في وضع كتـاب « بغداد ــ عرض تاريخـي مصـور » (١٩٦٩) و « دليل الجمهورية العراقيـة لسنة ١٩٦٠ » واعمال وبحوث اخرى ٠

لقد نال الدكتور سوسـه خلال حياته الطويلة العديد من الاوسمة والجوائـز عن عمله في حقل الـري وعن مؤلفاتـه العلمية ، فاضافـة الى عضويـة فاي بيتاكابا وجائزة جامعة واشنطن اللتين مر ذكرهما ، منح وسام الملك عبدالعزيز سعود لتنفيذه مشروع ري الخرج في نجد عام ١٩٣٩) ووسام الرافدين من الدرجة الثانية عن خدماته في دوائر الري والمساحة عام (١٩٥٣) ، ووسام الكفاءة الفكريـة

من ملك المغرب عن كتابه « الشـريف الادريسـي في الجغرافيـة العربية » (١٩٧٦) • كما فاز كتابه « فيضـانات بغداد في التاريخ » بجائزة الكويت لاحسن كتاب صدر عام ١٩٦٢ اضافة الى جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (عام ١٩٧٥) • هذا وقد كرمته وزارة الثقافة والاعلام لخدماته المتميزة للثقافة العربية عام ١٩٧٧ •

تغطي المذكرات التي بين يدي القارىء الفترة الاولى من حياة المؤلف والتي تمتد من نشأته الاولى في مدينة الحلـة الى مراحل دراسته المختلفة • وقد ارتأيت ابقـاء العنوان الذي كان قـد اختاره « حياتي في نصف قرن » رغـم أن هذه المذكرات كان من المفترض أن تكـون الجزء الاول على أن يليه الجزء الثـاني الذي يتعلق بحياته الوظيفية • ولسـوء الحظ لم يكن قد وضع من الجزء الثاني سوى وريقات قليلة عندما وافته المنية• لكن البحـوث التي اعدها لادخالهـا في الجـزء الثاني والتي ورد ذكـرها في المقدمـة موجـودة ، لذلك فارجو ان اتمكـن ، بعون الله ، من اعـداد الجزء الثاني في المستقبل بنفسي بمساعدة اوراقه ومساهمات رفاقه واصدقائه الذين واكبوا مسيرة حياته ، ومن الله التوفيق •

د• عالية احمد سوسه
بغداد ١٩٨٥

رحمها الله تعالى ، استشهدت في انفجار مبنى الامم المتحدة في بغداد سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

« ان الحياة تبدأ في الشيخوخة ، ولكن هل يعلم الناس كيف يكون شعور الرجل عندما يبلغ من العمر ما بلغت ؟ انه يتمنى لو انه استطاع ان يعيش حياته كلها من جديد ... انه يشعر بقدرة عجيبة على الاستمرار في العمل وفي الحياة وكانه ما زال شابا » .

من اقوال توماس جفرسون قبيل وفاته وهو في الثالثة والثمانين من عمره

مقدمة

يبقى في حياة المرء، بعد بلوغه سن الشيخوخة،
متعة تبعث الحيوية والنشاط في نفسه، مثل المتعة التي
تغمره، حين يستعرض مسيرة الأحداث التي مرت به طوال
السنين التي طواها من عمره عبر العصور، وهو على طريق رحلة
الحياة، [illegible] ... [illegible]
العمر والتجارب، هي جزء من كيانه ووجوده... وليست أحداث
الحياة الإنسانية التي [illegible] إلا صور
ذكريات ودوي، فيها من جميل العواطف وحلوها ما يفرح له
القلب، وفيها من مرارة النكسات ما يدميه، وفيها من أقسى
آلام الكفاح ما يبكيه... فهي تبدأ بالطفولة البريئة الساذجة
لتعقبها مرحلة الشباب في سن المراهقة التي تتميز بالثورة
العاطفية والطيش، ثم تنتقل الحياة إلى مرحلة الكهولة لتتسم
بالنشاطات الجمة في الكفاح الرئيسي الذي يخوضه المرء في المجتمع،
وهي تجري في مطاوي العقل والفكر أهم تجارب الإنسان، وتستفز ذروة
نضجها واكتمال نموها، فيدخل المرء معترك الحياة ويخوض صراعاً مستمراً
بحثاً عن منابع البقاء ومواد الوجود، فتارة تضحك له الحياة
بأعذب العطايات ولحظات تعبس به الأقدار فتصيبه مرارة الشقاء
حتى إذا ما جاء دور الشيخوخة، يقف المرء وقد غزاه بياض الشيب
هنا فيما إذا تخلى عن الفعل وقفة تأمل، فينظر إلى الوراء نظرة فاحص
متسائل "ما هو العمل الذي أنجزه عبر السنين التي طواها
من عمره الطويل في خدمة المجتمع الذي عاش في وسطه وما هي الأعمال

مقدمة

ليس في حياة المرء ، بعد بلوغه سن الشيخوخة ، متعة تبعث الحيوية والنشاط في نفسه ، مثل المتعه التي تغمـــره ، حين يستعرض مسيرة الاحداث التي مرت به طوال السنين التي طواها من عمره عبر العصور ، وهو على ظهر سفينه الحياة ، يمخر عباب مشاكلها ومسئولياتها ، وقد حملته بالمزيد من العبر والتجارب ، هي جزء من كيانه ووجوده .. وليست احداث الحياة الانسانية الا شريطا سينمائيا تعرض عليه صور وذكريات ورؤى ، فيها من جميل العواطف وحلوها ما يفرح له القلب ، وفيها من مرارة النكسات ما يدميه ، وفيها من اقسى آلام الكفاح ما يبكيه .. فهي تبدا بالطفولة البريئة الساذجة لتعقبها مرحلة الشباب في سن المراهقه التي تتميز بالثوره العاطفية والطيش ، ثم تنتقل الحياه الى مرحلة الكهولة التي تتسم بالنشاطات الجمة في الكفاح الرئيسي الذي يخوضه المـــرء في المجتمع ، وهي تخزن في مطاوي العقل والفكر اهم تجارب الحياة ، فتبلغ ذروة نضجها واكتمال نموها ، فيدخل المرء معترك الحياة وهو في صـــراع مستمر بحكم سنة تنازع البقاء وجهاد الوجود ، فتارة تضحك له الحياة باعذب المعطيات وطورا تعبس به الاقدار فتذيقه مـــرارة الشقاء حتى اذا ما جاء دور الشيخوخة ، يقف المرء وقد غمره بياض الشيب ، هذا فيما اذا نجا من الصلع ، وقفة متامل ، فينظر الى الوراء نظرة فاحص متسائلا: « ما هو العمل الذي انجزه عبر السنين التي طواها من عمره الطويـــل في خدمة المجتمع الذي عاش في وسطه وما هي الاعمال التي انجزها في خدمة الانســانية ؟! احقا انه سيفارق الحيـــاه ويغيب عن الاعزة التي انبتت السنون في قلبه عاطفة المودة والحنان ؟! احقا انه سيمضي الى يومـــه الابدي الذي لا يفيق منه بعد ان يكون قد استكمل عقله ونضج تفكيـــره بحيث اصبح يخزن في مطاوي ذهنه الكثير مما يطمح في تدوينه ! ولكـــن انى له ان يحقق هذا الطموح وايامه اصبحت معدودة وطاقة عمله محدوده !

فعجلة الحياة لا ترجع الى الوراء .. الى الامام والى الامام تسير بسرعة دون توقف كحلم في دجى الليل عبر المراحل الممتدة لها حتى تنتهي الى مصيرها المحتوم . والشيء المؤسف في حياة الانسان انه بعد أن يكون قد نضج واصبح يخزن في ذهنه المعرفة والخبرة ، اللتين اكتسبهما عبر حياته الطويلة ، وفي الوقت الذي يستعد لتدوين ما اختزنه من علم ومعرفة طوال هذه السنين ، واذا بالشيخوخة تصرع طاقة عمله فتقعده عن تحقيق طموحه وامانيه !.. ان هذه طبيعة المخلوقات فلا دوام ولا بقاء !.والشخص السعيد هو الذي يكون قد ارتشف من مناهل الحياة العبر والحكم وعمل على نشرها بين الناس فيكون قد افاد واستفاد من التجارب التي اكتسبها في مسيرة الاحداث التي مرت به عبر الحياة ، لأن ما مضى لن يعود ثانية ، وما غمره الزمن وطوته السنون لن يبعث من جديد ، وانما المرء بما يتركه وراءه من العمل الصالح المفيد وبما يقدمه لمجتمعه من خدمات نافعة (الذين آمنواو عملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) . فقيمة الحياة لا يعادلها شيء في الوجود اذا كانت حقبة عمل يفيد الوطن والانسانية ، وما اصدق قوله تعالى : ((واما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)) .

ويواجه المرء في مسيرة حياته مواقف مثيرة وحرجة جدا يتوقف مصير مستقبل حياته كلها على ما قد يتخذه من خطوات وقرارات في معالجتها ، وهذه الخطوات والقرارات هي التي ترسم له تطلعاته المقبلة في مدارج حياته .. فانا لن انسى تلك الحادثة ذات الشجون ولا ذلك الموقف المثير اللذين واجهتهما في مسيرة حياتي ، وقد كان للقرار الذي اتخذته ان غير مجريات حياتي كلها .. اما الحادثة فهي انني كنت قد تزوجت في مطلع شبابي من فتاة امريكية مثقفة ثقافة عالية من اسرة مسيحية بروتستانتية من العوائل الامريكية العريقة بعد ان حكم سلطان الحب بان تصبح رفيقة دربي وشريكة حياتي ، كان كل املي ان اعيش في كنفها وان انعم بعطفها وعونها بعد عودتي معها الى الوطن . وقد رزقت منها بطفل جميل اسميته ((جميلا)) (اسما على مسمى) . لم يوافق جو العراق مزاجها الصحي فمرضت ومرض طفلنا مما اضطرني ان اذهب بها مع الطفل الى اهلها في الولايات المتحدة للتداوي . واما عن الموقف المثير جدا والحرج جدا فانه يتلخص في انها بعد ان تماثلت وعادت اليها والى الطفل صحتهما ، لاعود بهما ، فوجئت بها تطلب الي بل تتوسل الي ان ابقى الى جانبها في امريكا بحجة ان الاطباء قرروا ان مناخ العراق لا يوافقها صحيا ، ولكني ابيت .. اخذ ابواها يضمان توسلاتهما الى توسلاتها

واضمين تحت تصرفي ثروتهما على اعتبار ان ابنتهما هي وحيدتهما ..
فابيت ايضا . وجاء دور الطفل الذي نظر الي بعطف وجراة ولكن ببراءة ايضا قائلا : ((الى اين تذهب يا (داد) اي يا ابتي ؟. لماذا لا تبقى معنا؟.
وها قد مضى على تلك الحادثة حوالي نصف قرن وصورة ذلك المشهد المثير تلاحقني ولم تفارقني لحظة واحدة رغم مرور زمن طويل عليها ..
وكان لا بد من قرار حاسم : (البقاء مع الغنى وضمان المستقبل) او (العودة الى الوطن مع الكفاح) وهذا يعني خسارة زوجتي وولدي ايضا.
وكان القرار ، قراري الحاسم بلا تردد (العودة الى الوطن) . وهكذا كان ، فغير ذلك القرار مجريات حياتي كلها وسار بي القدر الى ما انا عليه اليوم .. وانا لست بنادم على ما فات ولا على ما اخترته في حينه ، وان كان الحنين والشوق الى تلك الزوج وولدها يكويانني بنارهما ..
فالوطن عزيز حتى وان جفاك او جار عليك .. فما اجفى حياة المرء في ديار الغربة حتى مع اسعد واوفر الظروف المعاشية المادية !.

كثيرا ما يسالني بعض الاخوان : ما الذي دفعني الى النزوع الى التاريخ وانا مهنتي مهندس ري؟ . وجوابي على ذلك ، ان هندسة الري والزراعة مرتبطتان بالاحداث التاريخية وبخاصة الاحداث التاريخية القديمة المتعلقة بحضارة وادي الرافدين وكيفية نشوئها وتطورها عبر العصور .
ان الزراعة التي تعتمد على الري والحضارة صنوان لا يفترقان ، فحيثما وجدت الحضارة في مستهل نشوئها وظهر التمدن في اقدم عصوره ، ازدهرت معهما الزراعة التي تعتمد على الري ، وحيثما وجد نظام الري ازدهرت معه الحضارة ، والماء مصدر الحياة (وجعلنا من الماء كل شيء حي - قرآن كريم) ، والعراق بوفرة أنهاره ومياهه واراضيه الخصبة كان لعنصر الماء دخل في بناء كيانه الحضاري القديم وازدهار مدنيته المشهورة ، فمنذ الازل كان الماء ولم يزل مصدر الحياة والازدهار اذا استخدم كاداة للاعمار.
فما كانت حضارة ذات شان في تاريخ الانسان القديم الا كانت تنظيمات الري ومشاريعها الزراعية تحتضن تلك الحضارة فتسير معها جنبا الى جنب في مسيرة تطورها وتقدمها ، ولا ادل على ذلك من ازدهار الحضارات القديمة على ضفاف الانهار حيث الماء والارض وهما عنصران اساسيان في حياة الانسان ، وعليهما قامت في ربوع وادي الرافدين دجلة والفرات وفي وادي النيل اقدم وارقى حضارتين معروفتين في تاريخ العالم القديم ، وقد كان لوادي الرافدين نصيب اكبر في الدور الذي لعبه في تاسيس اقدم حضارة في العالم وذلك في ظل اقدم نظام للري الدائم عرفه تاريخ العالم .

وكان للعرب في مجال العقل الهندسي جولات وصولات والهندسة عندهم كانت نظريات تصف خواص الاشكال والاجسام واثبات ذلك ببراهين ، فكان للمهندس العربي ادوار خطيرة في ضوء الحضارة الاسلامية العربية وقيام النهضة العمرانية التي تركت للعرب تراثاً مجيداً ، وهذا التراث بما فيه من عمارات قديمة وآثار طرازها العربي الخاص بها هو من اسهام المهندس العربي بما تركه العرب من مؤلفات وكتب في مختلف الفنون والعلوم ، وكان للهندسة من هذا الاثر البناء الجبري الذي ابتدعه المتوكل العباسي في قصوره (انظر خلافة المتوكل في مروج الذهب للمسعودي) . وكان اشهر فلاسفة العرب الفيلسوف الكندي الذي كان متضلعاً متخصصاً في علم الهندسة وعلم الحساب ولم يكن ينافسه على الشهرة في هذا الميدان غير ابي معشر وهو جعفر بن محمد البلخي ولكنه لما دخل في المباراة مع الكندي فشل فاضطر الى العدول الى علم آخر غير الهندسة والحساب . وكان للكندي خزانة واسعة بهذا العلم كانت تعرف بالخزانة الكندية لشهرتها . وعلى ذكر هذه الخزانة تخطر الى ذاكرتنا القصة التي رواها ابن ابي اصيبعة في كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » ج١ ، الطبعة الوهابية سنة ١٨٨٢ (ص٢٠٧–٢٠٨) حول المنافسة العلمية في الهندسة بين محمد واحمد ابني موسى بن شاكر من جهة وبين الكندي من الجهة الاخرى بمناسبة حفر النهر الجعفري في عهد المتوكل هذا نصها :

« قال ابو جعفر احمد بن يوسف بن ابراهيم في كتاب حسن العقبى حدثني ابو كامل شجاع بن اسلم الحاسب قال : كان محمد واحمد ابنا موسى بن شاكر في ايام المتوكل يكيدان كل من ذكر بالتقدم في معرفة فاشخصا سند بن علي الى مدينة السلام وباعداه عن المتوكل ودبرا على الكندي حتى ضربه المتوكل ووجها الى داره فاخذا كتبه بأسرها وافرادها في خزانة سميت الكندية ومكن هذا لهما استهتار المتوكل بالآلات المتحركة وتقدم اليهما في حفر النهر المعروف بالجعفري(*) ، فاسندا امره الى احمد بن كثير الفرغاني الذي عمل المقياس الجديد بمصر وكانت معرفته اوفى من توفيقه لانه ما تم له عمل قط فغلط في فوهة النهر المعروف بالجعفري وجعلها اخفض من سائره فصار ما يغمر اللوحة لا يغمر

(*) انظر كتاب « مأساة هندسية او النهر المجهول » للدكتور احمد سوسة ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٧ .

سائر النهر فدافع محمد واحمد ابنا موسى في امره واقتضاهما المتوكل فسمي بهما اليه فيه فانفذ مستحثا في احضار سند بن علي من مدينة السلام فوافى فلما تحقق محمد واحمد ابنا موسى ان سند بن علي قد شخص ايقنا بالهلكة ويئسا من الحياة فدعا المتوكل بسند بن علي وقال له ما ترك هذان الرديان شيئا من سوء القول الا وقد ذكراك عندي به وقد اتلفا جملة من مالي في هذا النهر فاخرج اليه حتى تتامله وتخبرني بالغلط فيه فاني قد اليت على نفسي ان كان الامر على ما وصف لي اني اصلبهما على شاطئه وكل هذا بعين محمد واحمد ابني موسى وسمعهما فخرج وهما معه فقال محمد بن موسى لسند يا ابا الطيب ان قدرة الحر تذهب حفيظته وقد فزعنا اليك في انفسنا التي هي انفس اعلاقنا وما ننكر اننا اسانا والاعتراف يهدم الاقتراف فتخلصنا كيف شئت قال والله انكما لتعلمان ما بيني وبين الكندي من العداوة والمباعدة ولكن الحق اولى ما اتبع اكان من الجميل ما اتيتماه اليه من اخذ كتبه (كتب الكندي) والله لا ذكرتكما بصالحه حتى ترداه عليه كتبه فتقدم محمد بن موسى في حمل الكتب اليه واخذ خطه باستيفائهما فوردت رقعة الكندي بتسلمها عن آخرها فقال قد وجب لكما علي ذمام برد كتب هذا الرجل ولكما ذمام بالمعرفة التي لم ترعياها في والخطأ في هذا النهر يستتر اربعة اشهر بزيادة دجلة وقد اجمع الحساب على ان امير المؤمنين لا يبلغ هذا المدى وانا اخبره الساعة انه لم يقع منكما خطأ في هذا النهر ابقاء على ارواحكما فان صدق المنجمون افلتنا الثلاثة فشكر محمد واحمد هذا القول منه واسترقهما به ودخل على المتوكل فقال له ما غلطا وزادت دجلة وجرى الماء في النهر فاستتر حاله وقتل المتوكل بعد شهرين وسلم محمد واحمد بعد شدة الخوف مما توقعا » .

هذا ما يوضح مكانة الهندسة في العلوم الانسانية عند العرب ، فقد اشتغل ثابت بن قرة في الهندسة التحليلية واجاد فيها ووضع كتاباً بين فيه علاقة الجبر بالهندسة والهندسة بالجبر وكيفية الجمع بينهما وحل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية ، ومن كتبه في هذا الموضوع كتاب « استخراج المسائل الهندسية » و « تنقيح ترجمة اصول اقليدس في الهندسة » التي عربها حنين بن اسحق . « مجلة بين النهرين (١٩٧٤) العدد الخامس من ٢١-٢٩ »

يدل كل ذلك على انه لا يوجد اي تناقض بين هندسة الري والتاريخ بل بالعكس ان كلا منهما متمم للآخر ، ويتميز المهندس في تحليله الدقيق للامور تحليلاً سليما علميا ، فقد سلكت منذ تخرجي من امريكا وحصولي

على الدكتوراه مسلكا علميا بحتا فكانت هوايتي في اثناء ممارستي المهنة كمهندس ري ثم كمدير عام تتبع آثار الجداول التي انشاها اجدادنا في هذه الربوع ومطالعة الكتب والمؤلفات والتقارير التي تبحث في تاريخ الري لا طبق ما دونه القدماء عمليا ، وهذا ما حملني على دراسة التاريخ القديم الذي يبحث كيفية نشوء وتطور الحضارات القديمة وبخاصة حضارة وادي الرافدين ، وهذا ما قادني الى دراسة تاريخ الحضارات وتطورها عبر العصور •

وهكذا فقد تهيأت لي الفرصة السانحة بحكم عملي في مسلك الوظيفة لدراسة مشاريع الري القديمة ومرافقتها طيلة حياتي العملية ، فمنذ ان عينت مهندسا للري سنة ١٩٣٠ اثر تخرجي من جامعات امريكا اتابع دراسة هذه المشاريع دراسة عملية • وهنا وجدت ضالتي فكرست زهاء اربعين عاما من حياتي العملية أتتبع واتجول واحقق دون كلل او ملل ، فلم اترك بقعة من بقاع العراق ، شماله وجنوبه ، جباله واهواره الا زرتها للوقوف على مكنونات هذا التراث العظيم • وكتابي ((الري والحضارة في وادي الرافدين)) ان هو الا حصيلة هذه الحقبة الطويلة من التتبع والتحقيق ، وكذلك كتابي ((العرب واليهود في التاريخ)) ان هو الا حصيلة دراسة تاريخ الاديان •

هذا واذا صح ما يقال بان شخصية المرء تتكون بما تتركه من اثر في حياة الطفولة ، اي بما تتركه من اثر في سلوك المرء في معترك حياته عند بلوغه عنفوان شبابه ، فقد كان نصيب هذا الاثر على حياتي الثقافية بوجه خاص كبيرا • اذ مرت في حياتي في عهد الصبا حوادث ثلاث كان لكل منها اثر كبير في تكوين شخصيتي الثقافية بشكل خاص تمخض عنها نتاج علمي مفيد دونته ايام النضوج الفكري :

كانت اولى هذه الحوادث حادثة اعتناق عمي شقيق والدي المدعو شاؤل للاسلام • وخلاصة هذا الحادث ان عمي الذي كان يسكن في بيتنا مع الاسرة في مدينة الحلة قد غاب بصورة مفاجئة عن البيت من غير سابق انذار او ترك ما يشرح سبب هذا الغياب المفاجيء • فكنت اشاهد الوجوه تطفح بالحزن والقلق مما ينبيء عن حادث جلل اشبه بفجيعة الموت بالنسبة للاسرة باسرها كما كنت اصغي الى الافواه وهي تردد همساً والحسرة طاغية على الوجوه (انه صار مسلما) • وهكذا غاب عمي عنا الى الابد وانقطعت اخباره مع انه كنت اصغي الى الافواه القائلة بانه ذهب الى الصقلاوية حيث كان يقيم جدي في مزرعته ولا تزال القرية

التي اسسها هناك تحمل اسم (سوسه) وهي تقع بالقرب من اطلال الانبار في منطقة الفلوجة ٠

لقد كان لهذا الحادث وانا لم ابلغ بعد السابعة او الثامنة من العمر الاثر العميق في نفسي فترك انطباعات وتساؤلات كانت بالنسبة لعقلي الصغير عقدة حيرتني طوال السنين التالية : ما هو الفرق بين المسلم واليهودي ، الم يكن رفاقي كلهم من المسلمين العب معهم ونتبادل العواطف الطيبه فيما بيننا ، الم نكن كلنا عرباً نتكلم اللغة العربية ؟ لماذا اذن هذا الفرق بين المسلم واليهودي ؟٠ اما المسيحية فلم اكن اعرف عنها شيئا مع انه كانت هناك في المحلة عائلة مسيحية كانت تتعاطى جمع عرق السوس وشحنه الى الخارج لاستعماله في صنع بعض العقاقير وكان للشركات الاجنبية وكلاء في مدن اخرى في الجنوب لجمع هذه المادة ٠

واذا صدق القول بان الحوادث في الصغر هي التي ترسم مستقبل تفكير الانسان في حياته ، فان هذا الحادث طبع في ذهني صورة ذلك المشهد والاثر الذي تركه بين افراد الاسرة ، وقد ظلت هذه الحوادث تحثني على اكتشاف هذا السر الغامض وعلى ايجاد الاجوبة على تلك الاسئلة التي استأثرت بتفكيري سنوات طوالا ، فاول ما دخلت الجامعة الامريكية في بيروت لنيل الشهادة الاعدادية اخذت اقرا واقرا واطالع الى جانب واجباتي المدرسية الكتب التي تبحث في تاريخ الاديان ، وحتى بعد التحاقي بكلية الهندسة في امريكا تفرغت صيفية كاملة ودخلت دورة لدراسة تاريخ الاديان وعلم اللاهوت على اشهر استاذ في جامعة شيكاغو التي تعنى بمثل هذه المواضيع التاريخية القديمة ٠ وكان ذلك قبل اكثر من نصف قرن وبالتحديد صيفية سنة ١٩٢٥-١٩٢٦ ٠ ولما كانت هذه الدراسة تقضي بوجوب اعداد بحث في الموضوع ، فقد اخترت موضوعا بعنوان « دراسة مقارنة بين الاسلام والمسيحية » فحظي هذا البحث برضا الاستاذ وشرح عليه « بحث جيد يتسم بالروح الطيبة » ٠ وقد ناقشت هذا الموضوع بالذات لافهام القارىء الامريكي المسيحي حقيقة الاسلام وتسامحه بنظرته الانسانية الى الديانات السماوية ، وبنظرته الى انبيائهم نظرة تجلة وتقديس وبخاصة السيد المسيح عليه السلام ٠ وهذا كان اول بحث وضعته في موضوع الاديان وهو خارج نطاق دراستي الجامعية(*) في موضوع الهندسة ٠

(*) انظر الملحق الاول : « الاسلام والمسيحية »

صممت الى ذلك ان الاسلام هو الدين الحق الذي يجمع بين الديانات السماوية وهو مبني على المبدأ الانساني الذي يقوم على المساواة والتسامح والفطرة فاخترته عن عقيدة وايمان ومعرفة ، ولكنني كتمت ذلك عن عائلتي مدة لتجنب انزال مصيبة على الاسرة بعد ان طوى الزمن ذكرى الحادثة الاولى . لذلك لم اعلن عن اعتناقي للاسلام الا بعد ان انتهيت من دراستي الجامعية وحصولي على الدكتوراه وعودتي الى الوطن. ثم توظفت فعينت في مديرية الري العامة وبعد مدة قدمت استقالتي وذهبت الى مصر حيث قضيت حوالي اربعة اشهر مداوما في الازهر كمستمع وكمتتبع ، وهناك اعلنت اسلامي بصورة رسمية في ٢٢ شعبان ١٣٥٥ المصادف ٧ تشرين الثاني ١٩٣٦ ، اي قبل خمسة واربعين سنة . وقد وضعت هناك الجزء الاول من كتابي « في طريقي الى الاسلام » وطبع في مصر ، اما الجزء الثاني فطبع في العراق (انظر التصاوير ٢-٧) . ثم ظهر كتابي « العرب واليهود في التاريخ » فتولت وزارة الاعلام العراقية طبعه سنة ١٩٧٢ تحت عنوان « سلسلة الكتب الحديثة » رقم ٢) . ثم طبع عدة طبعات في البلاد العربية وعلى الرغم من محاولة الصهاينة شراء عدد كبير منه واتلافه انتشر الكتاب انتشاراً واسعاً ، وتقوم الآن وزارة الثقافة والاعلام العراقية بطبع آخر نسخة مفصلة في طبعته الخامسة على الاوفسيت وهي تقع في اكثر من الف صفحة (انظر التصوير رقم ٨) .

وهكذا فقد تم لي ما كنت اصبو اليه في عهد الصبا من معرفتي لحقيقة تاريخ الاديان فتحققت اول امنية من امنياتي(**).

اما الحدث الثاني الذي ترك اثره في نفسي ايضاً فهو مشروع ري سدة الهندية (انظر الفقرتين ٥و٦ من القسم الثالث) وهو المشروع الذي لا يزال قائماً في الوقت الحاضر وقد قام بوضع تصميمه والاشراف على تنفيذه سير ويليام ويلكوكس المهندس البريطاني المشهور الذي كانت الحكومة العثمانية قد استقدمته لدراسة مشاريع الري في القطر العراقي . وكان في جملة المشاريع التي اقترحها مشروع سدة الهندية (انظر التصوير رقم ٩) . وخلاصة هذا المشروع ان مجرى نهر الفرات كان يسير قديماً باتجاه بابل حيث تقع مدينة الحلة الحالية الا ان عوامل الطبيعة ادت الى تحول المجرى الرئيس من مجراه البابلي منذ القرن الثامن عشر الميلادي الى الشرق الى جهة ما يعرف الآن بشط الهندية . واهم العوامل التي ادت الى تحول مجرى الفرات صوب شط الهندية المشروع الذي قام به

(**) انظر الفقرة ٩ من القسم الاول.

آصف الدولة وزير محمد شاه الهندي في اواخر القرن الثامن عشر الميلادي لايصال المياه الى مدينة النجف فحفر جدولا يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات من فوق بابل في نقطة تقع على مسافة حوالي مائة كيلومتر منها ويجري باتجاه نهر الكوفة القديم وقد عرف هذا الجدول فيما بعد بنهر الهندية نسبة الى آصف الدولة الهندي . ويؤخذ من الروايات التاريخية ان هذا الجدول اخذ يتوسع على حساب فرع بابل الذي كان يؤلف المجرى الرئيسي لنهر الفرات ، ففي سنة ١٨٣٠ تفاقمت الحالة حتى اصبح من الضروري اتخاذ بعض التدابير لايقاف توسع هذا الجدول اذ بدا يتقلص فرع بابل شيئا فشيئا وما حلت سنة ١٨٨٥ حتى كاد يجف فرع بابل نهائيا مما ادى الى قلق المزارعين المقيمين على فرع بابل وضرورة اتخاذ التدابير للحيلولة دون هلاك مزارعهم وبساتينهم . ففي عهد مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢) تم استقدام مهندسين فرنسيين لاصلاح الحالة وفي سنة ١٨٩٠ قام المهندس الفرنسي شندرفر بانشاء سد محكم على صدر فرع الهندية فاستعمل ما يقارب ستة عشر الف متر مكعب من عتيق الآجر المستخرج من خرائب بابل في انشاء هذا السد الا ان اهمال صيانته ادى الى تصدعه وبقيت الحالة على ما هي عليه حتى استقدمت الحكومة العثمانية سير وليام ويلكوكس للرئاسة مشاريع الري في القطر ، فوضع تصميما لسد جديد يحل محل سد شندرفر في جملة مقترحاته في تقريره المرفوع الى الحكومة العثمانية سنة ١٩١١ فانيط امر تنفيذه الى سير ويليام ويلكوكس نفسه . وقد قامت شركة السر جون جاكسون البريطانية بانشاء المشروع تحت اشراف ويلكوكس ، فبوشر العمل على انجازه في شهر شباط من سنة ١٩١١ وبعد مضي سنتين وتسعة اشهر تم انجاز المشروع وقد افتتح رسميا في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول من سنة ١٩١٣ فاقيم احتفال مهيب ذبحت فيه الذبائح واقيمت فيه الولائم حضره والي بغداد وكبار الموظفين وقناصل الدول وغيرهم من الوجهاء والاعيان وتبودلت الخطب بين الوالي ومدير الشركة التي قامت بالمشروع فحضرت الافتتاح مع ابناء بلدتي الحلة لنشاهد انطلاق المياه من امام سدة الهندية وانسيابها نحو بلدة الحلة التي عانت الكثير من العطش سنوات عديدة(*).

(*) انظر كتاب الدكتور احمد سوسه « وادي الفرات ومشروع سدة الهندية » ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٥

وذكرياتي عن ويلكوكس ترجع الى عهد الصبا (١٩١٢-١٩١٣) حين كان ويلكوكس منهمكا في تنفيذ مشروع سدة الهندية ، اذ كنت ازور ذلك المشروع وهو في حيز التنفيذ وكنت آنذاك لم اتجاوز الاثنتي عشرة سنة فاشاهد ويلكوكس وكله حركة ونشاط برغم كبر سنه يراقب أعمال البناء وفخر الآجر حريصا على تطبيق التصاميم التي وضعها ولا ازال اتذكر انه قضى ليلة في بيتنا في الحلة حيث كان يتردد بين الحين والاخر بزيارة مدينة الحلة وكان يكلف والدي ان يختار له بعض الموظفين من الشباب لاستخدامهم في اعمال المشروع فطلب ان لا يقدم له اي طعام للعشاء غير كوب من اللبن المحلي (الروبة) وعندما سألناه عن سبب ذلك قال ان اهم علاج للوقاية من الامراض بالنسبة للاجانب غير المتعودين على طقس العراق هو اللبن (الروبة) لذلك انصح كل الاجانب الذين يعملون في مشروع سدة الهندية ان يكثروا من استعمال اللبن للمحافظة على صحتهم (انظر التصوير رقم ١١) .

ثم كان موعد افتتاح المشروع في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٣ فاستعد ابناء الحلة الفيحاء للذهاب الى سدة الهندية منذ اليوم الحادي عشر لحضور الافتتاح فكنت معهم وبتنا ليلة في المهناوية(**) وحضرنا كلنا في اليوم التالي لمشاهدة الافتتاح . وكان البرد شديدا قارسا ومع ذلك فكنت انتهز مثل هذه المناسبات لاشباع رغبتي في الذهاب الى الريف خارج البلدة ممتطيا ظهر فرسي المنكية وكان هذا الاحتفال فرصة سانحة لتحقيق هذه الرغبة .

ولقد كان لهذا اليوم المشهود عميق الاثر في نفسي وانطباع راسخ في ذهني الصغير اكبارا واعجابا بمعجزة الفن الهندسي وعبقرية مصمم هذا المشروع العظيم الذي احيى منطقة جنوب الفرات باسرها بعد ان حرمتها الاقدار من عماد حياتها (الماء) سنوات طوال . وكم تمنيت لو كنت مهندسا مثل ويلكوكس لكي يتسنى لي ان اقوم يوما ما بمثل هذه الاعمال الجبارة وان انسى فلم انس ولن انسى ذلك اليوم وانا ممتط

(**) المهناوية مقاطعة واسعة من الاراضي الزراعية كانت تحت ادارة والدي وكانت هناك بناية حديثة وبستان واسع فيه كل انواع الاشجار المثمرة كما كان هناك مضيف خاص لاستقبال الضيوف مجهز بالافرشة لمنامهم والطعام لهم فكان يرحب بكل زائر او مستطرق ان ياوي اليه ، وكان هناك اصطبل واسع جدا لايواء خيول الزوار والضيوف (انظر التصوير رقم ١١) .

صهوة فرسي عند عودتنا وأنا أسرع مع جمهرة من الفلاحين والمزارعين وهم يحدون بأناشيدهم (وهوساتهم) العربية العامية مهللين فرحين فكنا في عودتنا نمضي مع مجرى الماء الجديد على طول طريق النهر نسابق مجرى الماء وقد غطته رغوة بيضاء وهو ينساب كالأفعى بين منعطفات عمق النهر الجاف حتى وصلنا وإياه إلى بلدة الحلة حيث كانت الجماهير المحتشدة على النهر تستقبل المياه الراجعة إلى الحياة مستبشرين بالبشرى السارة وهي ترحب بوصول الماء إلى هذه المنطقة التي بقيت محرومة منها سنوات طوال (انظر التصوير رقم ١٢) .

وقد تم لي بعد مضي خمس وأربعين سنة أن أصبحت مديرا لمنطقة ري الفرات المسؤول الأول عن إدارة مشروع سدة الهندية نفسه وأن الذي أقر منهج مناوبة تقسيم المياه بين شط الهندية (جدول آصف الدوله الهندي) وشط الحلة (مجرى الفرات القديم) ، والأهم من كل ذلك كنت بحكم مسؤولياتي أقضي بعض الليالي في سدة الهندية في نفس البناية التي كانت شركة جون جاكسون قد أنشأتها لسكنى مهندسيها في أثناء تنفيذ المشروع ، فكنت أتذكر أيام الصبا حين كنت أذهب إلى سدة الهندية عندما كانت هذه البناية نفسها تحت الإنشاء .

وبهذا تحققت أمنيتي الثانية فصرت مهندسا بل أكثر من ذلك أصبحت مسؤولا عن إدارة منطقة ري الفرات كلها ومن ضمنها مشروع سدة الهندية فتعرفت على كل ما كنت أتوق إلى معرفته في عهد الصبا عن المعجزة الفنية التي انطوت عليها تصاميم مشروع سدة الهندية التي وضعها سير وليام ويلكوكس حتى أصبحت ملما بكل ما يتعلق بهذا المشروع من حيث تاريخه وتصاميمه فانتهيت إلى تأليف كتاب باللغة الإنكليزية عن تاريخ مشروع سدة الهندية وتفاصيل تصاميمه عنوانه ((سدة الهندية ، تاريخها ، تصميمها ، عملها))

"The Hindiyah Barrage—Its History, Design and Function".

وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة الحكومة سنة ١٩٤٥ وكما أسهمت القضية الأولى بتأليف كتاب ((العرب واليهود في التاريخ)) كذلك أسهمت القضية الثانية بتأليف كتاب ((مشروع سدة الهندية)) المذكور (انظر التصوير رقم ١٣) .

أما الحادث الثالث الذي كان له أثر في تكوين شخصيتي الثقافية فهو ولعي منذ الصغر بالآثار والتاريخ ، فقد كنت في مرحلة الطفولة أزور بين حين وآخر المواقع الأثرية المجاورة لبلدي ومسقط رأسي الحلة وأهمها

خرائب بابل وهي لا تبعد عن مدينة الحلة اكثر من بضع كيلومترات بحيث تكاد تكون من ضواحي المدينة ثم اطلال مدينة كيش الواقعة في الصحراء وهي مجاورة الى بابل وهي مدينة سرجون مؤسس الامبراطورية الاكدية (السامية العربية) • اما بابل فلم تفارقني آثارها طيلة الفترة الاولى من حياتي حيث كان اجرها الذي يحمل اسماء ملوكها الاوائل على جدران بيوتنا اذ انشئت من الآجر المنتزع من بنايات بابل الضخمة • واما اطلال كيش فكانت تقع في صحراء قاحلة غير ماهولة آنذاك تعرف باطلال الاحيمر لذلك فكان لا بد من زيارتها برفقة الجندرمة للمحافظة • وبحكم مركز والدي كان علماء الآثار يراجعونه لارسال الادلة معهم •

لقد كان هذا التراث الحضاري التليد مصدر ولعي منذ الصبا حيث كنت وانا لم اطو بعد العاشرة من عمري اتردد على بابل كلما سنحت لي الفرصة لذلك،فكنت اشاهد الآثاري الالماني الشهير الدكتور روبرت كولدواي (Dr. Robert Ko dewey) غارقا بين القطع الاثرية المكتسبة في مقر اقامته في ((كويرش)) وهو يصنفهـا ويرممها ويرتبها ويحفظها في صناديق خاصة • وان انسى فلن انسى تلك القطط النادرة ذات الوبر الكثيف في داره وقد توالدت حتى اصبحت اشبه بقطيع من الغنم وكنت الاعب الصغار منها (انظر التصويرين ١٤و١٥) •

وان انسى فلن انسى سفرتي الاولى في شتاء ١٩١١-١٩١٢ الى اطلال الاحيمر وهي بقايا مدينة كيش السامية حيث كان الاب ((دي جنويلاك)) (Abbé H. de Genouillac) الآثاري الفرنسي يقوم بتنقيباته مبعوثا من وزارة المعارف العمومية الفرنسية (انظر التصوير رقم ١٦) •

وكم كنت اتمنى لو كنت افهم تاريخ هذه الاقوام التي اسست اقدم حضارة عرفها التاريخ (حضارة وادي الرافدين) • والآن وقد انقضى على ذلك اكثر من خمسين سنة كانت حصيلتها تاليف كتاب ضخم عن ((تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية)) (انظر التصوير رقم ١٧) •

والآن وقد تجاوزت الثمانين من عمري احمد الله الذي متعني بنعمة الحياة طيلة هذه المدة ما جعلني قادرا على الاستمرار في البحث والتاليف• كما احمده تعالى الذي مهد لي السبيل وقيض لي من يرعى طبع بحوثي بشخص السيد الرئيس صدام حسين ذلك المصلح الكبير مهندس الثورة وقائدها الفذ الذي ليفته العناية الالهية للامة العربية لاصلاح شانها وبعث نهضتها في كل مجالات العمران • فكان لسيادته الفضل الاول بطبع

كتاب « حضارة العرب وتطورها عبر العصور » فامر بطبع خمسين الف نسخة منه سنة ١٩٧٩ ، وكذلك امر بطبع خمسين الف نسخة من كتاب « حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين » سنة ١٩٨٠ ، واخيرا امر بطبع ١٥ الف نسخة من كتاب « تاريخ حضاره وادي الرافدين » الذي يقع بجزئين وباكثر من الف صفحة من القطع الكبير مع اكثر من للثمانة تصوير وخارطة ، فالفضل الاول في ظهور هذه البحوث يعود اليه حيث كان ولا يزال يتابع الصغيرة والكبيرة في كل ما يتعلق بمستقبل هذا البلد وتدوين تاريخه الحقيقي ،

والآن وانا اعيش المرحلة الاخيرة من حياتي ، فتدفعني الرغبة الشخصية ورغبة الكثير من اصدقائي الادباء والكتاب والباحثين في عرض شريط احداثها لاركن في آخر ايامي الى ذكرياتها ، ولحسن الحظ اني احتفظ بمفكرة دونت فيها احداث السني الاولى من دراستي في الجامعة الامريكية في بيروت وبعض احداث دراستي في الولايات المتحدة الامريكية قبل اكثر من نصف قرن ، كما اني احتفظ بمجموعة من الرسائل المتبادلة بيني وبين الاصدقاء مع مجموعة من المقالات المنشورة وغير المنشورة في مختلف المواضيع ، فاخترت البعض منها ادونها كما وردت في الاصل دون ان اغير واصحح فيها متمسكا بالامانة العلمية التي اعتدتها في جميع بحوثي ،

ولا بد من الاشارة في هذا الصدد الى ان سيرتي هذه تختلف عما اعتاد القارىء ان يطالعه من السير والمذكرات السياسية المألوفة ، فانا لم اكن من اصحاب المعالي والفخامة ولا طمحت في يوم من الايام ان اصل الى هذه المناصب السياسية في حياتي ، فانصرفت كليا للبحث والتتبع منذ ان وطأت قدماي ارض الوطن بعد العودة من الدراسة في خارج العراق قبل حوالي خمسين سنة مستغلا وظيفتي الى اقصى حدود الاستغلال في هذا المجال بعيدا عن الجو السياسي المشحون بالنفاق والرياء ، ومع ابتعادي عن هذا الجو فلم اسلم من الاكتواء بنار حقد وحسد بعض الزملاء ممن اوصلتهم الظروف الى اعلى درجات سلم الحكم بحيث اصبح مصيري في الوظيفة مربوطا باهواء هؤلاء الحاقدين يتلاعبون به كما يشاؤن ، ولكن رغم كل ذلك فامثال هؤلاء عاشوا في عالم الخمول والاهمال وسيغادرون هذه الدنيا كما جاؤها دون ان يتركوا اثرا لهم ، ومهما قيل في الماضي فاذا استعرضنا دخائله وبواطنه وفحصناها بدقة نجد ان ذلك الجو الملبد بالغيوم والرعود هو الذي بعث سيل الثوره العارمة على الاوضاع الشاذه السائدة آنذاك ،

لذلك وبناء على ما تقدم فسوف يجد القارىء في هذه السيرة مايتصل ببعض الشؤون التاريخية والمشاريع الهندسية التي مارستها في السنوات التي طويتها من حياتي وقد فرضتها ظروف السيرة . وبذلك يكون هذا البحث قد جمع بين ترجمة الحياة وبين دراسة جانب مهم من تاريخ العراق، ففي هذا الجزء الاول ادخلت بحثا موجزا عن تاريخ يهود العراق القديم لما كان في احداث سيرتي من صلة به فكانت حافزا للخوض في هذا الموضوع التاريخي الشائك . وفي الجزء الثاني بحث آخر عن تاريخ الاثوريين في العراق انجزته اثر اشتغالي في مشروع ري اعد للاثوريين في المناطق الشماليه سنة ١٩٣٢ ما جعلني ان اعيش مع تلك الاحداث فترة من الزمن. وهناك في الجزء الثاني ايضا بحث عن مشاريع الري في المملكة العربية السعوديه التي عهد الي بانجازها بتكليف من الحكومه السعوديه وبموافقة الحكومه العراقية سنه ١٩٤١ وغير ذلك من المشاريع التي قمت بها في العراق في الوظيفة وخارج الوظيفة .

ولئن تطرقت في القسم الثالث الى بعض الحوادث الشخصية مما يتصل بعهد الشباب ، تلك الحوادث التي سميتها « مغامرات غراميه » (انظر الفقره٧ج في الباب الثالث من القسم الثالث) وهي رواية واقعيه من واقع الحياة الامريكيه خاليه من اي (رتوش) فانما استهدفت من ذلك الكشف عن بعض جوانب الحياه الاجتماعية في المجتمع الامريكي والدور الذي تلعبه المادة وتأثيرها فيه ، هذا الى جانب المشاكل التي ترافق الزوج بالاجنبيات والقلق النفسي الذي يواجهه الطالب العراقي لاول مرة حين يختلط بالمجتمع الامريكي الصاخب .

وقد ارتأيت ان اقسم هذه المذكرات ، ان صح اطلاق هذا المصطلح عليها ، الى بابين او جزئين ، يتناول الجزء الاول ، وهو هذا الجزء ، حياتي ايام الصبا والدراسه ، والثاني يتناول حياتي في الوظيفة ، والجزء الاول هذا يقسم الى ثلاثة اقسام وهي كما يلي :ـ

١ ـ القسم الاول ـ اسرة آل سوسه
٢ ـ القسم الثاني ـ تاريخ يهود العراق القديم
٣ ـ القسم الثالث ـ حياتي المدرسية ويقسم بدوره الى ثلاثة اقسام :

ا ـ نشأتي الاولى ودراستي الابتدائية
ب ـ دراستي في الجامعة الامريكية في بيروت
ج ـ دراستي في امريكا



التصوير رقم (١) ـ ولدا المؤلف عالية وعلي في عهد الطفولة ..



بقلم

الدكتور أحمد نسيم سوسة

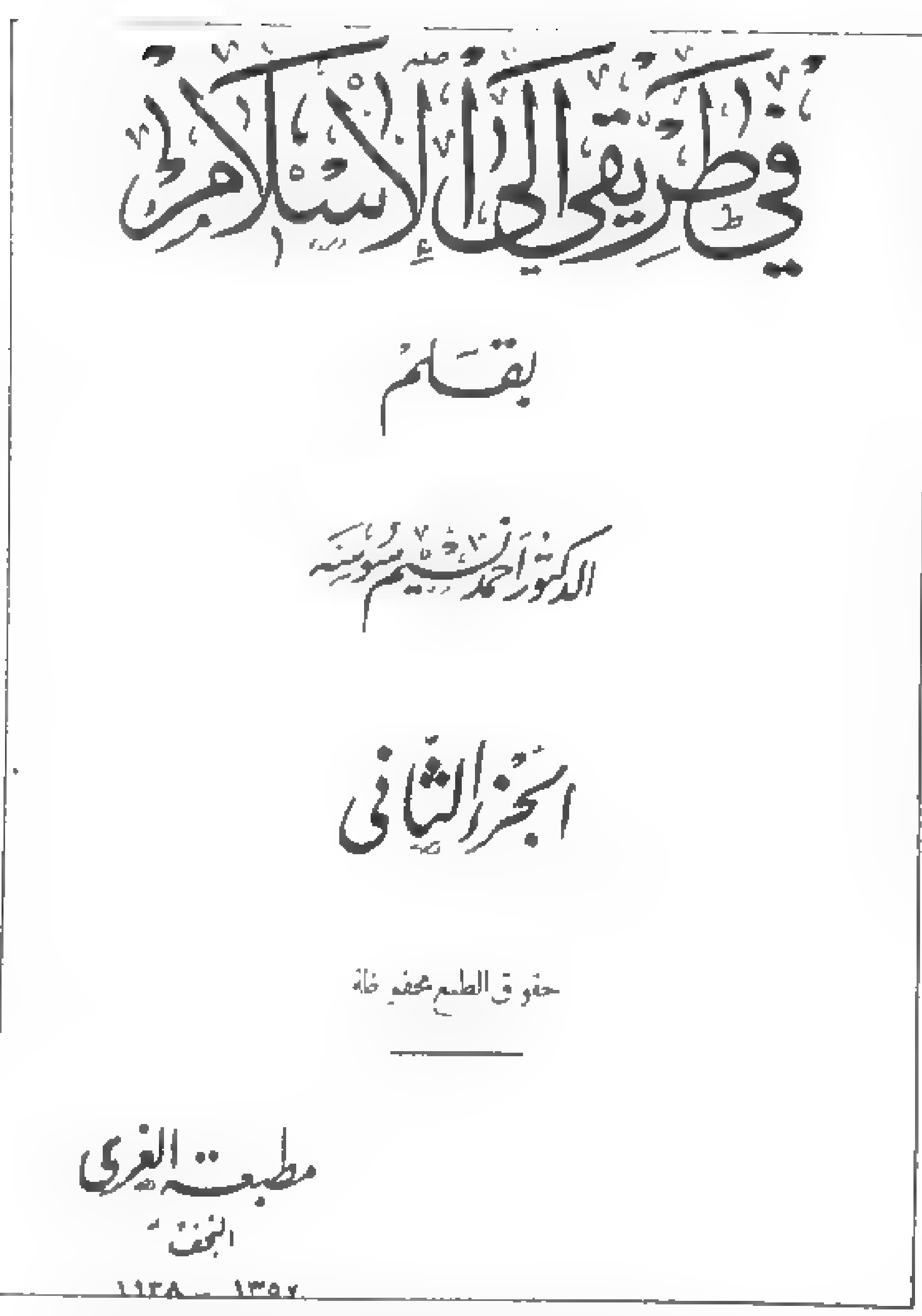
« وما كان قط اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولذة ، بل لما يثور في قلوبهم من دواعي الشرف والعظمة »
توماس كارليل

القاهرة

١٣٥٥ — ١٩٣٦

المطبعة السلفية ومكتبتها
لصاحبيها محب الدين الخطيب

التصوير رقم (٢) ـ صورة غلاف كتاب « في طريقي الى الاسلام » ، الجزء الاول ، مطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٣٦ .



في طريقي الى الإسلام

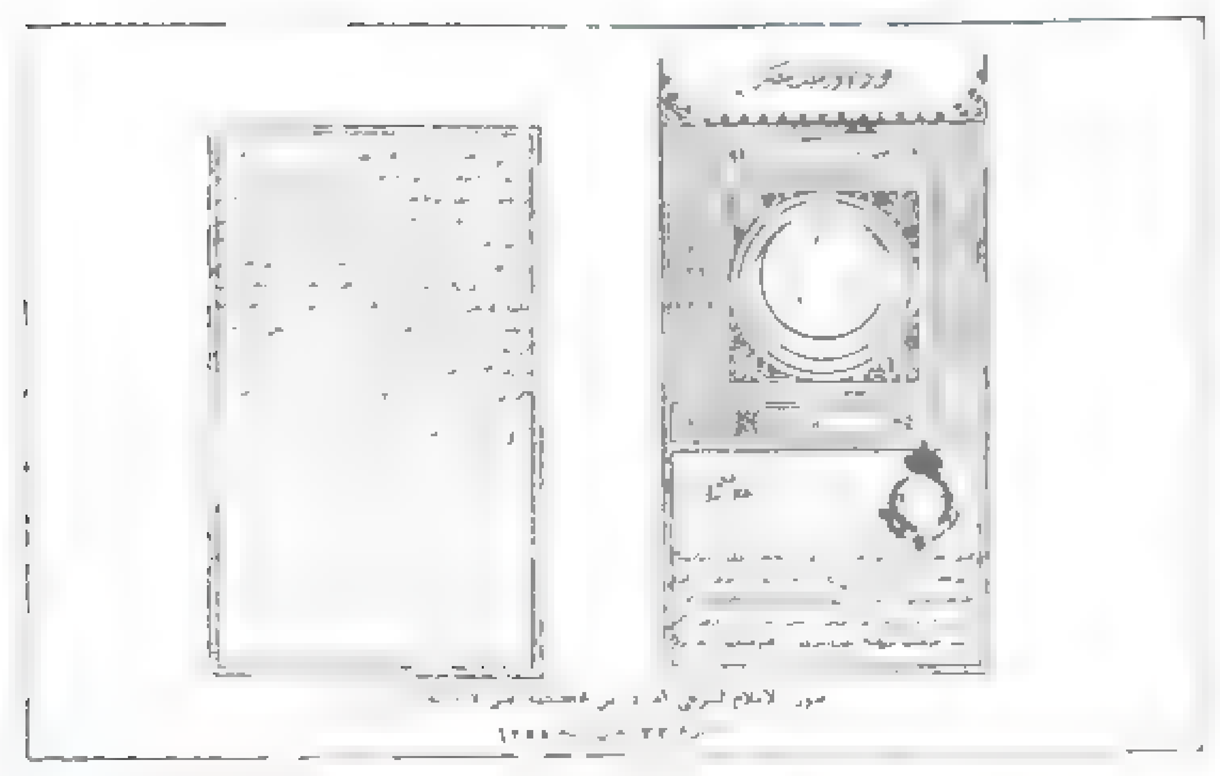
بقلم

الدكتور احمد نسيم سوسه

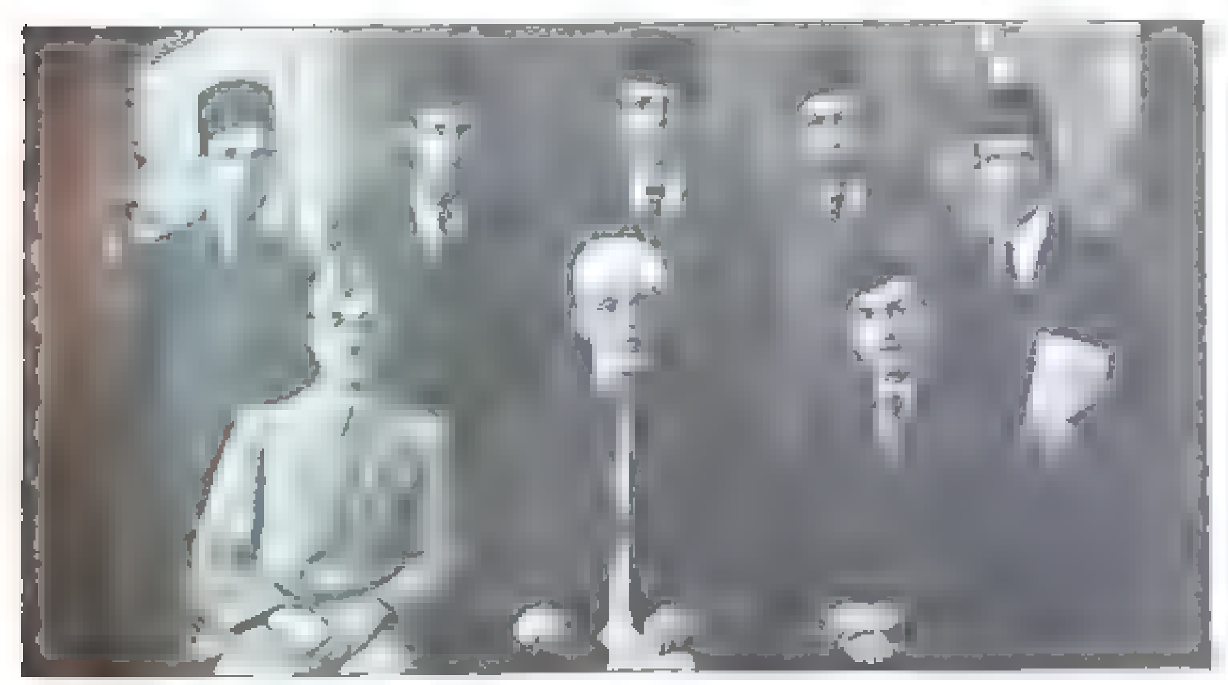
الجزء الثاني

مطبعة الغري
النجف
١٣٥٧ – ١٩٣٨

التصوير رقم (٢) – صورة غلاف كتاب « في طريقي الى الاسلام » ، الجزء الثاني ، مطبعة الغري ، النجف الاشرف ، ١٩٣٨ .



التصوير رقم (٤) ــ صورة الاعلام الشرعي الصادر من محكمة مصر الابتدائية الشرعية بتاريخ ٢٢ شعبان سنة ١٣٥٥ (٧ نوفمبر ١٩٣٦) .



التصوير رقم (٥) ــ اخذت هذه الصورة في الحفلة التكريمية التي اقامتها جمعية الهداية الاسلامية بالقاهرة ويرى فضيلة الاستاذ السيد محمد الخضر حسين رئيس الجمعية ، ومن يمينه المؤلف ومن يساره الدكتور محمد الهاشمي عضو البعثة العراقية ويحيط بهم صاحب العزة محمد حلمي بك وكيل التفتيش الاداري وبعض شبان الجمعية وشباب الجامعة المصرية .



التصوير رقم (٦) ـ هذه صورة لدية أخذت في الر حملة التكريم التي أقامها جمعية
الهداية الاسلامية ويرى الاستاذ محمد الخضر حسين رئيس الجمعيـة
يحيط به أعضاء الجمعية وبعض شباب العاصمة المصرية ..

الى المؤلف

من قصيدة للعلامة الشيخ كاظم آل كاشف الغطا

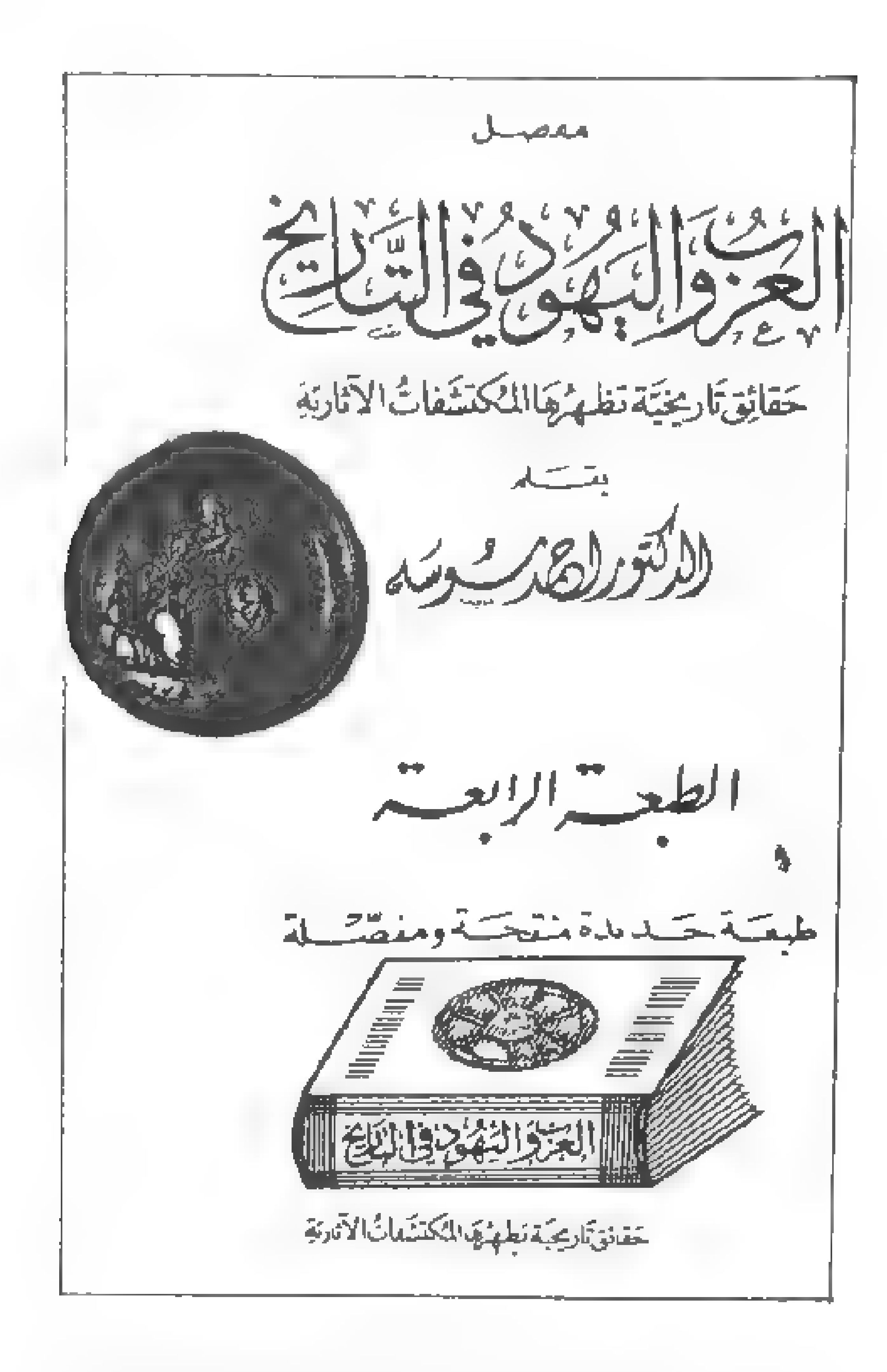
حلفتُ بربِّ مكّةَ والمصلّى
وبالبيتِ المقدّس والحطيم
لَذِكْرُكَ باسمٍ أحبّ عندي
من الشهدِ المصفّى والنسيم
مدحتكَ يا قليل المثل لمّا
رأيتك حلواً خُلق الحليم
أقول لعاذلي لمّا لحاني
غرامي في محبته غريمي
عشقتُ مكارمَ الأخلاق منه
وحسنُ الخلق يُعشق في الكريم
يحوق بنبله علمَ البرايا
ويبهر حلمُه عقلَ الحكيم

تقرّبَ في طلاب العلم غربا
وأشرق نورُه فوقَ النجوم
يحبُّ الخيرَ والاحسان طبعا
يقول لنفسه الخير رُومي
وخيرُ طبائع الانسان فيه
من المعروف والقلب السليم
يزيدُ تواضعا إن زاد شأنا
كذلك شأنُ ذي الشرف القديم

فبشرى يا بني الأوطان بشرى
لهذا القطر بالرجل الكريم
يتمّ يا حبيبي في حياة
تقول لها مدى الايام دومي
بأنواع المسرة والتهاني
ورغد العيش والشرف الجسيم
تفوح الحلة الفيحاء منه
بطيب الذكر والفضل العميم

بحجر المجد والمعروف رُبّي
وغُذّي بالمعارف والعلوم
وهاجرَ لاكتساب العلم دهراً
يخاطبُ نفسه بالجدّ قومي
يحققُ سائرَ الاديان مهما
يكلفه من النصب الأليمْ
كفى الاسلامَ والتنصير بحثا
لتمييز الصحيح من السقيم
ويسهر دائما طولَ الليالي
يقول لكتبه أنتِ نديمي
نديمٌ يُطرب الأفكارَ طوراً
ويؤنس ساهرَ الليل البهيم
نديمٌ لايمل ولا يعادي
ولا يفشي لأسرار الكتوم

التصوير رقم (٧) — من قصيدة العلامة الشيخ كاظم آل كاشف الغطاء الى المؤلف
(مؤلف كتاب « في طريقي الى الاسلام » ..) ..



التصوير رقم (٨أ) ـ صورة غلاف كتاب « مفصل العرب واليهود في التاريخ » ، الطبعة الرابعة ، قام بنشره المكتب العربي للاعلان والنشر والطباعة والترجمة ، دمشق ، ١٩٧٥ .



التصوير رقم (٩) – مشروع سدة الهندية (١٩١١–١٩١٣) م تم بتصميمه وتنفيذه السير وليام ويلكوكس احياء مشروع بالاكوباس القديم ..



التصوير رقم (١٠)

سير وليام ويلكوكس (١٨٥٢–١٩٣٢)



التصوير رقم (١١) — مؤلف في مزرعة
[illegible] ١٩١٢ ، حيث كان
يقضي أكثر أوقاته فيها ..

التصوير رقم (١٢) — مشهد من حفلة افتتاح مشروع سدة الهندية يوم ١٢ كانون الاول ١٩١٣
(انظر الفقرة ٦)



THE

HINDIYAH BARRAGE

Its

History, Design and Function

By

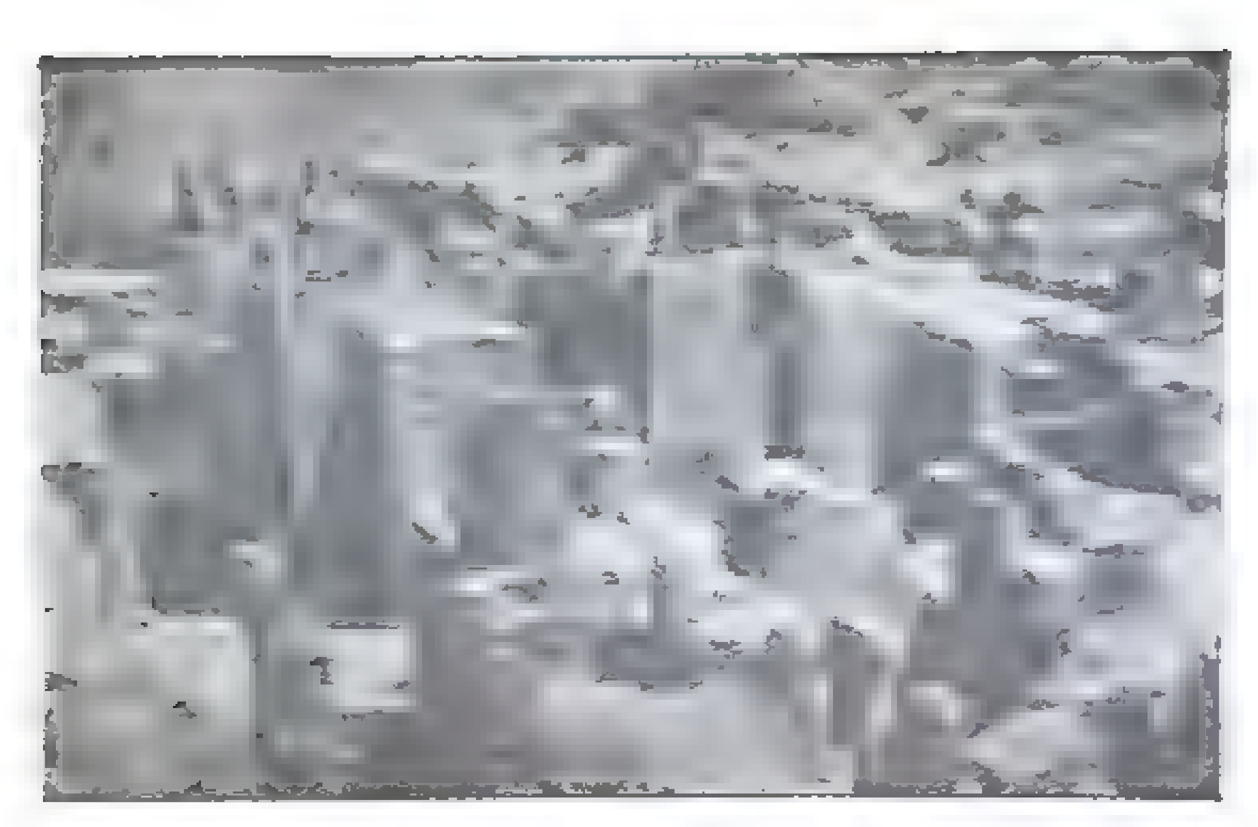
Ahmed Sousa, B. Sc., M. A., Ph. D

Irrigation Engineer, Irrigation Directorate General

With 17 Maps and 22 Illustrations

Printed at the Government Press,
BAGHDAD
1945

التصوير رقم (١٢) ـ صورة كتاب « مشروع سدة الهندية ـ تاريخه ، تصميمه ، عمله » ، مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٤٥ .



المصور رقم ٤ ـ أطلال مدينة بابل ..



المصور رقم (١٥) ـ المؤلف فوق أسد بابل سنة ١٩٦٩ .

التصوير رقم (١٦) ـ منظر لاطلال مدينة كيش .



التصوير رقم (١٧) - صورة غلاف كتاب « تاريخ حضارة وادي الرافدين » ، دار الحرية ، ١٩٨٣ م

القسم الاول

اسرة ال سوسة

« ان اسرتنا (آل سوسه) عربية الأصل ، في الوطن ، وفي العرق ، وفي القومية واللغة ، وهي من قبائل الجزيرة العربية المهودة قبل الاسلام ، وقد استقرت على ساحل الفرات الأوسط على عهد الخليفة عمر (رض) حين اخرج القبائل العربية المتهودة والمتنصرة من جزيرة العرب • وقد امتهنت الاسرة الزراعة ومارستها في جنوب اليمن (حضرموت) وفي سواد العراق واستمرت تعمل في هذا الميدان منذ ان وطات اقدامها ارض العراق لفترة حوالي ثلاثمائة والف سنة • فتركت ثلاث قرى زراعية على نهر الفرات وبستانا على نهر دجلة وهذه لا تزال تحمل اسم الاسرة (سوسه) حتى هذا اليوم • » •

١ ـ تمهيد . ٢ ـ هجرة جدنا الاقدم وحاشيته من جزيرة العرب الى منطقة الفرات الاوسط . ٣ ـ اصل تسمية لقبنا (سوسه) . ٤ ـ مدينة سوسه في تونس . ٥ ـ قرية سوسه في البو كمال بسورية . ٦ ـ جزيرة سوسه وعين سوسه في منطقة الحديثة . ٧ ـ قرية سوسه في الصقلاوية وبستان سليم افندي سوسة في بغداد . ٨ ـ انتقال الاسرة الى الحلة ـ تاريخ ولادتي فيها . ٩ ـ حادث مفجع .

ان وطن اسرتنا (آل سوسه) الاصلي هو جزيرة العرب (جنوبي اليمن) ، فاسرتنا تنتمي الى القبائل العربية التي نزحت بعض بطونها وافخاذها في جنوبي الجزيرة ، وقد اجليت البطون التي لم تكن لها عهود خاصة مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) ، فنزحت الى منطقة الفرات الاوسط المحاذية لبادية الشام ، وقد كانت اسرتنا من بينها .

وقد حافظت هذه البطون المتهودة على قوميتها ولغتها العربية وتقاليدها وعادات القبائل التي تفرعت منها متمسكة بأعرافها ونظم حياتها الاجتماعية في الجاهلية ، ولم يفرق بين اخوانهم العرب في شيء غير الدين الذي اعتنقوه عن طريق التبشير ، فحفظوا على ظهر قلب بعض نصوص التوراة باللغة العبرية بتلقين الكهنة المبشرين من اليهود من غير ان يفهموا معناه . هذا في حين ان بعض بطون اخرى من قبائل الجزيرة قد تنصروا فيما بعد عن طريق التبشير ايضا محافظين مثل البطون المهودة على لغتهم العربية وعاداتهم وتقاليدهم واعرافهم كنصارى نجران والمناذرة والغساسنة وغيرهم .

وقد بقي اهل الجزيرة بين اليهودية والنصرانية والوثنية حتى ظهر الاسلام ، دين الحق والفطرة ، فاخذ به العرب عن عقيدة وايمان . وقد انزل بلغتهم العربية التي ورثوها عن اجدادهم (انا انزلناه قرآنا عربيا) ، فتحمسوا له ودخلوا فيه افواجا حتى انتشر في الآفاق واكتسح الوثنية من اكثر بلاد العالم (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) . وفي ذلك يقول العالم الالماني الدكتور « دتلف نيلسون » : « لا يوجد دين من الاديان قدّر الله له النجاح في القضاء على الوثنية كما قدر للاسلام . »(١)

---

(١) « التاريخ العربي القديم » ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، ص١٧٢ .

وهناك ما يدل على ان اكثر الجماعات المتهودة والجماعات المتنصرة التي اخرجت من جزيرة العرب وفي جملتها بعض افراد عائلة سموءل اعتنقت الاسلام بعد ظهوره وانتشاره لما بينهم وبين مجاوريهم من القبائل العربية من تراث مشترك يجمع بينهم جميعاً ، وهو التراث الصحراوي المتمثل بحياة البداوة القاسية والبيئة الصحراوية .

ولما هاجر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة حرص على تحقيق الوحدة بين القبائل العربية وازالة ما كان بين اهل المدينة قبل الاسلام من الفرقة بابطال حروبهم ومنازعاتهم حتى يسود الاخاء بينهم جميعاً . وتحقيقاً لذلك كتب كتابا في ذلك جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : انهم امة واحدة من دون الناس ... وان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وان يهود بني عوف آمنة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم ، الا من ظلم واثم ، فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته وان ليهود بني النجار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف . وان موالي ثعلبة كانفسهم وان بطانة يهود كانفسهم وانه لا يخرج منهم احد الا باذن محمد صلى الله عليه وسلم »(٢)

يتضح مما تقدم ان الذي كان يفرق بين الأمة الواحدة هو الدين وحده ، فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يرمي من وراء كتابه المذكور تحقيق الإخاء بين الجميع بصفتهم امة واحدة وان لا يكون الدين سببا في الفرقة بين القبائل ذات القرابة الواحدة (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) وفي هذا الشعار الاسلامي السامي دليل واضح على ان القبائل المتهودة عربية الاصل وان اليهودية كانت منتشرة بين اكثر القبائل العربية حتى بين قسمة الاوس المناوئة لليهود»(٣) ومن الواضح ايضاً ان المقصود باليهود في كلام النبي صلى الله عليه وسلم هو القبائل العربية المتهودة في جزيرة العرب .

وذكر العلماء ان البعض من الانصار كان مسترضعاً في بني قريظة (من يهود يثرب) وغيرهم من اليهود ، فتهودوا ، وان من الانصار من كان يرى في الجاهلية ان اليهودية افضل الأديان ، فهوّدوا اولادهم ، فلما جاء الاسلام ودخلوا فيه ، ارادوا إكراه ابنائهم الذين تهوّدوا على الدخول فيه ، فنزل

---

(٢) سيرة ابن هشام ، ج٢ ، ص١٤٧–١٤٩ وما بعدها

(٣) « تاريخ اليعقوبي » ، طبعة النجف ، ١ : ٢٢٦

الوحي بالآية الشريفة : « لا اكراه في الدين • قد تبين الرشد من الغي • »(٤) وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « قد خيّر اصحابكم فان اختاروكم فهم منكم ، وان اختاروهم فهم منهم • »(٥) وقد شرحنا هذا الموضوع بشكل أوسع في القسم الثاني « موجز تاريخ يهود العراق القديم » •

٢ ـ هجرة جدنا الاكبر وحاشيته الى منطقة الفرات الاوسط

لقد نزحت أكثر البطون المتهوّدة من القبائل العربية التي اجلاها الخليفة عمر (رض) عن جزيرة العرب الى وادي الفرات في سوريا والعراق ، بينما اتجهت بطون أخرى الى شمالي افريقية وغيرها من البلاد العربية المجاورة ، كما لجأ بعض اليهود العرب من نواحي الحجاز وخيبر الى الكوفة واشتهر من يهود الكوفة موسى بن اسرائيل الطبيب الكوفي (١٢٥ـ٢٢٢هـ)(٦) وقد استقر جدنا الاكبر وأسرته وحاشيته ومعهم ماشيتهم وأموالهم المنقولة في منطقة الفرات الاوسط ، وهي المنطقة التي تتجهت نحوها الهجرات العربية من الجزيرة نفسها في عهد الاكديين والعموريين والبابليين والآشوريين والكلدانيين قبل أكثر من خمسة آلاف سنة ، اذ كان الفرات منذ اقدم العصور ولا يزال الموئل الطبيعي للهجرات العربية من وطنها الصحراوي في جزيرة العرب • ولما كان يهود الجزيرة الذين كانوا يسكنون في منطقة حضرموت الزراعية ذوي خبرة بالاعمال الزراعية فمارسوا الزراعة في مستقراتهم الجديدة على نهر الفرات الى جانب اهل المنطقة ، وهم عرب مثلهم لم يفرق بينهم غير الدين •

وقد ورد فيما رواه الاخباريون أن الخليفة عمر (رض) لما امر بجلاء من لم يكن له عهد خاص مع النبي محمد (ص) من اليهود عن جزيرة العرب ارسل ابا الهيثم بن التيهان وسهل بن ابي خيثمة وزيد بن ثابت ، فقوموا نصف التربة بقيمة عدل ، فدفعها اليهم ، وأجلاهم الى جهة بلاد الشام•(٧) وهذا ما معناه أن عمر (رض) دفع تعويضا الى العرب اليهود الذين اجلوا عن ديارهم عن اموالهم غير المنقولة وممتلكاتهم الارضية • أما المقصود ببلاد الشام فهو منطقة الفرات الاوسط •

ويلاحظ ان هذه المناطق التي نزح اليها اعراب الجزيرة المتهودون لم تكن في اواسط القرن السابع الميلادي ، اي قبل حوالي الف وثلاثمائة سنة كثيفة السكان ، اذ كان المجال فسيحا لكل من كانت عنده امكانية اعمار الاراضي

---

(٤) سورة البقرة ، رقم ٢ ، آية ٢٥٦

(٥) تفسير الطبري ٣ : ١٠ وما بعدها

(٦) « طبقات الاطباء » ، ج١ ، ص١٦١

(٧) الدكتور جواد علي ، « العرب قبل الاسلام » ، ٦ : ١٧٢

الزراعية ، مكان شأن القادمين الى هذه المنطقة شأن جميع القبائل العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستقرت في مناطق الهـلال الخصيب • ولما كان القادمون عرب لغة وقومية فلا عجب ان استقبلهم السكان بابلغ الترحيب عملا بما اشتهر به العرب من اكرام الضيف وايواء الغريب • والمهم في هذه المرحلة ان مبدأ « الارض لمن يزرعها » كان هو المطبق عمليا وبصورة طبيعية مع مراعاة حق الاسبقية لمن وجد من قبل •

وهناك ما يدل على ان سكان هذه المنطقة سمحوا لهؤلاء القادمين بان يستغلوا بعض الاراضي الزراعية الخصبة على نهر الفرات فاستقروا في المنطقة الممتدة على طول نهر الفرات في مناطق دير الزور وعانه والحديثه ، حيث كانت هناك مراكز يهودية مهمة • ففي بلدة «دورا» (صالحيه الفرات) عثر على اثر كنيس قديم يرجع الى القرن الثالث الميلادي مما يدل على ان بعض عائلات هناك اعتنقت الديانة اليهودية (٨) وفي كتابة آرامية عثر عليها في هذا المعبد تشير الى انه قد شيد سنة ٥٥٦ سلوقية تقابلها السنة الثانية من تولي الامبراطور فيليب العربي ، حوالي سنة ٢٤٦م (٩) • وتتميز الرسوم الجدارية في هذا المعبد بطابعها الفني الحي اذ لم يعثر على ما يماثلها ، وقد احتفظ بهذه الرسوم في المتحف الوطني بدمشق • وتتألف هذه الرسوم من صفوف متوازية تمثل مشاهد مقتبسة من العهد القديم(١٠) ، منها قصة مولد النبي موسى وقصة استير• وكذلك توجد آثار كنيس قديم ومقبرة يهودية في عانة • ومن المراكز اليهودية التي كانت على نهر الفرات في اثناء نزوح يهود الجزيرة العربية الى جهة الفرات الجاليات اليهودية في منطقة « نهر دعه » قرب عانة وفي « فومبديثة » قرب الانبار وسورا على نهر الفرات وقد اسست فيها كبريات المدارس التلمودية •

---

(٨) كانت بلدة « دورا » ميناء لتدمر مهما على الفرات ، تقع على بعد ٨٥ كيلومترا عن دير الزور الى الجنوب الشرقي منها و٢٢٤ كيلومترا عن تدمر الى الشرق منها ، اسسها الاغريق في اعقاب الاسكندر المقدوني ، وسميت « دورا اوروبوس » او « دورا نيكانورس » نسبة الى نيكانور ، احد كبار القواد المقدونيين (٣٨٠-٣١٢ق.م.) قيل انه انشأها سنة ٣٠٠ ق.م. والمدينة على شكل حصن منيع واقعة على هضبة على ضفة الفرات الغربية تطل على النهر والصحراء . اما لفظ «دورا» فيعتقد انه آرامي .

(٩) هذا التاريخ السلوقي في العراق في اول نيسان عام ٣١١ق.م. وهذا هو التقويم البابلي للعصر السلوقي . وقد شاع استعماله في العراق وايران وسورية والحضر وميسان في سواحل الخليج العربي كما استعمله الملوك الفرثيون في تاريخ النقود التي سكوها .

(١٠) ـ انظر : « المتحف الوطني بدمشق ـ دليل مختصر » ، ١٩٦١ ، ص١٥٤ ، ١٦٠ و عبدالقادر عياش ، « منطقة البوكمال في محافظة دير الزور » ، ١٩٧٣ ، ص١٧-٢١ •

انظر ايضا . Ency Brit, 1965 7 612

وكان ليهود الفرات اتصال وثيق بالعرب الساكنين بجوارهم وكانوا يعيشون معهم بسلام ووئام كما كانوا يتاجرون معهم ويعقدون احلافا على طريقة اهل المدن والحضر في عقد عهود ومواثيق مع سادات القبائل لمنع الطامعين بهم من التحرش باملاكهم وتجارتهم ، وكانوا يشاركون مع حلفائهم في دفع الدية وما الى ذلك من الواجبات الملقاة على عاتق القبيلة المتعاقدين معها . ومن عادات القبائل العربية في العراق ان من ينزل بها من القبائل الاخرى يصبح منتميا الى تلك القبيلة مع احتفاظه بنسب قبيلته الاصلية . ومما لا شك فيه ان القادمين الى العراق من القبائل العربية المتهودة طبقت عليهم هذه العادة شأنهم في ذلك شأن القبائل العربية الاخرى التي كانت تنزح من جزيرة العرب وتنزل بالمدن وتمارس الحياة الزراعية المستقرة .

وتدل الاخبار المتواترة على ان بعض اليهود العرب الذين نزحوا الى ساحل الفرات الاوسط على اثر اجلائهم من جزيرة العرب كان من قبيلة قضاعة(11) التي يتنبأ البكري في كتابه « معجم ما استعجم » ان بعض بطونها من قبيلة بلي قد تهودت وسكنت في تيماء . فذكر البكري ان بني حشنة بن عكارمة ، وهم من بلي قتلوا نفرا من بني الربعة ثم لحقوا بتيماء « فابت يهود ان يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فادخلوهم المدينة . فكانوا معهم زمانا ، ثم خرج منهم نفر الى المدينة ، فأظهر الله الاسلام ، وبقية من اولادهم بها »(12) وهذا دليل واضح على ان العرب المتهودين في الجزيرة العربية كانوا ينظرون الى اليهودية قبل الاسلام نظرة حزب سياسي او تكتل قبلي لأن القومية العربية بما فيها التعصب القبلي كانت اقوى وارسخ من ان تستبدل بدين لم يفهموا منه اكثر من انه يدعو الى عبادة اله واحد وهذا ما كانت تتقبله القبائل العربية كعقيدة افضل من الوثنية، لذلك لم يكن اعتناق القبائل العربية مستندا الى اسس دينية صريحة كما نفهمها الآن يتوجب على معتنقيها ممارستها كديانة ذات قواعد معينة فكان رئيس القبيلة هو وحده الذي يقرر ذلك فيتبعه الافراد .

---

(11) كانت مساكن قضاعة في شمال الحجاز بين جده وذات عرق قرب مكة ، ثم انتقلت فسارت فرقة الى ارض الجزيرة (جزيرة ما بين النهرين) وعليها ملك يقال له الضيزن نزل مدينة الحضر وكان فيما زعموا ملك الجزيرة كلها الى الشام . انضم الى الرومان واغار على بلاد الفرس والسواد وغلب على الفرس في منطقة شهرزور . ولكن الملك الساساني (سابور الجنود) جرد حملة على الحضر فتح المدينة وقتل الضيزن وقضى على مملكته (انظر كتاب « الحضر مدينة الشمس » ، لفؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، بغداد ، ١٩٧٤)

(12) الجزء الاول ، ص٢٩ .

وقد اخذ العرب المتهودون النازحون الى ساحل الفرات يمارسون الزراعة الى جانب المزارعين العرب في المناطق التي حلوا بها واندمجوا بالمحيط العربي الاسلامي بشكل طبيعي بعد انتشار الاسلام في هذه المناطق ذاتها واتخذ أكثرهم الاسلام دينا لهم وبقي القليل منهم على اليهودية • ومما يدل على اندماج هؤلاء العرب المتهودين الذين بقوا على يهوديتهم مع السكان ما ذكره الرحالة البرتغالي « بدرو تكسيرا » (Pedro Teixeiro) الذي زار العراق سنة ١٦٠٤/١٦٠٥م عن يهود عانة قال : « ان مائة وعشرين بيتا من سكانها (سكان عانة) يهود عرب وان لم يكونوا اغنياء فانهم يعيشون عيشا وسطا ويراعي جانبهم امير البلاد وموظفوه وكانوا يملكون بيوتا واراضي كما يملك العرب (المسلمون) الذين يؤلفون بقية سكانها » •(١٣) ولا شك في ان هؤلاء من بقايا العرب المتهودين الذين نزحوا من جزيرة العرب الى شطئان الفرات الغربية وقد بقوا على يهوديتهم وهم عرب كما سماهم بدرو تكسيرا • وقد اضاف بدرو تكسيرا الى ذلك قوله : « وان عددا من هؤلاء اليهود اغنياء ولكن اغلبهم في فقر مدقع وجميعهم يسكنون محلة واحدة ولهم كنيس ومصلى ويقومون بشعائر دينهم بكل حرية » •

اما القبائل العربية المتنصرة التي اجلاها الخليفة عمر (رض) مع القبائل العربية المتهودة فكان أكثرهم من نجران ، فاشترى عمر (رض) منهم اموالهم (بمعنى عوضهم عن ممتلكاتهم) ولجأوا الى جنوب الفرات في جوار الكوفة حيث اسسوا هناك مستعمرة سموها باسم بلدهم الاصلي (نجران) كما ان بعضهم انتقل الى قرية تدعى « نهر ابان » (من طساسيج الكوفة) وهؤلاء اندمجوا بالمحيط الاسلامي كليا فاعتنقوا الدين الاسلامي على الأرجح حيث لم يسمع عنهم شيء •(١٤) وتشير الاخبار الى ان الخليفة عمر (رض) أعفى نصارى بني تغلب واهل نجران من دفع الجزية •

ومما كان يشجع اللاجئين الجدد من المتهودين ومن المتنصرين على الدخول في الاسلام التخلص من دفع الجزية التي كانت تؤخذ من اهل الذمة اي اليهود والنصارى البالغين من الذكور • اما مقدار الجزية التي فرضها عمر بن الخطاب (رض) على اهل الذمة في العراق فهناك روايتان ، الاولى تفيد انه فرض ٢٤ درهما في السنة على كل شخص ، والرواية الثانية تفيد انه فرض ٤٨ درهما على الاغنياء و٢٤ درهما على متوسطي الحال و١٢ درهما على العامة ،

---

(١٣) يوسف غنيمة « نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق » ، ١٩٢٤ ، ص١٦٠.

(١٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ : ٧٠٧–٧٠٨ .

وهذه تسقط عن الفرد بمجرد دخوله في الاسلام ·(١٥) هذا مع العلم ان الصابيء الى الاسلام كان يعفى من جميع الضرائب على الاطلاق بما في ذلك الخراج اي ضريبة الارض · فكانت تعفى الارض التي يملكها غير المسلم من الضرائب اذا صبأ المالك الى الاسلام او اذا باعها الى مسلم · فنشأ نتيجة لذلك دافع اقتصادي قوي الى التحول في الاسلام · وقد ظل هذا النظام معمولا به اكثر من قرن في صدر الاسلام ·(١٦)

٣ ـ اصل تسمية لقبنا (سوسه)

ان اصل تسمية لقبنا (سوسه) نسبة الى قبيلة عربية في جنوب اليمن كانت تعرف باسم « قبيلة بني سواسة » كانت مساكنها في مقاطعة رعين المشهورة الواقعة الى الجنوب من صنعاء · وتاريخ هذه القبيلة قديم جدا متصل بسكان حضرموت القدامى الذين اشتهروا بممارستهم الزراعة التي تعتمد على الري كما اشتهروا في كونهم اهم شعوب العالم المصدرة للبخور الذي كان يؤلف مادة ثمينة في ذلك الزمن حيث كان يقدم الى الملوك و لآلهة(*) · وكان هناك سد وخزان في مقاطعة (مخلاف) عين يعرف باسم سد ذي رعين وكانت تتفرع من الخزان عدة جداول لارواء الحقول الزراعية · وكانت قبيلة بني سواسة قبيلة فلاحية تمتهن الزراعة التي تعتمد على الري شأنها شأن منطقة

---

(١٥) الدوري ، « تاريخ العراق الاقتصادي » ص١٩٦ ، من كتاب « نزهة القلوب » لمؤلفه حمدالله المستوفي القزويني ، من طبعة ليدن ، ص٢٩ .

(١٦) دانيال دينيت ، « الجزية والاسلام » ، ترجمة الدكتور فوزي فهيم جادالله ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص٢٠ .

(*) البخور يتألف من اللبان والمر وهو نوع من الصمغ يتجمع تحت قشور الاشجار وتستخدم هذه المادة في تحضير الادوية والمواد العطرية والتحنيط ، وينمو نبات هذه المادة في المناخ الحار الرطب ، وكان يزرع في وقت ما قرب بيجان فيما يعرف اليوم باسم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وكان قدماء المصريين يحرقون البخور للالهة في عباداتهم وكانوا يرسلون الحملات الى الجزيرة العربية لجلب هذه المادة ، وقد جربت زراعة هذا النبات في مصر فجلبت منه اشجار عديدة الى مصر ولكن زراعته لم تفلح في الجو الجاف . وكانت تجارة البخور العمل الرئيس في عهد مملكة سبا في اربع او خمس امارات تابعة للجزيرة العربية السعيدة وهي اليمن وظفار الحديثتان . (انظر : اليزابث مونرو ، مركز دراسات الشرق الاوسط بجامعة اكسفورد ، « الجزيرة العربية بين البخور والبترول » ، ترجمة محمد محمود عن الانكليزية ، مجلة الدارة السعودية ، العدد الاول ،

جنوبي ابين المتاخمة لمنطقة حضرموت.(١٧) ولما هاجر اهل حضرموت الى شمال جزيرة العرب اثر الجفاف الذي حل بالبلاد اسسوا اقدم مدينة فينيقية يرجع تاريخها المعروف الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ١١٠٠ق.م ١٨ فاطلقوا عليها في بادىء الامر اسم (Hadrumetum) اي حضرموت ١٩، وهي اسم المنطقة التي نزحوا منها كما جرت العادة المتبعة عند المهاجرين العرب الاوائل ثم غلبت عليها تسمية سوسة نسبة الى قبيلة بني سوسه . وتعد حضرموت من اقدم المدن المهمة التي لا تزال تحتفظ باسمها القديم حتى يومنا هذا ، الاسم الذي كانت تعرف به قبل اكثر من ثلاثة آلاف سنة .(٢٠) وبعد ان تأسست قرطاجنة سنة ٨١٤ ق.م. اصبحت مدينة سوسة تابعة الى قرطاجنة وسماها الفينيقيون (٢١) . ولما كان الفينيقيون هم والكنعانيون من اصل واحد وكلهم نزحوا من جنوب جزيرة العرب فلا شك في ان يكون لتسمية المتحرة لمدينة « سوسه » علاقة بسكانها الاصليين الحضرميين ، وعده تسميه نفسها اطلقت على القرى الزراعية التي اسستها اسرة آل سوسه ، المنتسبة الى قبيلة بني سواسه ، في سواد العراق بعد نزوحها من جزيرة العرب الى وادي الفرات اثر جلائها منها في القرن السابع للميلاد ، اي قرية سوسه في ابو كمال سورية وقرية رعين سوسه في الحديثة وقرية سوسه في الصقلاوية على نهر الفرات وبستان سليم افندي سوسه في شمالي بغداد على نهر دجلة ، وقد ورد ذكر قبيلة بني سوسه مقرونة مع (عَنَيْ) في شعر امرؤ القيس : « ودار بني سواسه

السنة الثانية ، ربيع الاول ١٣٩٦هـ ــ مارس ١٩٧٦ ، ص٢٨ــ٤٢)

(١٧) علي عقيل . « نموذج تاريخي عن الري في وادي حضرموت » ، التراث ، العدد الاول عدن ، ١٩٧٧ .

(١٨) انظر الدكتور احمد سوسه ، « حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور » ص٠

(19) D Harden, "The Phoenecians" Penguin Books, Revised ed 1963, pp. 57, 63

(٢٠) ولقد اشتهرت في هذه المنطقة ذاتها منطقة قتبان (مملكة قتبان) المجاورة لحضرموت بثروتها البحرية كانت عاصمتها تمنع (كحلان حاليا) ، وقد اشتهرت هذه المنطقة (وبخاصة منطقة وادي بيحان بخصبها وكثرة مياهها ومزارعها التي تعتمد على الري ، انظر :

W Phillips "Qataban and Shiba—Exploring the Ancient Kingdoms of Biblical Spice Routes of Arabia", London 1955, R B Bowen, "Irrigation in Ancient Qataban (Beljan).

(٢١) يرى اكثر الباحثين في التاريخ القديم ان الفينيقيين جاؤا في الاصل من منطقة البحرين والساحل المقابل له ، فذكر هيرودوتس ان المشهور في ايامه ان اصل الفينيقيين من البحر

في رعين تحط الى جوانبها الرحال » ٠(٢٢)

اما تسمية رُعَيْن التي كانت تقع فيها مساكن قبيلة بني سواسه فهي تصغير رعن ، ورعن جبل باليمن فيه حصن ينسب اليه ملك من ملوك اليمن يقال له « ذو رُعَيْن » ، وكان ذو رعين في جملة ملوك اليمن الذين دعوا الى جانب ابرهة حاكم اليمن في زمن احتلال الحبش لليمن ، وقد وردت اسماء بعض اسرهم في النصوص المدونة قبل الميلاد ٠(٢٣)

ورُعَيْن بطن من بطون حمير من القحطانية واسمه « يريم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن الهميسع بن حمير »(٢٤) ورُعَيْن اسم لمخلاف من مخاليف اليمن الواسعة يقع جنوبي صنعاء بمسيرة ستة مراحل وفيه آثار قتبانية ٠ (٢٥)

وممن اشتهر من رُعَيْن جناب بن مريد بن زيد بن هانئ الرعيني كان من المقدمين بمصر في ولاية عبدالعزيز بن مروان ولي بها أعمالا واستخلف مرة على امرتها وتوفي فيها سنة ٨٣ هـ (٧٠٢م) ، وعمرو بن كرب بن صالح الرعيني احد المقدمين في أيام عبدالعزيز بن مروان أيضا توفي في القاهرة سنة ٨٣ هـ

الاحمر . ويرى العلماء ان المقصود هنا الخليج العربي (Sinus Percicus)
لا البحر الاحمر ويذهبون الى ان الفينيقيين هاجروا من وطنهم في البحرين ساكني الساحل ثم اتجهوا نحو وادي الفرات ومن وادي الفرات انساحوا الى لبنان حيث أسسوا مدنهم على الساحل في المنطقة التي عرفت باسمهم اي فينيقيه (Phoenicia)
انظر : الدكتور جواد علي : « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ١ : ٥٦٧ نقلا عن :
Hastings, Dictionary of the Bible, p. 725, Herodotus I, VII, 84.

ويستشهد العلماء بالمقابر التي عثر عليها في البحرين فيرى الذين عنوا بدراستها وفحصها انها مقابر فينيقية وان سكان البحرين هم الفينيقيون ويرى سكان جزيرة البحرين ان اسماء جزائرهم ومدنهم هي اسماء فينيقية . (الدكتور جواد علي ، المرجع السابق ١ : ٥٦٦)

(٢٢) الاكليل للهمداني ، Ag ، ص٣٨ .

(٢٣) الدكتور جواد علي « مفصل تاريخ العرب قبل الاسلام » ، ٢ : ٤٨٨ .

(٢٤) عمر رضا كحالة ، « معجم قبائل العرب » ، ٢ : ٤٢٨ ; ياقوت معجم البلدان ٢ : ٧٩٢ .

(٢٥) تعود هذه الآثار الى مخلفات مملكة قتبان احدى ممالك اليمن القديمة الواقعة في الاقسام الغربية من الجزيرة العربية في جنوب غربي ارض المعينيين والممتدة حتى باب المندب ، وقد حكمت هذه المملكة حوالي ٨٠٠ سنة بين القرن العاشر والقرن الثاني قبل الميلاد ، وكانت عاصمتها «تمنع» تعرف باسم «كحلان» .

(٧٠٢م) ، وابو خزيمة ابراهيم بن يزيد الرعني وهو من قضاة مصر توفي سنة ١٥٤ هـ (٧٧١م) ، وعبدالله بن عمر بن غانم بن شرحبيل الرعني قاض فقيه ولاه هارون الرشيد قضاء افريقية توفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦م) وغيرهم ٠

٤ ـ مدينة سوسة في تونس

تقع مدينة سوسه التونسية على الساحل الشرقي عند خليج « حمامات » على مسافة حوالي ١٤٥ كيلومترا الى الجنوب الشرقي من بلدة تونس وهي من اقدم المدن الفينيقية على ساحل البحر المتوسط ٠ والذي يهمنا من تاريخ المدينة القديم ارتباطها بحضرموت حيث أطلق عليها المهاجرون العرب من الجنوب اسم حضرموت في القرن الثاني عشر ق٠م٠ مما يدل على ان أهل حضرموت كانوا قد اطلقوا عليها هذا الاسم نسبة الى المنطقة التي نزحوا منها ومن المهم ذكره ان حضرموت حافظت على اسمها القديم حتى هذا اليوم ٠

وقد ازدهرت مدينة سوسه التونسية حينما استخدمها القرطاجيني الشهير « هانيبال » (٢٤٧-١٨٣ ق٠م٠) قاعدة لعملياته الحربية مع الرومان في أواخر الحـــرب القرطاجينية (البونيقية) الثانية (٢١٨-٢٠١ق٠م٠) ، ثـم اتخـذها الامبراطور تراجان مستعمرة رومانية ، وعندما نشبت الحرب البونيقية الثالثة (١٤٩-١٤٦ ق٠م٠) اعترف الرومان باستقلال المدينة ولقبوها بالمدينة الحرة ٠ وازدهرت المدينة في عهد يوليوس قيصر (٩٤-٤٤ ق٠م٠) واستمر حكم الرومان لهذه المنطقة حتى جاء غزو الفاندال لشـــمال افريقية فاحتلوها سنة ٤٣٩م واستمر احتلالهم لها حتى سنة ٥٥٣م عندما احتلها البيزنطيون فاطلقـوا على المدينة اسم « جوســـتنيا نوبوليس » نسبة الى الامبراطور جوستنيان ، ثـم سقطت المدينة في أيدي العرب بعد فتح طرابلس سنة ٦٤٢م٠ وفي اوائـل هـذا العصر نشبت معركة بين قوات الامبراطور قونستانس الثاني (باكوناتوس) سنة ٦٤٧م كان النصر فيها للعرب الذين الحقوا الهزيمة بقوات قونستانس ، ثـم انتقلت المدينة من يد الى يد من الحكام العرب حتى استولى عليها الاغالبـــة (٨٠٠-٩٠٩م) حيث اصبحت ميناء القيروان ومنها انطلق اسد بن الفرات قاضي القيروان سنة ٨٢٧م لفتح صقلية ٠ وبعد زوال حكم الأغالبة حل محلهم الفاطميون ثم تلاهم بنو زيري الذين دام حكمهم من عام ٨٧٥ الى عام ١١٦٠م ، وتلاهـم الموحدون (١١٢٩-١٢٢٦م) ثم الحفصيون ٠ وفي عام ١٥٣٥م حاول الاســـبان احتلال بلدة سوسه الا ان اهلها قاوموهم واستمرت تحت حكم العرب حتى وقعت في أيدي الاتراك من عام ١٥٧٤ حتى عام ١٨٨١م ، ثم استولت فرنســـا على تونس كلها واستمر الاستعمار الفرنسي لتونس حتى تم تحريرها بثورة الشعب التونسي فحصل على استقلاله عام ١٩٥٦م ٠

وقد تعرضت مدينة سوسه للخراب في الحرب العالمية الثانية بتأثير قنابل الالمان والامريكيين والحلفاء حتى هجرها اهلها الا انه اعيد تعميرها بعد حصول تونس على استقلالها حتى تحولت الى واحدة من اشهر المدن على ساحل البحر المتوسط ومن اهم المراكز السياحية في تونس العصرية • ومن اهم عماراتها الجامع الكبير انشيء في بداية القرن الخامس الهجري ، وكان هذا الجامع قلعة ثم تحول الى جامع في عهد المعز بن باديس • ويبلغ عدد سكان المدينة حسب الاحصاءات التقديرية الاخيرة ٧٠ـ٨٠ الف نسمة(٢٦) •

• ـ قرية سوسة في منطقة البو كمال في سورية

وقد اسس جدنا الاكبر اول قرية زراعية على ساحل الفرات الايسر مقابل البو كمال ، وهي لا تزال تعرف باسم « قرية سوسه » حتى هذا اليوم ، ذكرها موسيل الذي زار هذه المنطقة بين سنة ١٩١٢ وسنة ١٩١٥ في كتابه « الفرات الأوسط » (ص١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣) وحدد موقعها على خارطته على الضفة الشرقية من الفرات مقابل البو كمال وقال : « وقرية سوسه هذه تدعى في قسمها الشمالي « مرزان » وهي مجاورة لارض الوردية وسنسول الكائنة في منطقة الصالحية (صالحية البو كمال) ، وقد سماها موسيل (السهل الرسوبي لآل سوسه) » •(٢٧) وقد ثبتها اندريه بارو مقابل البو كمال على الجانب الشرقي من نهر الفرات ما بين ابو كمال وتل الحريري (ماري)(٢٨) وذلك في خارطته المنشورة بكتابه « ماري المدينة المفقودة »(٢٩) (انظر المرتسم رقم ـ١ـ اقدم مستعمرة سامية تمارس الري على نهر الخابور) •

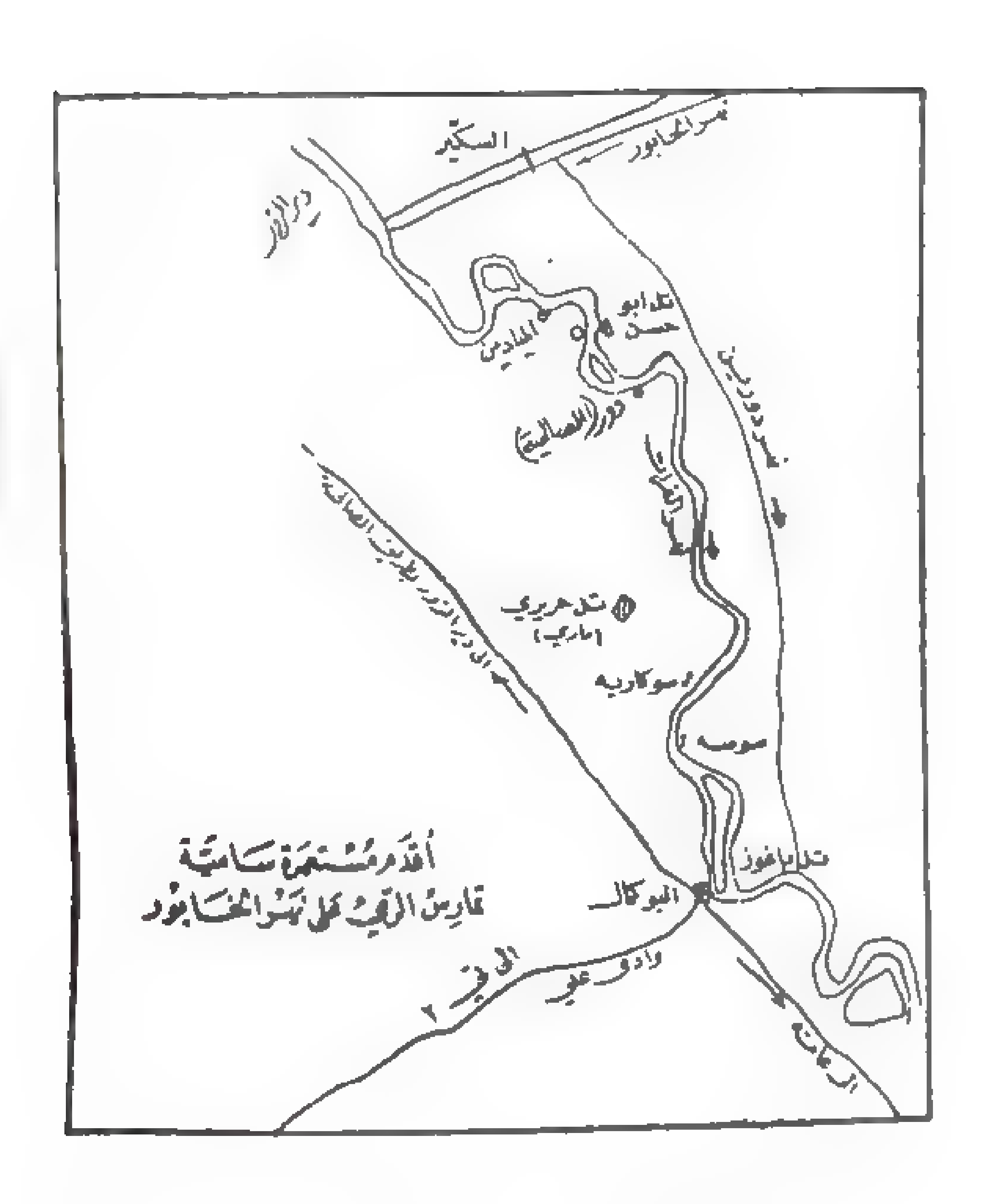
---

(٢٦) انظر الاستطلاع المصور المنشور في مجلة العربي الكويتية (العدد ١٦٤ تموز ١٩٧٢ ، ص١٠٠ـ١٢٢) •

(27) The Alluvian Plain of As-Suse.

(٢٨) «ماري» عاصمة دولة عمورو السامية (مارتو) تقع اطلالها المعروفة محليا باسم « تل الحريري » على الضفة الغربية من نهر الفرات على مسافة ١٦ كيلومترا من شمال غربي بلدة البو كمال بقرب قريتي السيال والقبرة في محافظة دير الزور ، وهي المدينة العاشرة التي اسست بعد الطوفان . كانت مركزا لحضارة راقية عظم شأنها في الالفين الثالثة والثانية قبل الميلاد . نقب فيها اندريه بارو الآثاري الفرنسي المعروف وكشف فيها من آثار من حضارة وادي الرافدين من عصور ما قبل التاريخ ومن عصور فجر السلالات . ومن اهم الآثار التي اكتشفت فيها قصر عظيم يرجع الى القرن العشرين قبل الميلاد يحتوي على ٣٠٠ حجرة وعلى قاعة واسعة . سعة مساحته تربو على ١٥ دونما عراقيا عثر فيه على مجموعة من الالواح يبلغ عددها حوالي ٢٤,٠٠٠ لوح »

(29) André Parrot, "Une Ville Perdue," Paris 1945, p. 44.



مرتسم رقم (١) ـ أقدم مستعمرة سامية تمارس الزراعة التي تعتمد على الري في منطقة الخابور (انظر الفقرة ٥) .

وقد كانت هذه المنطقة ، التي اتخذتها أسرة آل سوسه مقرا لها واسست قرية زراعية فيها والتي سميت باسمها حتى هذا اليوم ، مهجورة ولكنها من أخصب السهول المحاذية للجانب الشرقي من نهر الفرات ، فهي تشكل مثلثا مستطيلا ما بين نهر الخابور (خابور الفرات) عند مصب نهر الفرات وبين الساحل الشرقي لنهر الفرات قاعدته لمستطيلة حدود نهر الفرات نفسه . فكان هناك سد قديم على نهر الخابور يسمى الآن السكير (تصغير سكر) أي السد الصغير وذلك في نقطة تقع على بعد خمسة عشر كيلومترا من شمال قرقيسيا وكان يتفرع من أمام السد جدول قديم يسميه الاهلون (نهر دورين) نسبة الى دارا الثالث ملك الفرس الاخمينين (٣٣٦-٣٣١ ق.م.) على ما يعتقده البعض فيمتد هذا الجدول بموازاة نهر الفرات مسافة ١١٢ كيلومترا تاركا قرية سوسه الى يمينه على ساحل نهر الفرات في وسط المثلث المذكور ثم ينتهي عند تل باغوز(٢٠) حيث يصب في نهر الفرات . وكان هذا الجدول يروي السهل الرسوبي الممتد على طول نهر الفرات جنوبي نهر الخابور ، هذا ما يدل على أن الزراعة التي تعتمد على الري كانت تمارس في هذه المنطقة الخصبة الواقعة بين الساحل الأيسر لنهر الفرات والضفة اليسرى لنهر الخابور منذ اقدم الأزمنة . وهذه كانت منطقة العموريين (الساميين) الذين اسسوا فيها مملكة واسعة منذ اقدم العصور واتخذوا من بلدة « ماري » القريبة منها عاصمة لهم . وقد استغل النازحون الذين أخرجوا من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) هذه المنطقة بالذات حيث اسسوا قرية زراعية سموها قرية سوسه نسبة الى مشيديها وهي لم تزل محافظة على اسمها القديم حتى هذا اليوم .

ومما لا شك فيه ان هذه الاراضي الزراعية قد انتقلت من يد الى يد عبر الزمن الطويل من فتح الى آخر حتى اسست فيها قرية سوسه في بداية العصر

---

(٢٠) « تل باغوز » ، تل أثري في سورية يقع على الجانب الايسر من نهر الفرات جنوب شرقي « تل الحريري » (ماري) يرجع الى عصر حسونة (٥٥٠٠-٨٠٠٠ ق.م.) ، ومن المرجح ان هذا التل يمثل بقايا أحد المستوطنات القديمة التي اقامها العموريون على ضفاف الفرات على اثر نزوحهم من الجزيرة العربية نتيجة جدبها ، ولعله من ملحقات ضواحي عاصمتهم .

ويقع تل باغوز في منطقة البو كمال في محافظة دير الزور بسورية عند قرية بالسهول الواقعة في اسفل هضبة عالية ويسمى الموقع بمنطقة العرس . وعلى قمة هضبة الباغوز آثار حصن قديم لم يبق منه غير ثلاثة ابراج متباعدة عن بعضها البعض . اما الباغوز فقلعة تركية تمثي المضيق (انظر : « منطقة البو كمال في محافظة دير الزور » للمحامي عبدالقادر عياش ، دير الزور ، كانون الثاني ، ١٩٧٢ ، ص١٦) »

الاسلامي ، ثم عدت فانتقلت من يد الى يد ، ومع انها بقيت مهجورة بعد ذلك ولكنها احتفظت باسمها (قرية سوسه) حتى اليوم • كما ولا شك ان هـذه المنطقة التي نزحت اليها اسرة سوسه في صدر الاسلام كانت مهجورة وجدولها مندرس ، فاعادوا حفر الجدول كما اعادوا انشاء السد على الخابور وتطوروا الزراعة عليه • والراجح انهم حملوا معهم المعدات الزراعية اللازمة والحيوانات المستخدمة في الحراثة التي كانوا يستعملونها في وطنهم قبل نزوحهم منه ولا شك انهم كانوا يقتنون الجمال في التنقل ، وقد جاؤا ومعهم خبرتهم في الاعمال الزراعية التي تعتمد على السري وقد مارسوها في وطنهم الاصلي في حضرموت •

وهنا نقطة تاريخية مهمة لا بد من الاشارة اليها وهي ان سكان جزيرة العرب كانوا اقدم الأقوام الذين مارسوا الزراعة التي تعتمد على الري ، فقد اكتسبوا خبرة فنية قبل نزوحهم الى وادي الرافدين في اقامة تنظيمات الري عندما كانت جزيرة العرب تتمتع بجو رطب تكثر فيه الامطار على مدار السنة كما كانت اوديتهم الحالية انهاراً جارية على مدار السنة ايضا ، وكان ذلك في خلال الدورة الجليدية الرابعة والاخيرة ، ففي هذه الفترة التي دامت حوالي مائة الف سنة قبل الميلاد ما بين سنة ١٢٠ الف سنة و١٥ الف سنة قبل الميلاد كانت اوربا مغطاة بالثلوج (انظر بحث الدكتور احمد سوسه « حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين »،١٩٨٠ ، ص٥٨) •

وتعد قرية سوسه اليوم من أهم قرى محافظة دير الزور في سورية ، فقد تناول المرحوم الاستاذ عبدالقادر عياش وصف قرية سوسه الحالية في كتابه « منطقة البو كمال في محافظة دير الزور » (ص٥٦) قال :

« سوسه ـ اهم سكانها قبائل : البو عبدالله والبو بدران والصويلحي والداحل والمراشدة ، نفوسها ٨١٠) ، المساحة المرخصة ١٤٢١٠ دونما ، فيها ١) محركا مجموع احصنتها ٩١٢ ، تملك ٢٢٥ رأس بقر » •

« فيها مدرسة ومخفر شرطة ، تتبعه قرية الباغوز الفوقاني وقرية الشعلة، وسوسه مشهورة في المنطقة برمانها وتينها ، وفيها جمعية تعاونية زراعيـة ، وعندها معبر عليه سفينة تصل ضفتي الفرات ، وتصل مخفر سوسـه بمركز المنطقـة • »

ويضيف الاستاذ عياش وصفا عن مجـرى حياة هذه القريـة بقوله : « يعيش سكان هذه القرى حياة بسـيطة متخلفة ، الرابطة بينهم اصولهم العشائرية ، المستوى الصحي متدن ، بيوتهم من الطين وخيام الشعر ، ومؤخرا انشات الحكومة مدرسة في كل قرية ، ولا توجد مستوصفات في القرى • يعول السكان على المشاريع الزراعية التي قام بها بعض سكان قصبة البو كمال منذ

سنة ١٩٥١ ، كما يعولون على تربية الأغنام وما تنتجه من سمن وصوف .
ولسكان هذه القرى نجعات في بادية الشام وبادية الجزيرة ، حيث يرحل قسم منهم في الربيع لرعي اغنامهم ، ويسكنون في مضارب او أكواخ ، يعتمدون في سقي اغنامهم وسد حاجاتهم من الماء على مياه الآبار في البادية . » وهذه ان دلت على شيء انما تدل على محافظة الزراع في هذه المنطقة على مظاهر حياة البداوة فصارت تجمع بينها وبين وسائل التمدن وبين الزراعة المستقرة وبين رعي الاغنام مع اقتناء الجمال لغرض التنقل .

٦ — جزرة سوسه وعين سوسه في منطقة الحديثة

وقد انحدرت بعد ذلك زمرة من عشيرة آل سوسه جنوباً فاسست قرية زراعية اخرى على الفرات في منطقة الحديثة لا تزال تعرف حتى هذا اليوم بقرية وعين سوسه . وفي هذه القرية عـين ماء قديمة كانت على الارجح مهجورة محفروها واستغلوها في الزراعة فسميت باسمهم قرية عين سوسه ، ويعد هذا الموقع اليوم موقعاً اثرياً يرجع تاريخه الى العصر الاسلامي . ولا يخفى ان عادة تسمية الأماكن باسم رئيس القبيلة او الأسرة عادة قديمة جداً مارسـها العرب منذ أقدم الازمنة .

وتقع هذه القريه على الجانب الغربي من نهر الفرات على بعد حوالي ١٥ الى ١٩ كيلومترا الى الشمال من مدينة الحديثة الحالية تسكنها اليوم قبيلة البرابرة ، ومع ان مركز هذه القبيلة هي القرية المذكورة الا ان افرادهـا يرتحلون الى البادية للانتجاع على عادتهم القديمة . والقرية من ضمن ناحية الحديثة (قضاء عانة) في العراق ، وقد وصفها موسيل وسماها « جـزرة مزروعة لآل سوسه » .(٢١)

وقد ورد الايضاح التالي عن هذه القرية في « دليل التعداد العام لسـنة ١٩٦٥ » (مديرية تسجيل الاحوال المدنية العامة) : « قرية عين سوسـه ، عدد سكانها ٢٠٤ بموجب تسجيل سنة ١٩٥٧ (ص١٩٤) ، العشائر الرحالـة في قرية عين سوسه هم البرابرة عددهم حسب تسجيل سنة ١٩٥٧ (٦٢٠ نسمة) ويرتحلون الى الجزيرة (ص ٥٠٦) ، حويجة سوسه ١٤٦ نسمة بموجب تسجيل سنة ١٩٥٧ (ص١٩٢) » .

وقد ورد في تقرير مديرية الآثار العامة (الاضبارة ١٩٤) عن جـزرة سوسه وقرية عين سوسه ما يلي :

أ سوسه هي الجزيرة الكائنة في وسط نهر الفرات تقابلها على الضفـة

---

(٢١) « الفرات الاوسط » ، ص٢٢ ، ١٦٥

اليمنى من النهر قرية عين سوسه ، وقرب القرية عين ماء جافة في الوقت الحاضر تعرف بعين سوسه تقع على مسيرة كيلومتر واحد شمال دور السكن . اقرب النقاط منها نهر الفرات وطريق السيارات ، والعين نقطة ثابتة وفيها مدرسة رسمية ، يمكن الوصول اليها بالسيارة من حديثة على بعد ١٩ كيلومترا ، يسكنها بعض المزارعين من عشيرة الجغايفة التي تنتقل من الحدود العراقية السورية حتى وادي حوران . ويقطن في القرية شيخ مشايخ العشيرة يدعى الشيخ محيسن علي العياش .

« وفي شرقي القرية حاوي فسيح يفصلها عن نهر الفرات منبسط لا تضاريس فيه ، وفي طرف الحاوي الغربي قرب المدرسة وبعض الدور حفر المزارعون جداول عديدة لارواء مزارعهم فظهرت آثار جدار يمتد من جنوب القرية بمحاذاة الحاوي ويمتد شمالا حتى يقارب ساقية العين ، وتظهر من هذا الجدار الاقسام الواطئة . ولا توجد اية ملتقطات او كسر فخارية تقرب الجدار بيد ان السكان اكدوا بانه كثيرا ما كانوا يعثرون على كسر من الجرار كبيرة وصغيرة مبعثرة في وسط مزارعهم قرب الحاوي فيهشمونها . »

« اما العين التي تعرف بـ « عين سوسه » فتبعد عن القرية الى الشمال الغربي منها مسافة كيلومتر ، فهي عبارة عن حفرة مقعرة لا يزيد عمقها من الوسط عن الياردة مدورة الحواشي لا ماء فيها . وتمتد من العين ساقية باتجاه الفرات على صفته الغربية شمال القرية وهذه الساقية هي الاخرى جافة.

« ان انخفاض الحاوي المحاذي للقرية يوحي لنا انه تعرض في ازمان غابرة الى الغرق مما ادى الى ازالة معالم السكنى القديمة او الخرائب على ان وضع المنطقة وتوفر وسائل السكنى فيها وقربها من الفرات ومن سور ام الحراشيج، كل ذلك يوحي لنا بانها كانت مسكونة قديما ولا يستبعد وجود آثار فيها ولكنها زالت معالمها بتأثير طغيان المياه او نتيجة اعمال الفلاحة في المنطقة . »

٧ ـ قرية سوسه في الصقلاوية وبستان سليم افندي سوسه في بغداد

وقد شاءت الاقدار ان حدثت بعد مرور بضع مئات من السنين ظاهرة طبيعية في نهر الفرات الأوسط ادت الى هبوط مستوى النهر في هذه المنطقة ، فاحدث شبه شلالات (مساقط) في النهر ، فلم يعد بامكان الزراع مواصلة زراعتهم وايصال المياه اليها سيحا ، فضلا عن ضيق الارض بالسكان ، فاضطر قسم من الزراع الى مغادرة ديارهم والتوجه جنوبا ، بينما بقي القسم الآخر من السكان في مناطقهم واخذوا يستعينون بالنواعير لرفع المياه الى حقولهم الزراعية مستخدمين القوى المائية المولدة من الشلالات التي احدثها هبوط قعر النهر في تدوير هذه النواعير الضخمة ، وهذه لا تزال تستعمل حتى يومنا هذا في منطقة عانة وراوة كما كانت عليه في تلك الازمان . وآخر ما وصل الينا

ان آل سوسه اضاروا النزول جنوباً بانحدار النهر حتى استقروا في منطقة الصقلاوية واقتنوا هناك قرية زراعية لا تزال تحمل اسم الأسرة تعرف بـ «قرية سوسه» وهي تقع الى الشمال من أطلال مدينة الانبار العتيقة(٢٢).
وهنا مارسوا الزراعة التي تعتمد على الري ، اذ وجدوا فيها أرضا سهلة تنحدر انحدارا طبيعيا من نهر الفرات باتجاه نهر دجلة يسهل شق الجداول فيها للارواء السيحي . وقد اشتهرت هذه المنطقة بخصوبة أرضها ووفرة مياهها من الفرات ولا تزال تحتفظ بهذه الخصائص حتى يومنا هذا حيث تشكل اهم شبكة من جداول الري في القطر . فجدول الصقلاوية الحديث يمتد حوالي ثلاثين كيلومترا ويروي ما يقرب من ربع مليون دونم عراقي(٢٣) . والذي نعرفه على وجه التأكيد ان جد والدي كان يسكن هذه القرية ويتعاطى مهنة الزراعة فيها ، ثم انتقلت الاسرة الى الفلوجة ومنها الى بغداد .

وآخر ذكر لآل سوسه ورد على لسان الرحالة الهولندي نيبهولت(٢٤) ، فذكر ان هناك بستاناً قديماً مشهورا لسليم افندي سوسه يقع في العريجات شمالي بغداد على نهر دجلة ، فقال في وصفه لفيضان نهر دجلة سنة ١٨٦٧م ما نصه : « ان أمطار سنة ١٨٦٧ الكبرى قد هطلت في اواسط شهر آذار واستمرت اياما تتدفق بغزارة شديدة ولا سيما في أعالي النهر .. وفي اليوم ذاته ذاع نبأ انصداع سد الصفية على مرحلة ثلاث ساعات شمالي بغداد ، ولم ينصرم النهار حتى غمرت المياه كل السهل شمالي المدينة وشرقيها وجنوبها في الجانب الأيسر . ولاعطاء فكرة لمن يعرف بغداد ، اقول ان الماء قد انبثق بقوة من الثغرة التي فتحها في سد الصفية فأغار على العريجات وهو بستان قديم شهير لسليم افندي سوسه والاراضي المجاورة ، ثم مر بالطارمية ليصل الى باب المعظم (باب الميدان) . وقد غمر الماء من الناحية الاخرى كل الحقول والمراعي والبساتين حتى الشيربة والباب الوسطاني الخ . »

---

(٢٢) الانبار مدينة عراقية قديمة تقع اطلالها اليوم على ضفة نهر الفرات اليسرى على بعد حوالي ٨ كيلومترات الى الشمال من مدينة الفلوجة ، جاء في « نزهة القلوب » لحمدالله المستوفي ان مؤسس الانبار الملك لهراسب فانيان سكن فيها الاسرى اليهود الذين سباهم نبوخذنصر فسميت الانبار ثم جدد بناءها سابور الثاني (ذو الاكتاف) (٣١٠–٣٧٩م) وجعلها السفاح كرسي مملكته . وقد ذكر ياقوت ان ابا جعفر المنصور (١٣٦هـ/٧٥٤م) تبع السفاح سكنها ايضا ردحا من الزمن قبل ان ينتقل الى العاصمة الجديدة بغداد »
(٢٣) الدونم العراقي او ما يسمى المشارة يساوي ٢٥٠٠ متر مربع .
(٢٤) « صفحات من مذكرات الرحالة الهولندي نيبهولت للعراق قبل مائة عام » جريدة البلد ، عدد يوم ١٩٦٧/٥/٥ ، ص٣ . انظر ايضا : « فيضانات بغداد للدكتور احمد سوسه » ٢ : ٣٧٦ .

يتضح مما تقدم ان أسرة (آل سوسه) عربية الأصل في الوطن ، وفي العرق ، وفي القومية واللغة ، وهي من أسر قبائل الجزيرة العربية المعهودة التي استقرت على ساحل الفرات الاوسط على عهد الخليفة عمر (رض) . والمعروف عندنا انها ترجع في نسبها الى قبيلة بني سواسه في مخلاف رُعين جنوبي اليمن المتاخم لحضرموت فلقبت الأسرة بـ (سوسه نسبة الى قبيلة بني سواسه التي تقدم ذكرها . وقد امتهنت الاسرة الزراعة التي تعتمد على الري ومارستها في سواد العراق واستمرت تعمل في هذا الميدان منذ ان وطئت اقدامها أرض العراق لفترة حوالي الف وثلاثمائة سنة .

٨ ـ انتقال الأسرة الى الحلة ـ تاريخ ولادتي فيها

وقد سكن والدي بغداد فكانت له من الخبرة في الشؤون الزراعية والادارية ما حمل آل دانيال ، وهم من كبار الملاكين المشهورين في العراق كانوا يمتلكون مقاطعات زراعية شاسعة لا تحصى ولا تعد في جنوبي العراق ، ان يعهدوا اليه بادارة هذه المقاطعات ، وبحكم عمله هذا انتقلت الأسرة الى بلدة الحلة التي اتخذت مركزًا رئيسا لادارة هذه المقاطعات الزراعية(٣٥) . وفي هذه البلدة الريفية الجميلة كانت ولادتي سنة ١٩٠٠ ميلادية(٣٦) . والذي اتذكره جيدا ان جدتنا الاخير الذي توفي ودفن في الحلة ، وأنا لم اتجاوز السابعة من العمر ، كان يحدثنا قبل وفاته عن الصقلاوية وكانت لا تزال لديه بعض الصلات الزراعية مع اهلها .

---

(٣٥) الحلة مركز محافظة بابل حاليا (مركز لواء الحلة سابقا) عدد سكانها حسب احصاء ١٩٥٧ (٥٠٠٠٠ نسمة) تقع على مسافة ١٠٠ كيلومترات الى الجنوب من بغداد ، يشطرها شط الحلة الى قسمين (غربي وشرقي) وهو المجرى القديم لنهر الفرات الرئيسي . ولمدينة الحلة اهمية تاريخية لوقوعها بجوار بابل (المدينة الاثرية المشهورة) ، وكان قد اسسها عام ٤٩٥هـ (١١٠١م) احد امراء الاسرة المزيدية في مكان يسمى الجامعين وذلك عندما هجر مركز امارته في بلدة النيل القديمة فاقيمت في المحل الجديد مدينة سميت الحلة لان بني مزيد حلوا فيها فصارت حلتهم ، ولا يزال موقع الجامعين يعرف باسمه القديم الى الآن . وكان طريق بغداد ـ الكوفة يمر بها فاخذت بالازدهار بسرعة واصبحت الى يومنا هذا مركزا مهما من الناحية التجارية ، وكانت الحلة في العقد الاخير من القرن التاسع عشر مركزا للمتصرفية التي كانت تشمل الديوانية والشامية ، وبعد ذلك نقل مركز المتصرفية الى الديوانية وبقي في الحلة مركز القيادة العسكرية .

(٣٦) ولدت يوم ١٠ سيوان سنة ٥٦٦٠ من التقويم العبري يوم السبت الساعة الثانية عشرة والنصف في التوقيت العربي مساء . هذا ما وجدته مدونا في مذكراتي نقلا عما دونه والدي وهذا يصادف على ما شرحه لي أحد العارفين بالتقويم العبري يوم ١٠ حزيران ١٩٠٠م ، هذا مع العلم ان القليل من الناس من كان يهتم بتدوين تاريخ الولادات في تلك الازمان .

٩ ـ حادث مفجع

قد يتصور القارىء لاول وهلة ان المقصود بالحدث المفجع هو موت قريب او فقدان احد الأعزة ، اذ لا يوجد افجع من هذا الحادث بالنسبة لحياة الانسان، ولكن لم يكن لا هذا ولا ذاك . فكان الحادث افجع من الموت بالنسبة لعائلة يهودية عاشت تحت كابوس احتقار اليهود وتعصبهم ، ذلك الكابوس الذي يجعل الموت اخف وطأة من دخول وارث المدن اليهودي في دين غير دينه . نعم ، لقد كان حادثا مفجعا بالنسبة للاسرة باسرها . وهذه خلاصة الحادث : لقد فوجئت ذات يوم بغياب عمي شقيق والدي المدعو شاؤول الذي كان يسكن في بيتنا من غير سابق انذار ومن غير أن يترك اية معلومات عن سبب هذا الغياب المفاجىء . فكانت الوجوه تطفح بالحزن والقلق مما ينبىء عن حدث جلل . فقد كنت اصغي الى الأقوال وهي تردد همسا والحسرة طاغية عليها قولها : « انه صار مسلما . » وهكذا غاب عمي عنا الى الأبد وانقطعت اخباره . مع انه بلغنا على ما علمته من الاقوال التي اصغي اليها انه ذهب الى الصقلاويه حيث كان يقيم جدي واندمج بالمحيط الزراعي الريفي بعد دخوله في الاسلام وتغيير اسمه .

لقد كان لهذا الحادث وانا لم ابلغ السابعة او الثامنة من عمري الاثر العميق في نفسي ، فترك انطباعات وتساؤلات كانت بالنسبة لعقلي الصغير عقدة حيرتني طوال السنوات التالية ، واستأثرت بكل تفكيري وانا اسائل نفسي : ما هو الفرق بين اليهودي والمسلم (لم اكن اعرف شيئا عن المسيحية*) الم يكن رفاقي كلهم من المسلمين ؟ الم نكن كلنا عربا ؟ لماذا اذن هذا الحزن والقلق ؟ فلا بد من سر غامض يجب ان اكتشفه ! واذا صدق القول بان الحوادث في الصغر هي التي ترسم مستقبل تفكير الانسان في حياته بما تحمله من رواسب وعقد تسيطر على سلوكه طيلة حياته ، فان هذه الحادثة طبعت في ذهني صورة ذلك المشهد وقد ظلت تحثني على اكتشاف هذا السر الغامض وعلى ايجاد الاجوبة على تلك الاسئلة التي استأثرت بتفكيري سنوات طوالا . والى جانب واجباتي المدرسية صرت اقرا واقرا واطالع الكتب التي تبحث في تاريخ الاديان وذلك عندما كنت في الجامعة الامريكية في بيروت ، وحتى بعد التحاقي بكلية الهندسة في امريكا تفرغت صيفية كاملة ودخلت دورة لدراسة تاريخ الاديان وعلم اللاهوت على اشهر استاذ في جامعة شيكاغو التي تعنى بمثل هذه المواضيع التاريخية القديمة . وكان ذلك قبل اكثر من خمسين سنة (بالضبط سنة

(*) مع انه كانت هناك في المحلة عائلة مسيحية كان رجالها وكلاء لجهات اجنبية يجمعون عرق السوس ويشحنونه للاستعمال في صنع بعض العقاقير في الخارج .

١٩٢٥ـ١٩٢٦) ٠ ولما كانت هذه الدراسة تقضي بوجوب اعداد بحث في الموضوع، فقد اخترت موضوعا بعنوان « الاسلام والمسيحية » ؛ فحظي هذا البحث برضى الاستاذ وشرع عليه (بحث جسم باروح الطيبة) ٠ وقد ناقشته كطالب يكشف عن حقيقة الاسلام من دراسة فرقانه الكريم ٠ وقد اخترت هذا الموضوع بالذات لافهام القارىء الامريكي المسيحي حقيقة الاسلام وسماحة بنظـرته الانسانية السامية الى الديانات السماوية ، ونظرته الى انبيائهم نظرة تجلة وتقديس وخاصة السيد المسيح عليه السلام ٠ وهذا كان اول بحث وضعته في موضوع الاديان وهو خارج نطاق موضوع دراستي الجامعية في الهندسة(٢٧)٠ صممت على اثره ان الاسلام هو الدين الحق الذي يجمع بين الديانات السماوية وهو مبني على المبدأ الانساني الذي يقوم على المساواة والتسامح والفطـرة فاخترته عن عقيدة وايمان ؛ ولكنني كتمت ذلك عن عائلتي مدة لتجنب انـزال مصيبة على العائلة تكون هي الثانية بعد ان طوى الزمن ذكرى الحادثة الاولى٠ لذلك لم اعلنها عن اعتناقي للاسلام الا بعد أن انتهيت من دراستي الجامعيـة وحصولي على الدكتوراه وعودتي الى الوطن ثم توظفت وبعد مـدة قدمـت استقالتي وذهبت الى مصر حيث قضيت حوالي اربعة اشهر مداوما في الازهـر كمستمع ومتتبع ، وهناك اعلنت اسلامي بصورة رسمية في ٢٢ شعبان ١٣٥٥ المصادف ٧ تشرين الثاني ١٩٣٦ ، أي قبل أكثر من اربعـين سنة ٠ وقد وضعت هناك كتابي « في طريقي الى الاسلام » الذي طبع جزؤه الاول في مصر والثاني في العراق بعد عـودتي الى الوطن حيث تم رجوعي بطلب من دائـرتي التي أبدت حاجتها الى خدماتي للعمل في مشروع ري جديد ٠ ومنه كلمتي في فاتحة الكتاب قلت : « الحمد لله رب العالمين ، على أن هديتني لدينك المبين ، فادركت مقام فرقانك المحمدي ، ورأيت فيه نور كلامك السرمدي ، ومنهاجـك السوي ، أحمدك اللهم على أن الهمتني الروية والعقل ، وشنلتني من هـوة الحيرة والجهل ، مما دلني على ينبوع الحقيقة ، وسلك بي الى نهر السليقة ، فارتشفت بظل ارشادك ماء الحياة الابدي ، وزهدت في التسابق الدنيوي ، فكان لي من الجرأة والاقدام للدخول في دينك القويم ، وسلوك صراطك المستقيم٠ وصلّ اللهم على عبدك ورسولك محمـــد بن عبدالله ، خاتم النبيين وامـام المرسلين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه اجمعين ، فانك نعم المولى ونعم النصير ٠ » وبهذه المناسبة كتبت مقالا عندما كنت في مصر عن القضية الصهيونية نشر في عددين من مجلة الرابطة العربية لصاحبها أمين سعيد الذي توطدت بيني وبينه رابطة روحية اذ كنا نلتقي بين حين وآخر عند الاستاذ محب الدين الخطيب(٢٨)٠

---

(٢٧) انظر الفصل الاول : « الاسلام والمسيحية »

(٢٨) انظر الفصل الثالث : « القضية الصهيونية والروح العربية »

ومع اعتزازي بالانتساب الى الدين الاسلامي الحنيف ، اني مؤمن بان هذه ارادة الله بان جعلني في خدمته على الصراط المستقيم ، فاوقفت حياتي لخدمة الاسلام والعروبة لذلك فان حبي للعرب ووطني اشاني (وادي الرافـــدين) معجون بدمي . فقد كان آخر كتاب قدمه للعـــالم العربي الاسلامي كتابي « العرب واليهود في التاريخ » التي تبنت وزارة الاعلام العراقية طبعه سنة ١٩٧٢ واعيد طبعه مرارا وهو الآن تيد الطبع في طبعته الخامسة . ولا شك في ان وضع هذا الكتاب الذي يتطرق الى تاريخ الاديان وتاريخ العرب واليهود بالذات له دوافعه الخاصة التي ترجع جذورها الى عهــد الصبا . ثم الحقت كتاب « العرب واليهود في التاريخ » بكتاب آخر عن حضارة العرب ومراحــل تطورها عبر العصور ، طبع سنة ١٩٧٩ ، وكتاب عن حضارة وادي الرافــدين صدر سنة ١٩٨٠ ، وفي يدي الآن بحث ضخم عن تاريخ حضارة وادي الرافدين ارجو ان يتم طبعه في آخر حياتي ان شاء الله .

واقف هنا لحظة لاثير نقطة حساسة تدور حول المذهب الذي اخترت به من مذاهب الاسلام الخمسة ، فكثيرا ما وجه الي السؤال : « انك اعلنت اسلامك ولكنك لم تعلن المذهب الذي اخترته من مذاهب الاسلام فالى اي مذهب انتسبت ؟ » وهذا هو السؤال الذي يؤلف اهمية كبرى في وطننا . فجوابي عن هذا : ان الاسلام واحد وان تعددت المذاهب .. فالاسلام هو الجوهر . وهذا ما دونته في كتابي « في طريقي الى الاسلام » (ص٧٥ج١) قبل اكثر من اربعين سنة حيث قلت : « ان جوهر الاسلام في الفرقان المحمدي هو ثابت لا يتغير ، فانه كلام الله وسنته ، فلا يضاف اليه ولا يحذف منه (ولـن تجد لسنة الله تبديلا) . فلم يكن في صدر الاســلام مذاهب وفرق اذ كان الاسلام صفوا من كل شائبة ، ان ظروفا سياسية ادت الى انقسام المسلمين الى مذاهب ولكن هذا الانقسام لا يمس الجوهر بل قد يتناول بعض الفروع . فقد باعدت الفرق الاسلامية بين المسلمين وفرقت بينهم ، فوجد اعداء الاسلام في هذه التفرقة امضى السبل لاثارة واستغلال النعرات الطائفية وبذلك اضعاف الاسلام . هذا في حين ان المسلمين هم اليوم باشد الحاجة من اي وقت مضى لتوحيد الصف والكلمة وتماسك الوحدة العربية الاسلامية . انا اجل جميع الائمة على اختلاف مذاهبهم اذ كافحوا وناضلوا وهدفهم السامي خدمة الاسلام والحفاظ على جوهره . ولحسن الحظ ان هناك عاملا قويا يجمع بينهم جميعا هو التمسك بالقرآن الكريم الذي لا يمكن ان يحرف ، ثم حب آل البيـت وتكريمهم ذلك الحب الذي يعد فرضا من مبادئ الدين الاسلامي ، وفي هـذا الحب وفي هذا التكريم نعمة غالية من نعم الله تجمع بين قلوب المسلمين على اختلاف آرائهم ونحلهم ، نعمة يمكن ان تكون الاساس لفتح باب الاجتهـاد

والاتفاق على تكوين « اسلام بلا مذاهب » وهو العنوان الذي اتخذه الدكتور مصطفى الشكعة لكتابه الجديد ، وهو يقول فيه « ان باب الاجتهاد يغذي الحياة العقلية والفكرية وان الاسلام بجوهره وتقاليده الاولى يساير ركب التطور والتقدم ولا يجافيها او يصد عنها • » ويضيف الى ذلك قوله : « وباب الاجتهاد عند الاثنا عشرية لا يزال مفتوحا وللمجتهد ان يبدي رأيه وان يؤخذ به ما دام متفقا مع الكتاب والسنة متمشيا مع المعقول ، والا فلا قيمة له ان كان به ميل او شطط • »(٣٩)

وفي موضوع اتحاد المسلمين يقول الامام المغفور له الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في الميثاق العربي الوطني : « ان اهم واجبات المسلمين اليوم الاتفاق والوحدة وان يصهروا الطائفيات والاقليميات بينهم حتى تذوب وتتلاشى ويكونوا سبيكة واحدة •• فالواجب الاكيد على جميع المسلمين ان يلتفوا حول راية الاسلام ويكونوا قلبا واحدا ويدا واحدة ولا يتركوا مجالا للحزازات الطائفية والخلافات المذهبية في نفوسهم » • ثم يضيف الى ذلك قوله : « ان من شهد على نفسه ، واعترف بان احدا من البشر او غيرهم من الائمة او غيرهم انه هو الاله او شريك مع الله في الربوبية ، او هو الخالق والرازق او اظهر البغض والعداء لأهل البيت والنصب لهم فهو كافر وان اظهر الاسلام ، فالاسلام بريء منه • والأهم من كل هذه العوالم انضمام الجميع تحت راية (لا اله الا الله محمد رسوله) والاعتصام بحبل الاسلام • »

ان الاسلام دين سمح يتميز عن بقية الاديان السماوية بسعة الصدر في تقبل البحث العلمي واختلاف الاجتهاد فيه ، فما دام رائد المجتهد خدمة الدين فله ان يتبع المدرسة الفكرية لتي يرتضيها لنفسه ما دام غير خارج عن العقائد الاساسية للدين • لذلك فعلى علماء الدين تقع مسؤولية التقريب بين المذاهب الاسلامية للقضاء على ما بين ابناء المذاهب من تباعد ، فهناك جمعية في القاهرة تعمل على التقريب بين المذاهب ، ويا حبذا لو اتسع نطاق عملها بتاسيس فروع لها في الاقطار الاسلامية الاخرى للتعاون على العمل بقوله تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون) • فالاسلام كما يقول احد كبار رجال الفكر الاسلامي « يحتاج الى علماء يدرسون الدين الاسلامي من منابعه الصافية وفي الوقت نفسه يعرفون التيارات الفكرية والاجتماعية الحديثة فيطبقون الدين الاسلامي على واقع الحياة الحديثة • »

---

(٣٩) انظر : ص١٨٧ ، ٢٢٧ م



التصوير رقم (١٨) ـ الامام المغفور له الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في الحلة يحيط به وجوه البلد (انظر الفقرة ٩) .

وما المؤتمر الاسلامي الذي اقامته طائفة البهرة في الهند في نيسان ١٩٧٥ الا دليلا على اهتمام المسلمين بهذه الناحية ، فقد ضم هذا المؤتمر علماء من جميع انحاء العالم الذين يمثلون جميع الطوائف والمذاهب الدينية في مصر ، والكويت ، ودولة الامارات العربية ، وسورية ، ولبنان ، والعراق ، والاردن، واليمن ، وليبيا ، وتونس ، والمغرب ، والجزائر ، وايران ، وكينيا ، والمملكة المتحدة ، وباكستان ، وسيلان ، وتانزانيا ، والولايات المتحدة ، وفرنسا ، وسائر انحاء جمهورية الهند يتقدمهم شيخ الجامع الازهر الدكتور عبدالحليم محمود ، وتحدث وفود المؤتمر في كثير من الامور التي تشمل العالم الاسلامي وفي مقدمتها قضية العرب الكبرى فلسطين والاحتلال الصهيوني للاراضي العربية . وكانت المحاضرات والمناقشات كلها تدور حول الوحدة التي تشمل العالم الاسلامي شرقه وغربه ، واتفقوا جميعا على تدعيم ونشر اللغة العربية في البلاد الاسلامية ووضع منهج للدعوة الاسلامية يتماشى مع التطور الاقتصادي .

ولنعد الآن الى الموضوع الذي نحن بصدده ، اي موضوع المذهب الذي

انتهيت اليه فاقول : لقد اعلنت اسلامي في مصر ولم يطلب الي سوى النطق بالشهادتين كما هو مدون في الاعلام الشرعي الصادر من محكمة مصر الابتدائية الشرعية . ولكن هناك ناحية مهمة لا يسعني اغفالها او تناسيها فانا ابن المحيط الذي نشأت فيه وقد عرفت فيه منذ الصبا المذهب الجعفري (الاثنا عشري) الذي يدين به ابناء بلدتي ، فاصبح هذا المذهب جزءا من تكويني العقلي والفكري ومن واجبي تقبله والاخذ به لما يتسم به هذا المذهب من حب آل البيت ، ذلك الحب الذي تتفق جميع المذاهب على التمسك به كفرض من فروض المبادىء الاسلامية ، فكنت اشعر حين اسلمت باني وارث للمذهب الجعفري من المجتمع الذي نشأت في وسطه شأني في ذلك شأن من يرث مذهبه عن آبائه واجداده . وهناك ناحية أخرى لا تقل اهمية وهي ان هذا المذهب يفتح باب الاجتهاد ويكمن في هذا المجال السبيل الوحيد الذي يمكن ان يؤدي او يساعد على تحقيق ما ورد في شعار الدكتور مصطفى الشكعة ، اي شعار « اسلام بلا مذاهب » فما اجله من شعار لو تحقق ..

والآن قبل ان اتطرق الى نشأتي ودراستي رأيت من المفيد ان اعرض موجزاً لتاريخ اليهود في العراق القديم ، فهذه صفحة مظلمة من تاريخ العراق القديم قل من تناولها بالبحث العلمي الدقيق وكشف عن حقائقها ، لأن اليهود احتكروا لأنفسهم البحث في كل ما يتعلق بتاريخهم وتاريخ الاقوام الذين اتصلوا بهم عبر الزمن الطويل ودونوه بحسب ما حلا لهم هواهم وقد قبل العالم كل ما دونوه ونشروه من غير تمحيص او تدقيق ، وبذلك يكون هذا الموجز في تاريخ يهود العراق القديم قد جمع بين ترجمة الحياة وبين دراسة جانب مهم من تاريخ العراق القديم . واني اعتقد بان قد حان الأوان لينتبه المسلمون والعرب الى الاحداث التاريخية العلمية فيعملون على اظهارها على حقيقتها وتفنيد الاساطير التي اتخذها الصهيونيون حجة للمطالبة بحق موهوم في فلسطين العربية بعد ان قبل الباحثون هذه الاساطير على اختلاف نحلهم ومذاهبهم على علاتها دون تمحيص او تدقيق . ومن جملة هذه الاساطير الموروثة التي اظهرت الاكتشافات الاثرية الحديثة خطلها ادعاء اليهود بأن تاريخهم يرجع الى ما قبل اربعة آلاف سنة قبل الميلاد حين نزحوا من العراق الى فلسطين مع ابراهيم الخليل (ع). لذلك ارى ان من واجب الجامعة العربية او منظمة التحرير الفلسطينية ان تعقد مؤتمرا علميا يحضره كبار المؤرخين في العالم وكبار رجال الدين الاسلامي ولا بأس في دعوة علماء واختصاصيين في الآثار والتاريخ القديم من جميع المذاهب للتوصل الى الحقائق التاريخية في هذا المجال ونشر ما يقررونه في هذا الصدد على العالم اجمع ، وبذلك يجري تصحيح المفاهيم المغلوطة التي كان ولا يزال الباحثون يرددونها باعتبارها حقائق تاريخية مما مكن الصهيونيين ان يخدعوا

بها الرأي العام العالمي ويستغلونها في تدعيم حق موهوم في أرض العرب .

فالى القسم الثاني الذي يتناول هذه الناحية التاريخية التي تتصل اتصالا وثيقا بشطر مهم من حياتي الفكرية .

القسم الثاني

تأريخ يهود العراق القديم

« لقد مر تاريخ اليهود في العراق القديم بثلاث مراحل : تمثل المرحلة الاولى اقدم وجود لهم في شمالي العراق حين جاء الاشوريون بهم أسرى الى آشور وهذه ترجع الى اواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، ثم تليها المرحلة الثانية حين جاء الكلدانيون بهم كاسرى ايضا الى بابل في اوائل القرن السادس قبل الميلاد •
اما المرحلة الثالثة فهي ترجع الى صدر الاسلام حين نزحت قبائل العرب المتهودة من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) الى العراق وسورية في القرن السابع للميلاد اي بعد ظهور المسبيين من العهد الاشوري والكلداني في العراق بحوالي الف واربعمائة سنة ، وقد جاؤوا بصفتهم القبائلية العربية ومعهم مقتنياتهم ومواشيهم واستقروا في منطقة الفرات الاوسط حيث اندمجوا بالسكان العرب ، وهم عرب مثلهم ، فاعتنق اكثرهم الاسلام وبقي القليل منهم على يهوديته • »

١ ـ تمهيد . ٢ ـ اقدم وجود لليهود في شمالي العراق . ٣ ـ اليهود في الاسر في آشور . ٤ ـ امارة حدياب في آشور . ٥ ـ بقايا يهود كردستان العراق وتهجيرهم الى (اسرائيل) . ٦ ـ اليهود في الاسر في بابل . ٧ ـ هجرة اليهود العرب من جزيرة العرب الى الفرات الاوسط . ٨ ـ اليهودية في جزيرة العرب . ٩ ـ عروبة يهود الجزيرة . ١٠ ـ صلة يهود جزيرة العرب بفلسطين . ١١ ـ الخلاصة . ١٢ تهجير يهود العراق .

ان تاريخ يهود العراق القديم صفحة مظلمة من تاريخ الحضارة البشرية جمعاء ، افنى اليهود بطمس حقيقتها اكثر من الفين وخمسمائة عام ، اذ دونوا في الأسر في بابل تاريخا زائفا لأصل اليهود ونسبهم وصلتهم بالأقوام الاخرى وبالعالم القديم وفق اهوائهم ورغباتهم الدنيوية ونزعاتهم الدينية ، وقد قبل العالم كله هذا الزيف وظل الباحثون والكتاب يرددونه وكأنه حقائق تاريخية، حتى ظهرت الاكتشافات الأثرية الحديثة فكشفت لنا زيف الادعاءات اليهودية كحقهم في أرض العرب وما الى ذلك من ادعاءات وهمية لا تستند الى اي سند تاريخي • وهذه المدونات المكتشفة تسجل احداثا بلغات الاقوام القديمة ، وقد عاصرت تلك الاحداث ذاتها ، كالسومريين والاكديين والكنعانيين ـ الفينيقيين والمصريين والحيثيين والبابليين والآشوريين والكلدانيين وذلك قبل تدوين التوراة بعدة قرون •

لقد ادعى اليهود فيما ادعوه بأن تاريخهم يرجع الى عهد ابراهيم الخليل(ع) الى ما قبل اربعة آلاف عام قبل الميلاد وانهم هاجروا معه من العراق الى فلسطين وكان عددهم اربعة آلاف نسمة(١) • وهكذا ربطوا نسبهم واصلهم بابراهيم الخليل (ع) وبالعراق على اعتبار ان العراق كان موطنهم الأصلي الذي هاجروا منه ، في حين ان المعلومات التي تركها لنا الأقدمون والقرائن التاريخية لا تقر هذه الادعاءات • فان آخر ما توصل اليه العلماء في ضوء المصادر المتوفرة لديهم ان ابراهيم الخليل (ع) ظهر على مسرح الاحداث في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وليس اربعة آلاف سنة قبل الميلاد (٢) • كما حدد تاريخ ظهور اليهود

---

(١) انظر كتاب سولوف بعنوان « كيف نما الشعب اليهودي » وعنوانه بالانكليزية :
Mordecai I. Soloff, "How the Jewish People Grew Up".

انظر أيضا : « تاريخ اليهود كما يلقنه الصهاينة لابنائهم » بقلم شريف يوسف ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ١٠٨ ، تشرين الثاني ، ١٩٦٧ ، ص١٠٥ـ١١١ .

(2) W. Keller, "The Bible as History", p. 69; R. de Vaux, "Les Patriarches Hebreux et L'Histoire", Revue Biblique, 72 (1965), pp. 5-28.

في العراق لاول مرة باواخر القرن الثامن واوائل القرن السابع قبل الميلاد ، وذلك حين جاء الاشوريون بهم اسرى الى بلاد آشور في شمال العراق . ونفضلا عن ذلك ان التوراة ذاتها تؤكد بكل وضوح ان ابراهيم الخليل ع هاجر من العراق بمفرده ولم يكن لليهود وجود في العراق في عصره ، وذلك بدلالة ما يأتي .

١ ـ ان دعوة الرب لابراهيم الخليل (ع) كانت موجهة اليه بمفرده وهي ان يهجر ارض العراق فذهب ومعه ساراي زوجه ولوط ابن اخيه(٣) . فاين هم الاربعة آلاف يهودي الذين قادهم ابراهيم الخليل ع الى ارض كنعان؟

٢ ـ ان يعقوب حفيد ابراهيم الخليل(ع) الذي هو اسرائيل يصف نفسه وجده ابرم بالارامي التائه(٤) . فكيف يكون ابراهيم واسحق ويعقوب آراميين ويهوداً ؟. ثم لو كان ابراهيم (ع) قد قاد اليهود وعددهم اربعة آلاف نسمة كيف يكون آراميا تائها بحسب وصف حفيده يعقوب له ؟.

٣ ـ لو كان هناك يهود قادهم ابراهيم (ع) الى ارض كنعان فلا كان بامكـانه ان يزوج ابنه الوحيد من احدى بناتهم وتقر عينه بدلا من ارســال عبده الى ارام النهرين الى عشيرته ليأخذ زوجة له منها ؟ (٥) . وكذلك فعل اسحق عندما اوصى ولده يعقوب بان يذهب الى حران ليأخذ له زوجـة من هناك (٦).

ولم يكتف اليهود بان اعتبروا العراق وطنهم الاصلي بل ربطوا تاريخهـم القديم بجزيرة العرب بدعوة أن اليهود هاجروا من فلسطين الى جزيرة العـرب بعد تشريدهم على يد الرومان في القرن الاول للميلاد . وعلى هذا الاســاس اعتبروا شبه جزيرة العرب ارضا يهودية طوال التاريخ الى درجة انهم اعتبروا غور الاردن يفصل ارض اسرائيل الشرقية عن الغربية . هذا ما يلقنونه لطلاب الجيل الحديث من عرب ويهود في كتبهم المدرسية في « اسرائيل»(٧) حل من احد رد على ذلك واوضح ما تثبته المصادر التاريخية من ان يهود جزيرة العـرب كانوا عربا تهودوا وهم في ديارهم وبقوا محافظين على قوميتهم ولغتهم العربية من غير ان تكون لهم أية صلة مع يهود فلسطين.(٨)

---

(٣) تكوين ١٢ : ١ ، ٢٤ : ٤ـ٥ .

(٤) تثنية ٢٦ : ٥

(٥) انظر الاصحاح ٢٤ من سفر التكوين .

(٦) تكوين ٢٨ : ١ـ٢ .

(٧) ناحوريش « اسرائيل معالم البلاد وجغرافيتها » للصف الثامن ، ص١٢٧ ؛ عزرا حنعام والياس دانيال « التاريخ» للصف الخامس ، ص٢٠٠ .

(٨) انظر ما يلي في ذلك

٢ ـ اقدم وجود لليهود في شمالي العراق

ان اقدم وجود لليهود في العراق يرجع الى عهد الامبراطورية الآشورية الاخيرة التي دامت حوالي ثلاثمائة عام ما بين سنة ٩١ و٦٢٦ ق.م. وقد كان لقيامها أثر في تغيير وجه الشرق . فقد حكم في خلال هذه الفترة خمسة عشر ملكا بلغت الامبراطورية في عهد بعضهم اوج عظمتها واتساعها بحيث ضمت جميع اراضي الهلال الخصيب ومن ضمنها مصر . وقد لعبت دورا رئيسيا في القضاء على مملكة اسرائيل نهائيا وتحطيم مملكة يهودا وسبي السكان اليهود الى اماكن جبلية بعيدة في بلاد آشور (مناطق كردستان في العراق وايران وتركيا) واحلوا محلهم اقواما من مختلف انحاء الامبراطورية الآشورية . فقد تمكن شلمنصر الثالث (٨٥٩ـ٨٢٤ق.م.) من اخضاع الآراميين والفينيقيين واسرائيل . ثم قام الملك تجلاث بلاشر الثالث (٧٤٦ـ٧٢٧ق.م.) بحملة على مملكة اسرائيل واستولى على اراضيها ما عدا السامرة وضمها الى آشور وحمل سكانها اليهود الى الاماكن النائية من المملكة واحل محلهم سكانا من اقاليم اخرى . كما جرد خلفه شلمنصر الخامس (٧٢٧ـ٧٢٢ق.م.) حملة تاديبية على اسرائيل فحاصر عاصمتها السامرة مدة ثلاث سنوات وقبل ان يظفر بالنصر النهائي وافته المنية في الشهر العاشر من عام ٧٢٢ق.م. ولكن القائد الآشوري اتم مهمته باحتلال السامرة في نهاية العام على عهد سرجون الثاني (٧٢٢ـ٧٠٥ق.م.) ، وبذلك تم القضاء على مملكة اسرائيل نهائيا . وتبعا للخطة التي سار عليها تجلاث بلاشر الثالث اجلى سرجون الثاني يهود السامرة البالغ عددهم ٢٧٢٩٠ نسمة الى المناطق الجبلية في مملكة آشور وقد احل محلهم اقواما من اقاليم اخرى(٩) . وفي عهد سنحاريب (٧٠٥ـ٦٨١ق.م.) خلف سرجون قام هذا الملك سنة ٧٠١ق.م. بحملة على مملكة يهودا واستولى على ست واربعين مدينة من مدنها المحصنة واخذ من اليهود مائتي الف نسمة الى اماكن جبلية بعيدة ايضا واحل محلهم اقواما اخرى.(١٠) وقد ورد في الاخبار ان بعض هؤلاء الأسرى سيق الى ارمينية(١١) . ومع ان اورشليم لم تسقط الا ان الجيش الآشوري ترك البلاد خرابا ولم يستطع ملك يهودا الاحتفاظ بعرشه الا بعد دفع الجزية واعترافه بسيادة الآشوريين .

٣ ـ اليهود في الاسر في آشور

كانت سياسة الآشوريين ان يشتتوا السبايا في عدة اماكن نائية منعزلة لكي لا يتيسر لهم التجمع في مكان واحد والتكتل فيه على امل العودة الى

---

(٩) ٢ ملوك ١٨ : ٩ـ١١ ، ١٧ : ٦ .

(١٠) ٢ ملوك ١٨ : ١٣ـ١٥ ، ١٧ ، ١٩ : ٣٥ـ٣٦ .

(11) J. Neusner, "A History of the Jews in Babylonia", III p. 339.

المناطق التي اجلوا منها • وهكذا فقد ابعد الآشوريون سباياهم من اليهود من مملكتي اسرائيل ويهوذا الى المناطق الجبلية المنعزلة في كردستان العراق وتركيا وايران ضمن حدود الامبراطورية الآشورية واحلوا محلهم اقواما اخرى من انحاء الامبراطورية حتى اختفت اخبار هؤلاء المأسورين ، فسماهم الباحثون الاسباط المفقودة (The Lost Tribes) ، وصار يعتقد الربيون اليهود في بابل فيما بعد انهم اندمجوا بمحيطهم الوثني واخذوا بالوثنية ديانة اهل المنطقة التي حلوا بها• والمعروف في التقاليد اليهودية ان هذه الاسباط المفقودة هم الاسباط اليهودية العشرة من مجموع الاثني عشر سبطا •

اما الاماكن التي نقل الآشوريون اليهـــود المسبيين اليها ، فهي منطقـة كردستان الواسعة وهي تقع اليوم ضمن حدود العراق وتركيا وايرن • وقد تعمد الآشوريون توزيعهم على هذه المناطق الجبلية النائية للحيلولـــة دون تكتلهم في مكان واحد ومحاولة رجوعهم الى مناطقهم التي اجلوا عنها ، وقـد سبقت الاشارة الى ذلك • فقد ذكرت التوراة المناطق التي نقل اليهود اليهـا في زمن كل من تجلات بلاشر الثالث وسرجون الثاني وهي : « حلح » و « خابور نهر جوزان » و « هارا » ومدن مادي لايرانية(١٢) • وتقع المواضـع الثلاثـة الاولى في منطقة حوضي الخابور والبليخ عند منابعهما ، فحلح كلمة آشـورية على الارجح لا يعرف معناها وهي اسم لمقاطعة في آشور قرب « تل حلف »(١٣) في حوض نهر الخابور • اما « جوزان » فهي « جوزانا » عاصمة امارة بحياني الآرامية وتقع عند « تل حلف » وقد كشف في هذا الموضع عن آثار قصـر فخم لاحد الملوك الآراميين كان يدعى «كپارا» (Kapara) يرجع الى اوائـل القرن التاسع قبل الميلاد(١٤) • واما خابور فهو اسم اكدي ولفظه في العبريـة « كبار » ، وهو النهر الذي اطلق عليه اليونان « خابوراس » ويجري على مقربة من نصيبين في اعالي بلاد ما بين النهرين ويصب في نهر الفرات ، وقد سمـته التوراة « خابور نهر جوزان » لتمييزه عن نهر خابور آخر في منطقة بابـل • واما « هارا » فهي « حاران » (حران حاليا)(١٥) • ويرى البعض ان المدن

---

(١٢) ١ اخبار ٥ : ٢٦ ؛ ٢ ملوك ١٧ : ٦ ، ١٨ : ١١ ، ١٩ : ١٢

(١٣) تل حلف تل اثري يقع في شمال سورية على بعد خمسة كيلومترات جنوب غربي راس العين قرب منبع الخابور ، يرجع تاريخه الى الحقبة الممتدة من حوالي سنة ٥٠٠٠ الى سنة ٤٣٠٠ ق.م. وتمثل آثار تل حلف عصرا من العصور الثقافية التاريخية يتميز بها ، وقد سماه علماء الآثار عصر حلف وهو اول ادوار العصر الحجري المعدني لتمييزه عن بقية الادوار التاريخية . وقد اصبحت منطقة تل حلف في منتصف الالف الثانية قبل الميلاد ضمن دولة ميتاني الحورية ، ثم اتخذ الآراميون موضع هذا التل في القرن العاشر قبل الميلاد لبناء عاصمة لاحدى ممالكهم المسماة بيت بحياني عليه كانت تسمى «جوزانا» .

(14) G. Roux, "Ancient Iraq", p. 249.

المادية التي تقل اليهود اليها هي منطقة همدان وما جاورها من القرى ، بينما يرى البعض الآخر انها منطقة نهاوند وما جاورها من القرى(١٦) . وتفيد المصادر التاريخية ان الآشوريين نفوا البعض من اليهود المسبيين الى ارمينية او الى حدود ارمينية(١٧) .

وقد كوّن اليهود المسبيون في شمال كردستان لهم قرى بين السكان الاكراد في المنطقة وبقوا منعزلين عن يهود فلسطين واليهود في البلاد الاخرى الذين كانوا يعتقدون بأنهم اندمجوا مع السكان الوثنيين وصاروا الى الوثنية ؛ فقلدوا الاكراد في نمط معيشتهم حيث صاروا يمارسون الاعمال الحقلية الزراعية وتربية المواشي تحت حماية رؤساء القبائل الكردية ويؤدون الجزية لهم .

ومن المهم ذكره في هذا الصدد ان هذه الجماعات من اليهود المسبيين في شمالي العراق ، على الرغم من مرور ٢٨٠٠ سنة على دخولهم العراق ، كانوا حتى اثر هجرتهم الى «اسرائيل» مؤخرا في حوادث فلسطين الاخيرة لا يزالون يتكلمون بلغتهم الأصلية ، هي اللهجة الارامية القديمة التي كانوا يتكلمون بها عند سبيهم الى هذه المناطق الكردية وهي نفس اللهجة التي كان يتكلم بها السيد المسيح . وكانت تعرف هذه اللهجة بـ «الترجوم» وقد سميت كذلك لان الأحبار اليهود ترجموا العهد القديم من العبرية الى هذه اللهجة فسميت بالترجوم ؛ ويقصد به الفرع الغربي من مجموعة اللغة الآرامية الذي كان يستعمل في منطقة فلسطين والبها .

وتدل القرائن التاريخية المدعومة من الباحثين على ان الاكثرية الساحقة من هؤلاء اليهود المسبيين صبئوا الى النصرانية بعد ظهور الديانة المسيحية على يد المبشرين المسيحيين واليهود المتنصرين ثم اخذوا بالمذهب النسطوري وحافظوا على تعاليم هذا المذهب وطقوسه الكنسية بنفس اللغة التي كانت تمارس فيه هذه الطقوس قبل أكثر من الف وخمسمائة عام ، وهي اللغة المعروفة اليوم

---

(١٥) «حاران» مدينة قديمة لا تزال تعرف باسمها القديم «حران» وموقعها في الشمال الشرقي من بلاد ما بين النهرين في جوار الحدود التركية داخل حدود تركيا على منابع نهر البليخ، احد روافد الفرات الاوسط ، تبعد حوالي اربعين كيلومترا من مصب البليخ في نهر الفرات . كانت مركزا لاحدى الدويلات الارامية ، كما كانت مركزا هاما على الطرق التجارية الرئيسية بين العراق وسورية وفلسطين ، وهي المدينة التي توجه اليها ابراهيم الخليل(ع) بعد خروجه من اور الكلدانيين في طريقه الى كنعان وقد ورد ذكرها في التوراة باسم (حاران) و(حاران) .

(16) Neusner, op. cit., II, p. 241.
(•7) Ibid., III, p. 339.

بالسريانية ، وقد ساعدهم على ذلك انزواؤهم في جبال كردستان المنيعة(١٨) . اما الباقون على اليهودية وهم فئة بقوا في اماكنهم الى جانب المتنصرين من اخوانهم محافظين على لغتهم القديمة(١٩) ، وهي نفس اللغة التي يتكلم بها النساطرة مما يدل على أن كليهما يرجع الى اصل واحد .

هذا هو الوجود الاول لليهود في العراق ويرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد كما سبقت الاشارة الى ذلك . ويؤيد الباحثون نقلا عن اليهود الاكراد انفسهم بأنهم احفاد اليهود الذين سباهم الآشوريون (تجلات بلاشر الثالث سنة ٧٣٢ ق٠م٠ ، وسرجون الثاني سنة ٧٢٢ ق٠م٠ وسنحاريب سنة ٧٠١ ق٠م٠)(٢٠) . وقد ايد ذلك بنيامين لتطيلي الذي زار منطقة كردستان في القرن الثاني عشر للميلاد ، فقال في كلامه على يهود العمادية في المنطقة الجبلية من شمال العراق : « يقيم بها نحو خمسة وعشرين الف يهودي وهم جماعات منتشرة في اكثر من مائة موقع من جبال خفتيان عند تخوم بلاد مادي (ايران). ويهودها من بقايا الجالية الاولى التي اسرها شلمنصر ملك آشور(٢١) ويتفاهمون بلسان الترجوم وفيهم عدد من كبار العلماء . والعمادية على مسيرة يوم من تخوم بلاد العجم يؤدي يهودها الجزية للمسلمين شأنهم شأن سائر اليهود

---

(١٨) ان مذهب النساطرة فرع من المسيحية ظهر اثر حدوث انشقاق مذهبي واسع في الكنيسة المسيحية في الشرق سنة ٤٣١م . ولم يقتصر هذا الانشقاق على النسطورية بل شمل فرعا آخر وقع سنة ٤٤٨م هو اليعقوبية المناوئة للنسطورية . والنسطورية نسبة الى معتنقها نسطوريوس بطريرك القسطنطينية الذي تدعو تعاليمه الى ان السيد المسيح شخصيتين منفصلتين (اقنومين) : اقنوم الانسان يسوع واقنوم الله ، ولا يجوز ان تسمى مريم العذراء ام الله بل هي بشر ولدت المسيح بالشخصية البشرية وان المسيح مات على الصليب كانسان . وقد انتشر هذا المذهب على عهد الامبراطورية الساسانية في العراق وفي الجزيرة العربية وفي ايران ، وقد امتدت تعاليمه الى كردستان والهند والصين . اما اليعقوبية نسبة الى معتنقها يعقوب البرادعي مطران الرها ، فتضم الجماعة الذين لا يقرون بغير طبيعة واحدة في شخص السيد المسيح وهم يمارسون طقوسهم الدينية بنفس اللغة السريانية التي يستعملها النساطرة في طقوسهم . وقد انتشر هذا المذهب بين الاقباط والاحباش والارمن »

(١٩) انظر :

A. Grant, "The Nestorians or the Lost Tribes", N.Y., 1841; J. Neusner, op. cit., III, pp. 15-16.

(20) Neusner, op. cit., I, p. 59, n. 1, p. 62, n. 1.

(٢١) الظاهر ان المقصود هنا هو شلمنصر الخامس الذي حكم آشور بين سنة ٧٢٧ و٧٢٢ ق.م، وهو الذي قام بحملة على اسرائيل .

المقيمين في الديار الاسلامية وقدرها دينار اميري ذهبا . » (٢٢)

٤ ـ امارة حدياب في آشـــور

ومما يذكر في هذا الصدد ان هناك امارة واسعة في منطقة آشور القديمة ازدهرت في القرن الاول بعد الميلاد وهي نفس المنطقة التي نقل اليها اليهـود المسبيون (الاسباط العشرة) من زمن الآشوريين ، تدعى « امارة حـدياب » (Adiabene) في المصادر الكلاسيكية وبالعربية « حزة » . وكانت هذه الامارة في اول الامر محصورة بين الـزابين الاعلى والاسفل عندما ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد ، ثم استمرت في النمو والازدهـار حتى بلغت اوج اتساعها وتمام استقلالها في القرن الاول الميلادي فتوسع نفوذها وبسطت سلطتها على منطقة نصيبين وحران ومردين وشملت جزءاً من بـلاد ارمينية ، كما ان من المرجح عند الباحثين ان نفوذها شمل مدينة الحضـر العربية ايضا . اما عاصمة الامارة فكانت مدينة اربيل . وكانت هذه الامـارة تابعة للامبراطورية الفرثية (٢٤٧ ق.م. ـ ٢٢٦ ب.م.) الواسعة . ولما كانت هذه الامبراطورية تتألف من اقاليم او امارات شبه مستقلة مع ارتباط بتبعيتها للملك الفرثي في عاصمته طيفسون فكانت امارة حدياب من بين الامارات المهمة التي تمتعت بقسط وافر من الحكم الذاتي وخاصة في عهـد فراهط الثاني (٦٩-٥٧ق.م.) وابنه درود الثاني (٥٧-٣١ ق.م.) ، حيث كانت المنازعـات بين ملوك السلالة الفرثية فيما بينهم من جهة وحروبهم مع الرومان وملـوك ارمينية من الجهة الاخرى قد مهدت السبيل للاقاليم التابعة للامبراطورية الفرثية ان تزداد نفوذا واستقلالا فحققت مملكة حدياب في القرن الاول الميلادي استقلالا تاما تقريبا في عهد ملكها « ايزاط » . وكان « ايزاط » معاصرا للملك الفرثي ارطبان الثالث (١٢-٣٨م) واكثر الملوك شهرة فكان مقربا للملك الفرثي ونال عنده حظوة كبيرة لأنه ساعده في استعادة عرشه من الامراء الفرثيين المنازعـين فوهبه مقابل ذلك منطقة نصيبين وجزءاً من مملكة ارمينية . وتفيد الاخبـار ان جذور المسيحية قد تمركزت في اقليم حدياب منذ اوائل القرن الثاني للميلاد اثر غزو تراجان للمملكة الفرثية سنة ١١٥ او ١١٦م وذلك كما يؤكده التقويم الاربلي (٢٣).

٥ ـ بقايا يهود كردستان العراق وتهجيرهم الى « اسرائيل »

لقد كان بقايا يهود كردستان العراق قبل تهجيرهم الى «اسرائيل» اثر حوادث فلسطين الاخيرة منتشرين في العمادية والعقر ودهوك وزاخو والزيبـار ورواندوز العليا والسفلى والمزوري والدوسكي ، وكانت لهم قريتان مختصتان

---

(٢٢) رحلة بنيامين ، ص١٥١ .

(23) Neusner, op. cit., III, p. 354.



رسم رقم (٢) ـ خارطة تبين منطقة حدياب في شمال العراق ومنطقة بابل اللتين
سبي اليهما اليهود في زمن الاشوريين والكلدانيين (الفقرة ٤)

بهم وهما « صندور » في منطقة دهوك(٢٤) و« بيت النور » (بي تنور) في برواري العليا وكثير منهم في قرية براش ويمتهنون الفلاحة والبستنة وتربية المواشي ، ومنهم من يعمل بالصياغة والنجارة والصناعة والحياكة . وكان لهم كنيسان في العمادية فوق القلعة واخرى في صندور ورابعة في بيت النور ، ولهم مزار يدعى « ابن حران » داود بن يوسف بن الرابع المتوفي حوالي سنة ١٠٣٠هـ (١٦٢٠م) والى جانبه ضريح زوجته « لست نحاد » قرب الكنيس في العمادية ويدعون انه من اوليائهم . وفي سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) كان عدد اليهود في شمال العراق حوالي ثلاثة عشر الف نسمة اسقطوا جنسيتهم العراقية وهاجروا الى «اسرائيل»(٢٥) . (انظر التصوير رقم ١٩)



التصوير رقم (١٩) — احد الرعاة اليهود في شمالي العراق قبل تهجيرهم الى «اسرائيل» وهم من بقايا السبي الاشوري

---

(٢٤) يقول الدكتور هنري فيلد الذي قام بدراسة انثروبولوجية ليهود شمال العراق ان شيوخ بلدة صندور اليهودية قد اكدوا له ما تناقلوه عن اجدادهم من ان اصلهم من يهود فلسطين الذين نفاهم الاشوريون في زمن سنحاريب ملك اشور الى جبال كردستان العراق وايران ، وهم ساكنون في قريتهم منذ ذلك الوقت لم يتركوها الا في مناسبتين حين اجبرتهم بعض القبائل الكردية على مغادرتها بصورة وقتية . ويذكر الدكتور فيلد ان يهود هذه القرية يطلقون صلواتهم على ظهر قلب بالعبرية من غير أن يفهموا معناها ، ولم يتزاوجوا طيلة مدة سكناهم في هذه المنطقة الا من بين طائفتهم اليهودية الكردية وهم لا يأكلون اللحم الذي لا تتوفر فيه الصفات التي تمليها عليهم ديانتهم . انظر:
H. Field, "The Anthropology of Iraq", Part II, No. 2, Kurdistan, Vol XLVI, 1952, pp. 71-72

(٢٥) مخطوط محمد صبير العباسي ، « امارة بهدينان العباسية » ، الموصل ، ١٩٦٩ .

وكان الصهيونيون يحرصون كل الحرص على تهجير هؤلاء اليهود الى «اسرائيل» من دون بقية اليهود في العراق ، وذلك لكونهم اصحاء انحصر ستهمون بزراعة واستمنة وتربية المواشي ، فهم يصلحون اكثر من اليهود الآخرين كأياد عاملة في الحقل ، وفضلا عن ذلك فهم لا يزالون متمسكين بدياناتهم الاصلية ولا يخشى منهم مشاركة العرب في شعورهم القومي نحو القضية الفلسطينية لأن لغتهم الثانية بعد اللغة الآرامية الأم هي الكردية . وقد افلح الصهيونيون في تهجيرهم كلهم الى «اسرائيل» بالاتفاق مع الحكومة العراقية القائمة آنئذ تحت ضغط وتهديد متعمدين ومصطنعين ، وذلك استنادا الى القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء في ١٩٥٠/٣/٩ والذي ينص على اسقاط الجنسية العراقية عن اليهودي العراقي الذي يرغب في ترك العراق نهائيا . وترجع فكرة تهجير يهود كردستان الى فلسطين الى ما قبل الحرب العالمية الاولى ، فقد استخدمت الدعوة الصهيونية كل وسائل الاغراء والعطف الديني لحثهم على الهجرة الى فلسطين لاستخدامهم في الاعمال الزراعية ، « وجرت محاولة لتوطينهم في مستعمرات الجليل وعمل بعضهم مع الهاشومير الاوائل . وظلت الهجرة الى فلسطين من البلاد العربية ـ رغم الدعايات الصهيونية ـ محدودة ، اذ لم يهاجر بين عام ١٩١٩ و١٩٤٨ الا ٧٩٨٨ معظمهم من كردستان » (٢٦) .

٦ ـ اليهود في الأسر في بابل

لقد قدمنا فيما تقدم عرضا مجملا للاحداث التي مرت في الفترة التي وجد فيها اليهود المسبيون في شمالي العراق لاول مرة ، وهي الفترة التي شهدت وقائع خطيرة ترجع حوادثها الى ما قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة . ونأتي الآن على الدور الثاني الذي وجد فيه اليهود في العراق ، وقد كان هذه المرة على مسرح منطقة جنوب العراق وقعت حوادثه في منطقة بابل الغنية بمياهها وبخصوبة سهولها الزراعية .

لقد انقرضت الدولة الآشورية وبانقراضها طوى الزمن اخبار دور اليهود المسبيين في شمال العراق . فسقطت نينوى عاصمة دولة الآشوريين سنة ٦١٢ق.م. وبسقوطها انتهى دور الامبراطورية الآشورية ، فاقتسم الماذيون والكلدانيون ممتلكاتها وقد وتمت حصة الكلدانيين في سورية والعراق ، وقد تأسست اثر ذلك الدولة البابلية الكلدانية التي دام حكمها ٧٣ سنة بين سنة ٦١٢ و٥٣٩ قبل الميلاد . والذي يهمنا من حكم هذه الدولة هو قضاؤها على

---

(٢٦) الدكتور علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية ، «يهود البلاد العربية» ، دراسات فلسطينية ، ٨٢ (١٩٧١) ، ص٦٩ـ٧٠ .

مملكة يهوذا الهزيلة وسبي يهودها الى بلاد بابل ، وقد انجزت هذه العمليــة على عهد نبوخذنصر الثاني ، وهو أعظم ملوك هذه الدولة ، حكم الــبلاد ٤٣ سنة بين سنة ٦٠٥ وسنة ٥٦٢ ق٠م٠ وذلك في حملتين ، الاولى في ســنة ٥٩٧ ق٠م٠ والثانية في سنة ٥٨٦ ق٠م٠ ففي الحملة الاولى سبى نبوخذنصر « كل يهود اورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف سبي وجميع الصناع والاقيان ولم يبق احد الا مساكين شعب الارض » ، كما سبى « يهوياكين » (ملك يهوذا) وامه ونساءه ورجاله من اورشليم الى بابل ٠

وفي الحملة الثانية قضى على مملكة يهوذا نهائيا بخربت اورشليم ودمـــرت تدميرا كاملا فأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت اورشلم وكل بيوت العظماء وسلبت الخزائن ونقلت الى بابل ٠ وقد خمّن عدد الاســرى الذين سيقوا الى بابل ليلتحموا باليهود من السبي الاول بحوالي ٥٠٫٠٠٠ شخص ٠ وهؤلاء كالذين سباهم الآشوريون الى بلاد آشور كانوا يتكلمون فيما بينهم باللهجة الارامية الخاصة بهم (المرحوم) ٠ ويرجع تاريخ دخولهم الى العراق الى الربع الاول من القرن السادس قبل الميلاد ٠

ومن المهم ملاحظته هنا ان الكلدانيين ، خلافا لما قام به الآشـــوريون من تشتيت الاسرى وابعادهم الى مناطق جبلية نائية منعزلة ، جاؤا بســباياهم من الاسرى اليهود الى مركز الدولة (بابل) واسكنوهم في جوار مدنهم وقراهــم مما مكنهم من التجمع في المنفى والاستمرار في ممارسة تقاليدهم وطقوســهم الدينية وتكوين مجتمعهم الخاص بهم ٠ وقد اقتبســوا لغة الكلدان ثم اللغة العربية التي حلت محل اللغة الآراميــة التي كانوا يتكلمون بها في الاصل ٠ لذلك قد يصح أن نطلق على هؤلاء اليهــود الذين نقلوا في هــذه المنطقة اسم اليهود المستعربين على اساس اخذهم باللغة العربية مع مرور الزمن ٠

ويظن أكثر الباحثين أن اليهود المسبيين الى بابل كانوا يعيشون في الاســر حيــاة ضيق وتعاسة تحت كابوس مظالم الكلدانيين وتعسفهم ، ومصـــدر هذه المزاعم هو بعض الكتابات اليهودية التي كانت ترمي من وراء بث هــذه المزاعم استدرار العطف على اليهود المسبيين الذين ابعدوا عن ديارهم ٠ وهذه المزاعم لا تستند الى البراهين والأدلة ، لأن اكثر المصادر التاريخية الموثوقة ومن ضمنها مصادر يهودية تعترف بما رونه المصادر الكلدانية ، وهو ان نبوخذنصر سمح للاسرى أن يصحبوا عائلاتهم وينقلوا معهم اموالهم المنقولة ومواشيهم ٠ وتؤكد هذه المصادر أن نبوخذنصر وهب اليهود بعد نقلهم الى بابل أخصب مقاطعاته وأسكنهم فيها مثل منطقة « نفر » (نيبور) التي كانت تعد من اغنى مقاطعــات

بابل.(٢٧) ومنحهم كذلك اوسع الحريات في العمل وممارسة طقوسهم الدينية، وكانت السلطات الحاكمة تعاملهم على احسن وجه .

وتعترف المصادر اليهودية بان اليهود في بابل أصبحوا في غضون مـدة وجيزة أغنى اهل بابل ، فبعضهم امتلك الاراضي الزراعية والبعض الآخر كان يزرع بالفعل على الاراضي التي اعطيت لهم ، وقد حفروا شبكة من جداول الري والقنوات لايصال المياه السيحية الى مزارعهم ، وانشأوا الحقول والبساتين ووجهوا عنايتهم لوقايتها من الغرق باقامة السدود وتنظيم اعمال الري على احسن وجه وقد اعتنوا عناية خاصة بتطهير الجداول والمبازل من الراسبات الغرينية بحيث تحولت هذه المنطقة الى حقول مثمرة . وكان يعمل بعضهم في حقـل التجارة . لذلك ، لما احتل كورش الاخميني بابـل سنة ٥٣٩/٥٣٨ ق.م. وسمح لمن أراد من الاسرى اليهود الرجوع الى فلسطين لم يستجب الى هـذا السماح الا نفر قليل انحصر في اولئك الذين لم يفلحوا كثيرا في الارض الجديدة والمتعصبين الراغبين في اعادة بناء الهيكل ، والاكثرية الساحقة من الأسـرى اختاروا البقاء في بابل يرتعون في خيرات البـلاد ويدابون في زيادة ثروتهم واملاكهم .

وقد اشتهرت عدة مدن في بابل بعد السبي البابلي باكاديمياتها الفقهية اليهودية واهم هذه المدن التي كان اكثرية سكانها من اليهود المسبيين هي : نهر دعة وفومبديثة وسورا وماحوزى .

كانت نهر دعة مدينة قديمة على نهر الفرات تقع في جوار عانة وقد اطلق اسمها ايضا على كل المنطقة الواقعـة في الفرات بين عانـة والانبار . اما فومبديثة فهي الاسم الذي أطلقه اليهود على الانبار حيث تجمع اليهـود بعد السبي البابلي ، ولفظة فومبديثة تعني فم البداة ، والبداة ذكرها ياقـوت ووصفها هي والجبة انهما طسوجان من سواد الكوفة(٢٨) . اما الانبار فتقع اطلالها اليوم على ضفة نهر الفرات اليسرى على بعد حوالي ثمانية كيلومترات الى الشمال من مدينة الفلوجة . يقول المستوفي في « نزهـة القلوب » ان

---

(٢٧) « نفر » (نيبور) هي من المدن البابلية الشهيرة ، تقع بالقرب من بلدة عفك العالية على بعد حوالي ٢٥ كيلومترا من شمال شرقي الديوانية على الضفة اليمنى من شط النيل الفرات القديم ، ويرجع تاريخها الى الالف الثالثة قبل الميلاد ، وكانت مركزا دينيا مهما في العهد السومري ، اذ كانت مقر الاله « ابن ليل » اله الارضين وهيكله المشهور « اي كور » وزقورته . اكتشف في خزانة الهيكل على ما يقرب من ٢٢ الف لوح يعود تاريخهـا الى الفترة بين سنة ٢٧٠٠ وسنة ٢١٠٠ قبل الميلاد .

(٢٨) معجم البلدان ١ : ٧٧٠ ، ٢ : ٣١ .

مؤسس الانبار الملك مهراب قاياسيان ، جعلها معتقلا للاسرى اليهود الذين سباهم نبوخذنصر ثم جدد بناءها سابور الثاني وجعلها السماح كرسي مملكته. وكانت سورا تقع بجوار الحلة على شط النيل المتفرع من الفرات وكان يعرف قديما بنهر سورا كانت مركزا رئيسا مهما من المراكز التي تجمع فيها اليهود بعد السبي البابلي . اما الماحوزى فمدينة قديمة متاخمة لسلوقية (المدائن) ولما غزا كسرى الاول (انوشروان) (٥٣١-٥٧٩م) انطاكية نقل اهلها الى مدينة جديدة قرب ماحوزى فسميت الماحوزى الجديدة .

٧ - هجرة اليهود العرب من جزيرة العرب الى الفرات الاوسط

لقد عرضنا فيما تقدم نبذة عن الدور الاول الذي وجد اليهود فيه في شمال العراق لاول مرة(٢٩) ، ثم عرضنا نبذة عن الدور الثاني الذي وجد فيه اليهود في جنوب العراق(٣٠) ، ونأتي الآن على الدور الثالث الذي دخلت فيه الى العراق جماعة من قبائل العرب المتهودة وقد اخرجت من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض)(٣١) . وهؤلاء عرب في لغتهم وقوميتهم ووطنهم وقد احتفظوا بعد مجيئهم للعراق بالمزارعين العرب الذين يرتبطون معهم بوشائج الدم والقومية ، وان هذا الارتباط كان عاملا قويا في حمل اكثر هؤلاء العرب المتهودين على اعتناق الاسلام والاندماج بالبيئة العربية الاسلامية كليا ، وقد بقي القليل جدا على يهوديته . وقد كان مجيء هؤلاء الى العراق وسورية في القرن السابع للميلاد ، اي بعد ظهور اليهود المسبيين من العهد الآشوري والكلداني في العراق بحوالي الف واربعمائة عام ، وقد جاؤا بصفتهم القبائلية العربية ومعهم مقتنياتهم ومواشيهم من اغنام وجمال بعد ان عوضهم الخليفة عمر (رض) عن ممتلكاتهم غير المنقولة واستقر اكثرهم في منطقة الفرات الاوسط حيث وفرة فرص الحياة الزراعية ، وقد بقي هؤلاء محافظين على لغتهم وقوميتهم العربية .

٨ - اليهودية في جزيرة العرب

وقبل البحث في هذا الموضوع المتعلق بكيفية انتشار اليهودية في جزيرة العرب ، لا بد من اثارة نقطة مهمة ، وهي ان الكثير من الباحثين يظن ان باب التبشير باليهودية كان مغلوقا منذ القديم وان اليهود الذين ظهروا في مختلف الاقطار ومنها الجزيرة العربية هم من اليهود الذين هاجروا من فلسطين. وهذا يخالف الواقع ، لأن كل الدلائل تثبت ان رجال الدين من اليهود كانوا يتحمسون ويحرصون كل الحرص لحمل اكثر ما يمكن من الناس من مختلف الاقوام على اعتناق اليهودية والتبشير بها منذ اقدم العصور . وبعد ظهور

---

(٢٩) انظر ما تقدم في الفقرة ٢ من هذا القسم

(٣٠) انظر ما تقدم في الفقرة ٦ من هذا القسم

(٣١) انظر ما تقدم في الفقرة ١ من القسم الاول

المسيحية صاروا اشد حماسا في التبشير بدينهم نتيجة للمنافسة بينهم وبين المشرين المسيحيين مما اثار العداء الشديد الدامي بينهما واستمرت هذه المنافسة تلعب دورها الف وثلاثمائة سنة حتى اغلق باب التبشير باليهودية في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد(٣٢) ، في حين ان التبشير بالمسيحية استمر ولا يزال مستمرا حتى هذا اليوم .

ان اليهودية كدين لم تكن مقتصرة على قوم موسى ، فقد انتشر الدين اليهودي بين مختلف الامم والاجناس ، وهذه الامم اعتنقت الدين اليهودي وهي تعيش في ديارها واوطانها تتكلم بلغاتها وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها ، اذ بدأ التبشير بالدين اليهودي منذ تكوين الديانة اليهودية بعد كتابة التوراة في الأسر في بابل ، واستمر الى العصور الوسطى حيث اغلق باب التبشير في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي كما تقدم . فقد قضى اليهود حوالي عشرين قرنا يعملون بجد ونشاط لنشر ديانتهم بين شعوب وامم لا تمت الى قوم موسى (ع) بادنى صلة وليست لهم علاقة بفلسطين او سكان فلسطين من اليهود لا من بعيد ولا من قريب . وهؤلاء الدعاة الى الدين اليهودي لم يكونوا دائما من فلسطين ، بل ممن اعتنقوا الدين اليهودي من مختلف العناصر فتحمسوا له ، كما ان المسيحية لم تنتشر بوساطة سكان فلسطين وحدهم ، بل بوساطة من اعتنقها من مختلف الاجناس والشعوب.(٣٣) وهكذا « ظلت اليهودية زمنا طويلا فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصا تحت لوائها من ابناء الشعوب الاخرى » .(٣٤) فقد اعتنقت شعوب عديدة الدين اليهودي وهم في ديارهم واوطانهم ولم يكونوا في وقت من الاوقات من سكان فلسطين ، فانتشر هذا الدين في القارات الثلاث واعتنقته امم مساعدة الاوطان مثل سكان اليمن والحبشة والجزيرة العربية وبلاد القفقاز (الخزر) واواسط اوروبا وبلاد المغرب وشعوب مختلفة في الدولة الرومانية وفي الاقطار المجاورة لها ، هذا الى جانب العناصر التي دخلت في اليهودية بطريق الزواج . وقد اعتنق اليهودية كثير من الجماعات التي جاء بها الآشوريون من مختلف انحاء الامبراطورية الآشورية الى فلسطين ليحلوا محل اليهود الذين ابعدوا الى كردستان والى بلاد مادي واندمج بعضهم باليهودية . وربما كان خير من يمثلهم اليوم اليهود السامريون الذين يعيشون وسط العرب وفي رعايتهم في مدينة نابلس.(٣٥)

---

(٣٢) الدكتور سامي سعيد الاحمد ، « الاسس التاريخية للعقيدة اليهودية » ، ص٢٠ .

(٣٣) الدكتور محمد عوض محمد ، الهلال (يوليو) ١٩٤٧ ، ص٢٢-٢٩ .

(٣٤) ويلز ، « معالم تاريخ الانسانية » الترجمة العربية ، الكتاب الرابع ، ص٢٩٢-٢٩٣ .

(35) P. Hitti, "History of Syria", p. 197.

ان اليهودية والمسيحية ظهرتا في الجزيرة العربية قبل الاسلام في ظروف متشابهة وسط عالم يدين بالوثنية ، والاثنتان انتشرتا في العالم عن طريق التبشير وبخاصة عن طريق اعتناق رؤساء مجتمعات تلك العصور ، واحسن مثال نورده في هذا الباب اعتنق الامبراطور الروماني قسطنطين الاول المسيحية في اوائل القرن الرابع الميلادي واعتناق ابي كرب ملك اليمن اليهودية في القرن الخامس الميلادي ، فاجبر الاول شعبه على اعتناق المسيحية والثاني اجبر شعبه على اعتناق اليهودية ، وقد تم ذلك في زمن متقارب تقريبا بحيث تصح يصح اعتبار وقوع الحدثين في عصر واحد . وبنفس هذه الطريقة انتشرت اليهودية في الخزر وفي شرقي اوروبا ثم المسيحية في كل العالم . نفي تعليق على التبشير القديم باليهودية يقول المؤرخ ماركس في كتابه «تاريخ الشعب اليهودي» « انه لمن الخطأ الاعتقاد بان اليهود لم يقصدوا التبشير باليهودية او لم يقبلوا المذهب بالدين اليهودي . »(٣٦) وفي انتشار اليهودية في بلاد الرومان يقول كاوتسكي (Kautsky, : « ففي بداية العصر المسيحي تعاظمت اهمية الارتداد نحو اليهودية ، اذ كان من المغري بالنسبة للكثيرين ان ينضموا الى المجموعة التجارية ، المزدهرة الواسعة ، ومنذ عام ١٣٩ قبل الميلاد طرد اليهود من روما لتهويدهم بعض الرومان ، وفي انطاكية كان المتهودون يشكلون القسم الاكبر من الطائفة اليهودية .(٣٧) وقد عمل اليهود على التبشير باليهودية بين الناس في روما بحيث صار اعتناق اليهودية خاصة في النصف الاول من القرن الاول الميلادي موضة العصر وكثر اعتناق اليهودية الى الحد الذي أجبر الامبراطور نيرون ان يصدر امرا بمنع اليهود من التبشير بدينهم او اعتناق اليهودية وآمنت باليهودية الرعية حتى زوجة نيرون نفسه .(٣٨)

عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة اهلها فلبسوا لباسهم وتكلموا لغتهم وتصاهروا معهم ، فتزوج اليهود عربيات ، وتزوج العرب يهوديات ، واسترضع العرب في القبائل العربية المتهودة ، والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود في الجزيرة هو الاختلاف في الدين . وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في اي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد .(٣٩) ذلك

---

(36) "History of the Jewish People", p. 7

(٣٧) ابراهام ليون : « المفهوم المادي للمسألة اليهودية » ترجمة عادلة نويهض ، ص٣١.

(٣٨) الدكتور سامي سعيد الاحمد ، « الاسس التاريخية للعقيدة اليهودية » ، ص٣٠ نقلا عن البرت تريفر :
Albert Trever, "History of Ancient Civilization", N.Y., 1939, II, p. 466.

(٣٩) الدكتور جواد علي « تاريخ العرب قبل الاسلام » ٦ : ٢١ نقلا عن
Groetz, "History of the Jews", III, p. 58, f., 60.

كله ما يزيد كون اليهود في الجزيرة العربية عرب متهودون لا يهود مهاجرون ، اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير ، لان العصبية العربية تقيم حاجزا يحول دون زواج اليهود بالعربيات كما هو معروف . وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي : « ولعل كون اليهود في الجزيرة من اصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس . »(٤٠)

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد ان اليهودية التي اعتنقها عرب الجزيرة كانت أشبه بحزب قبلي منها دين له اصوله وابعاده كدين يهود فلسطين ، اذ كان مجرد اعتناق احد رؤساء القبائل او البطون أو الافخاذ يؤدي تلقائيا الى تهود اتباع ذلك الرئيس او الزعيم . فقد كانت هذه القبائل المتهودة تعقد الأحلاف مع بقية القبائل العربية على الطريقة المتبعة منذ القديم بين القبائل العربية في الجزيرة ، محافظة على نفس عاداتها وتقاليدها واعرافها وثقافتها وقوميتها العربية ، ولم يعرف هؤلاء العرب المتهودون من اليهودية غير عقيدة التوحيد وبعض عبارات عبرية يحفظونها على ظهر قلب ويرددونها دون ان يفهموا معناها عند الصلاة . ولم يكن لهم اية صلة تربطهم بيهود فلسطين غير الاتصال التجاري الذي كان يمارسه اليهود في اكثر بلاد العالم وزيارة بعض أحبار يهود فلسطين ممن كانوا يحسنون اللغة العربية لأن يهود فلسطين كانوا يتكلمون ما بينهم باللغة الآرامية في ذلك الزمن .

وتدل المدونات التأريخية المتوافرة ان اليهودية كانت في العصر الجاهلي منتشرة بين القبائل العربية بوجه عام (في الحجاز وفي اليمن وفي تجند وفي الحيرة وفي البحرين وغيرها) . ويفهم من روايات الاخباريين أن يهود الحجاز وبخاصة يهود مدينة يثرب كانوا قبائل وعشائر وبطونا منهم : بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو عكرمة ، وبنو محمر ، وبنو زعورا ، وبنو زيد ، وبنو الشطبية ، وبنو جشم ، وبنو يهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص (العصيص) وبنو ماسلة وبنو ثعلبة .(٤١) وكان يسكن مع يهود يثرب من غير اليهود بطون من العرب منهم : بنو الحرمان حي من اليمن ، وبنو مرثد حي من بلي ، وبنو نيف وهم من بلي ايضا ، وبنو معاوية حي من بني سُلَيم ثم من بني الحرث بن بهثة ، وبنو الشطية حي من غسان . وظل اليهود اصحاب يثرب حتى جاء الأوس والخزرج فنزلوها ، وورد في الاخبار انهم جاؤا بعد حادث سيل العرم "التماسا لوطن صالح جديد ، وانهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة استغلوا الخلافات بين اليهود فتغلبوا عليهم وسيطروا

---

(٤٠) المرجع السابق : ٦ : ٢١ .

(٤١) الدكتور جواد علي« المفصل في تاريخ العرب » ٦ : ٥٢٢ نقلا عن الاغاني ١٩ : ٩٥ وسيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧

على المدينة وقسموها فيما بينهم ، فلم يبق يومئذ لليهود عليها سلطان ٠(٤٢)
وقد ذكر اليعقوبي ان بعض منتسبي الأوس والخزرج قد تهودوا بعد نزوحهم من مواطنهم الى يثرب قال : « وتهوّد قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير ٠ »(٤٣)
ويلاحظ مما تقدم انه كان بين قبيلة بني الشطية وقبائل الأوس والخزرج ممن تهودوا ، كما ان هناك ما يدل على ان بعض قبيلة بلي من بطون قضاعة قد تهود ايضا ٠ (٤٤)

٩ ـ عروبة يهود الجزيرة العربية

لقد ذهب اغلب الباحثين ، استنادا الى دراسة اسماء يهود الحجاز منذ ظهور الاسلام ، الى ان اولئك اليهود لم يكونوا يهودا حقا ، بل كانوا عربا متهودين تهودوا بتأثير الدعاة اليهود ٠(٤٥) ويرى نولدكه انه ليس بين اسماء البطون اليهودية الاحد عشر التي كانت في الحجاز في ايام ظهور الاسلام اسم يظهر عليه الملامح اليهودية غير اسم واحد وهو زعورا ٠(٤٦)

ويؤكد اليعقوبي أن القبائل اليهودية في جزيرة العرب كانوا من أصل عربي، اذ يقول في وقعة بني النضير ان بني النضير فخذ من جذام الا انهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فنسبوا به ، وفي وقعة بني قريظة يقول بأن بني قريظة فخذ من جذام ايضا أخوة النضير ، ويروي ان تهودهم كان في ايام عادياء بن السموأل ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا اليه ٠(٤٧) ويؤيد ذلك ياقوت الحموي في معجمه ، فيقول ان يهود بني قريظة وبني النضير كانوا من القبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى اخرجهم الأوس والخزرج من الانصار من المدينة ٠(٤٨)

ومن قبائل جزيرة العرب المتهودة التي ذكرها القاضي صاعد الاندلسي ، قبائل

---

(٤٢) الدكتور جواد علي ، « تاريخ العرب قبل الاسلام » ٦ : ١١ .
(٤٣) تاريخ اليعقوبي ، طبعة النجف ، ١ : ٢٢٦ .
(٤٤) البكري ، معجم ما استعجم ، ١ : ٢٩ .
(٤٥) الدكتور جواد علي « تاريخ العرب قبل الاسلام » ، ٦ : ١٩ نقلا عن :
Margoliouth, "The Relations Between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, 61 ff
والمفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦ : ٥٣ نقلا عن :
W. Caskel, Das altarabische Komingreich Lihian, S. 19.
(٤٦) الدكتور جواد علي ، تاريخ العرب ٦ : ٢١ نقلا عن مارگوليوث ونللينو وهرشفلد .
(٤٧) تاريخ اليعقوبي ، طبعة النجف ، ٢ : ٤٠ ، ٤٢ .
(٤٨) « معجم البلدان » ٤ : ٢٨٥ ، ٤٦٠

بني حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة(٤٩) كما يذكر اليعقوبي ان قوما من بني الحارث بن كعب وقوما من غسان وقوما من جذام قد تهودوا ٠(٥٠) وقد ورد عن المستطرف قوله ان الدين اليهودي انتشر في قبائل العرب في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة ٠(٥١)

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث بعد الميلاد انهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية (والمقصود بذلك يهود من فلسطين) ويقولون ان الذين يعتبرون انفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على الديانة الالهية التوحيدية ولم يخضعوا لنواميس موسى ٠(٥٢) ويعتقد العلامة شيرر ان اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة ، كانت يهودية في اسسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي ٠(٥٣)

ويؤيد المؤرخون اليهود ان يهود جزيرة العرب كانوا في معزل وانفصال تام عن بقية ابناء دينهم خارج الجزيرة ، لذلك لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في احد المؤلفين اليهود القدامى ٠ وهذا ان دل على شيء انما يدل على انعدام الصلة القومية بينهم وبين يهود فلسطين ٠ وفي ذلك يقول الدكتور ولفنسون : « ان ثمة مراجع عبرية غير قليلة عن حياة اليهود في بلاد العراق والفرس ومصر واليونان والرومان ، اما يهود الجزيرة العربية فلا نكاد نجد مؤلفات عبرية عنهم الا شيئا ضئيلا جدا لا يتجاوز بضعة نصوص اندمجت في بعض الكتب اندماجا عرضيا غير مقصود ، ولكننا نستطيع ان نستنتج من هذه الناحية نفسها نتيجة ذات شأن ، وهي ان سكوت المراجع الاسرائيلية عن سرد حوادث اليهود في الجزيرة العربية يدل دلالة قاطعة على ان اليهود في بلاد العرب كانوا منقطعين تمام الانقطاع عن بقية ابناء جنسهم والاصح ان يقال اخوانهم في الدين في جهات العالم ولم تكن لهم بهم اية صلة ٠ »(٥٤)

« ويلاحظ ان يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة ، كما حافظوا عليها في الاقطار الاخرى ٠ فاكثر اسماء القبائل والبطون والاشخاص هي اسماء عربية ، والشعر

---

(٤٩) « طبقات الامم » ، بيروت ١٩١٢ ، ص٤٣ ؛ ابن قتيبة ، «المعارف» ١٩٦٠ ، ص٦٢١ .

(٥٠) تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٢٧ .

(٥١) يوسف غنيمة « نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق » ص٩٩ عن المستطرف للابشيهي ٢ : ١١٤ .

(52) Graetz, op. cit., III, p. 75.

(٥٣) المرجع السابق ، ص٥١ .

(٥٤) ولفنسون ، « تاريخ اليهود في بلاد العرب » ، ص١١–١٢ .

المنسوب الى شعراء منهم ، يحمل الطابع العربي ، والفكر العربي ، وفي جميعهم الاجتماعية والسياسية ، لم يكونوا مختلفين عن العرب ، فهم في أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين ...(55) وهذا الشعر المنسوب الى اليهود ، لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسجه عن شعر الشعراء الجاهليين الوثنيين . ولا تكاد تلمس فيه أثر لليهودية ، فأفكاره عربية صافية نقية مثل أفكار أهل الجاهلية ، وأفكاره على نمط أفكار الجاهليين . ويصعب ان نجد فيه أثرا للتوراة والتلمود . »(56)

١٠ ـ صلة يهود جزيرة العرب بفلسطين

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان القبائل العربية اليهودية لما أجليت من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) لم يعرف ان احدا من هؤلاء نزح الى فلسطين ليكونوا بالقرب من هيكل سليمان مقدسهم ذلك المقدس الديني ، يقول الدكتور جواد علي في ذلك : « ... نلاحظ ان اليهود فضلوا الذهاب الى أذرعات والى أماكن أخرى على الذهاب الى القدس او عموريه او قيصرية او غيرهما من بلاد فلسطين ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يفكروا قط في الاقامة في تلك الاماكن ، وان قلوبهم لم تكن متعلقة بها ، والا لاختاروا الذهاب اليها ، بل كانت قلوبهم متعلقة بمواطنهم هذه التي كانوا يقيمون بها بالحجاز ، وان اليهود كانوا يفضلون السكنى في المواطن التي نشأوا فيها على الذهاب الى فلسطين . »(57)

وهذا كله لا يتفق او ينسجم مع ما ذهب اليه بعض الباحثين من أن يهود الجزيرة قد جاءوا من فلسطين اثر اجلائهم منها في عهد الرومان . ولا شك انهم مستندون في ذلك الى الاقوال التي انفردت بها التوراة ثم أيدها التلمود والتي تقول ان أصل يهود الجزيرة العربية هو فلسطين بغية تأكيد صلة القربى بين العرب واليهود ، ولكن ذلك لا ينسجم وسنة الطبيعة ، فالهجرة لا تتم من البيئة المتمدنة المستقرة الى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب ، بل العكس هو الصحيح والطبيعي . وللمستشرق ونكلر رأي في هذا الموضوع وهو ان أولئك اليهود لو كانوا يهودا حقا هاجروا من فلسطين الى الجزيرة العربية ، لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كان عليه يهود الجزيرة العربية ، اذ كانت حالة يهود فلسطين أرقى وأرفع من الحالة التي كان فيها هؤلاء اليهود ، فلا يعقل ، على رأيه ، نزول جماعته الى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد

(55) الدكتور جواد علي « تاريخ العرب قبل الاسلام » ٦ : ٢٠ نقلا عن نولدكه .
(56) المرجع السابق ٦ : ٢٤ـ٢٥ .
(57) الدكتور جواد علي ، « تاريخ العرب قبل الاسلام » ٦ : ١٦٤ .

مستواها الثقافي والمدني ارقى من مستوى من هو دونهم كثيرا في شؤون الحياة ، ومستوى الحياة في جميع نواحيها ، في فلسطين ، ارقى وارفع من مستواها في الاماكن التي وجد فيها يهود من بلاد العرب ، لذلك فهم على رأيه عرب متهودون لا يهود مهاجرون .(٥٨)

والحقيقة هي ان اليهودية والمسيحية كانتا تتزاحمان بينهما على تهويد او تنصير لقبائل العربية في الجزيرة قبل الاسلام ، فتوجه المبشرون من اليهود والمسيحيين نحو جزيرة العرب ، حيث وجدوا القبائل العربية في الجزيرة قبل الاسلام متهيأة نفسيا لتقبل دين التوحيد ، كما وجدوا الحرية المطلقة للعمل في صحراوات الجزيرة الواسعة - لذا كان نشاط التبشير بين عرب الجزيرة على أشده بحيث تمكن أحبار اليهود من تهويد بعض القبائل العربية كما استطاع المبشرون المسيحيون بعدهم تنصير البعض الآخر .

ويرى بعض الباحثين ان اليهود تعمدوا نشر قصص التوراة القائلة بوجود وشائج قربى بين العرب واليهود في شبه جزيرة العرب لدعوة أهلها لاعتناق الدين اليهودي بحجة انهم والعرب من أصل واحد ، اي احفاد سام بن نوح ، فكانوا يروجون مثل هذه الادعاءات ليربطوا صلتهم بالجزيرة العربية وبالعرب على اعتبار أنهم ابناء عمومة مع العرب وأن جدهم وجد العرب واحد هو ابراهيم الخليل عليه السلام . « وظلوا منذ ذلك العهد الى ظهور الاسلام وهم يبذلون جهدهم في اشراب العرب عقيدة أنهم جميعا ذرية اب واحد حتى نجحت فيهم الاكذوبة التي كان العرب أجهل من ان يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق .»(٥٩)

لذلك ان النظرية القائلة بان اليهود هاجروا الى الجزيرة العربية عندما اخرجهم الرومان من فلسطين فهي نظرية عقيمة لا تستند الى اي دليل ، ولا يمكن ان يقبلها المنطق والعقل السليم لما سبق شرحه من الاسباب ، فالملجأ الطبيعي الذي كان يمكن ليهود فلسطين ان يلجأوا اليه بعد اضطهاد الرومان لهم هو العراق وليس الجزيرة العربية ، اذ كان في العراق آنئذ عدد كبير من بقايا اليهود المسبيين في منطقة بابل كانوا يتمتعون بحكم ذاتي واصبح الكثير منهم اصحاب ثراء ونفوذ وكانوا هم والفرس على وفاق ووئام ضد الرومان في اكثر الاحوال باعتبار الرومان عدوا مشتركا . والثابت أن العديد من رجال الدين من اليهود انتقلوا بعد اضطهاد الرومان لليهود من فلسطين الى العراق حيث اسسوا المدارس الدينية الكبرى التي وضعت التلمود البابلي .

ان بدوي الصحراء الرقيق الاحساس ، المجبول على الفطرة والتعلق الروحي،

---

(٥٨) المرجع السابق نقلا عن :

Winckler, Mett. Vor. Asal Ges. VI, S 222.

(٥٩) ولفنسون : « تاريخ اليهود في بلاد العرب » ص٧٥ .

لم تعد نفسيته تتقبل عبادة الاصنام ، لذا فقد كان عرب الجزيرة قبل الاسلام في حالة صراع نفسي ديني شديد لمحك بين الوثنية من جهة وبين اليهودية والمسيحية اللتين تدعوان الى التوحيد من جهة اخرى ، وقد كان دين ابراهيم الخليل(ع) الذي يدعو الى التوحيد معروفا في الجزيرة العربية عند الحنفاء كما ينبئنا القرآن الكريم ، فاستمر هذا الصراع حتى نزل الوحي على النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، حامل رسالة الاسلام اتماما وامتدادا لرسالة ابراهيم عليه السلام ، متقبلها المجموع سالغ الحماس وعميق الايمان فدخلوا فيه افواجا ، وان الانبياء والرسل يظهرون عادة بوحي من الله في مثل هذه الظروف القلقة التي كانت سائدة في ارض جزيرة العرب وهي في وضع كانت باشد الحاجة فيه الى من يوجه الناس الى الصراط المستقيم ٠

١١ ـ الخلاصـة

يتضح مما تقدم أن عرب الجزيرة المتهودين لم تربطهم بفلسطين ايه رابطه لغوية او قومية ، اذ كان يهود فلسطين وهم من عناصر مختلطة يتكلمون ما بينهم باللغة الآرامية ، في حين ان لغة عرب الجزيرة هي اللغة العربية ٠ لذلك ان اعراب الجزيرة العربية المتهودين لم يختلفوا من حيث قوميتهم ولغتهم وعاداتهم عن اخوانهم عرب الجزيرة غير الـدين الذي اعتنقوه عن طريق التبشير ، وهم في ذلك مثل جماعه الخزر المتهودة التي حافظت على لغتها وقوميتها وعاداتها ، ومثل قبائل البربر التي اخذت باليهودية وقد حافظت على لغتها وتقاليدها وغيرها من مختلف العناصر الذين صبئوا الى اليهودية ٠

وهكذا فتكون اسرتنا آل سوسه ، وهي من اسر القبائل العربية المتهودة التي استقرت على ساحل الفرات الاوسط ، عربيـة الاصل في الوطـن ، وفي العرق ، وفي القومية واللسان ٠ وقد امتهنت الاسرة الزراعة ومارستها في سواد العراق واستمرت تعمل في هذا الميدان منذ ان وطات اقدامها ارض العراق لفترة حوالي الف وثلاثمائة سنة ٠ وقد سبقت الاشارة الى ذلك ٠

١٢ ـ تهجير يهود العراق

لقد تم تهجير يهود العراق اثر حوادث فلسطين الاخيرة استنادا الى القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء في ١٩٥٠/٣/٩ وهو يخول الحكومة حق اسقاط الجنسية العراقية عن اليهـودي العراقي الذي يرغب في اختيار ترك العـراق نهائيا ، وعملا بهذا القرار انذر اليهود الذين سبق لهم ان غادروا العراق بصورة غير شرعية قبل صدور القرار المذكور بالعودة الى العراق خلال فترة شهرين والآ تسقط عنهم الجنسية العراقية ٠ وقد قدر عدد اليهود الذين غادروا العراق منذ صدور القرار المذكور وحتى كانون الاول ١١٢٫٥٤٥ ، ولم يبق الا بضعة

آلاف من اليهود قدروا سنة ١٩٥٥ بخمسة آلاف نسمة يتمركزون بصورة رئيسية في بغداد (٦٠)

ويؤكد الخبراء الواقفون على مجرى الامور ان تهجير اليهود من البلاد العربية تم تحت وطأة حملة اضطهاد منظمة ومصطنعة بالتواطؤ بين بعض الحكام العرب وزعماء الصهيونية . يؤكد ذلك ابو مازن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح في مقال نشره في مجلة « بيروت المساء »(٦١) بقوله : « ومن المعروف ان بلادنا العربية لم تشهد في اية فترة من الفترات نشاطا صهيونيا حقيقيا اي ما يسمى بالدافع العقائدي للهجرة لم يكن موجودا لدى عرب اليهود . ويتبين ان قسما كبيرا من المهاجرين اليهود من البلدان العربية قد جاء الى فلسطين المحتلة نتيجة اتفاق تآمري بين بعض حكام العرب وقيادة الحركة الصهيونية يقضي بشحن اليهود العرب بكاملهم من اوطانهم الى فلسطين المحتلة بغض النظر عن رغبتهم بالهجرة الى فلسطين ، في حالة رغبتهم في الهجرة ، او الى بلدان اخرى . وينطبق هذا بصورة خاصة على اليهود العرب في اليمن والعراق .

« ان الفترة التي سبقت قيام «اسرائيل» لم تشهد هجرة يهودية تذكر من البلاد العربية بالرغم من قرب فلسطين من هؤلاء ، وكان باستطاعة يهود العراق ومصر وسورية ولبنان ان يدخلوا الى فلسطين بسهولة ويسر لو ارادوا ذلك ، ولكنهم لم يفكروا بالهجرة . فكانت حملات التهجير الجماعية والتي تمت بالتواطؤ والتآمر بين بعض الحكام العرب وزعماء الصهيونية . فنجد مثلا ان ١٢٠ الفا من يهود العراق وخمسين الفا من يهود اليمن قد قدموا الى فلسطين خلال السنوات ١٩٤٩-١٩٥١ وبعمليات نقل جماعية (٦٢) . كما تشير المراجع الصهيونية الى ان الهجرة من اليمن تمت تحت ضغط التهديد بالطرد من اليمن بل تذكر هذه المراجع ان عددا من اليهود في اليمن اعتنق الاسلام ليتمكن من البقاء في بلده . » وبالنسبة للعراق يقول ابو مازن : « اما في العراق فالأمر اكثر وضوحا والمأساة اكثر عمقا وحزنا لما لاقاه اليهود العرب في العراق من صنوف الالام والتعذيب والارهاب والضغط لاقتلاعهم

---

(٦٠) الدكتور علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية ، « يهود البلاد العربية » ، دراسات فلسطينية (٨٢) ، ص٧٢-٧٤ .

(٦١) العدد ١٠١ (٦-١٢ كانون الثاني - يناير - ١٩٧٦) ص ٩-١٥

(٦٢) ان عملية النقل الجماعية من العراق اعطي لها سنة ١٩٥٠ اسم اسطوري هو (عملية علي بابا) وقد اتخذت الوكالة اليهودية ترتيباتها مع شركة امريكية للخطوط الجوية من اجل نقل المهاجرين بطائرات السكاي ماستر من بغداد الى «اسرائيل» عن طريق نيقوسيا ثم فيما بعد اخذت الطائرات تتجه الى اللد مباشرة («يهود البلاد العربية» المرجع المشار اليه من قبل ، ص٧٢) .

من جذورهم ونقلهم الى المسلخ الصهيوني مسلوبي الارادة مهدوري الرغبة ، لا حول لهم ولا قوة .. لم تكن هجرتهم الجماعية من العراق امرا طبيعيا او عفويا ، فليس صحيحا انهم هاجروا لانهم كانوا صهاينة او لانهم رأوا في «اسرائيل» تجسيدا لأمانيهم وهذه مسألة تجمع على الاقرار بها كافة المصادر الصهيونية الرسمية وغير الرسمية . ولا حاجة لاثبات صحتها باستعراض المراجع والشواهد .. فقد نشط المبعوثون الصهاينة ونجحوا في ادخال كميات كبيرة من السلاح الى بغداد بمساعدة الجيش البريطاني . وتوجت السلطات العراقية الرجعية آنذاك اجراءاتها القمعية والتآمرية مع الصهيونية باصدار قانون اسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين بعد التمهيد له بحملة واسعة ضد اليهود ، ومع ذلك كانت نسبة الاستجابة له ضئيلة جدا ، فقامت منظمة «هشورا» الصهيونية بالقاء القنابل على اليهود بدءا بيوم ١٩٥٠/٤/٨ وانتهاء بيوم ١٩٥١/٦/٥ ، وبالنسبة للقانون المذكور يقول ابو مازن : « اما بالنسبة للقانون (المؤامرة) فقد تم الاتفاق على اصداره في اجتماع سري عقد في فيينا سنة ١٩٤٩ وحضره نوري السعيد وبن غوريون ومبعوث بريطاني وبعد عودة نوري السعيد الى العراق قدم استقالة حكومته ليفسح في المجال لمجيء حكومة انتقالية ، وكلف السويدي بتأليف الوزارة الجديدة في ١٩٥٠/٢/٥ . وتقدمت الحكومة فورا بلائحة قانون اسقاط الجنسية وطالبت باقراره على الفور فوافق المجلس النيابي عليه وكذلك مجلس الاعيان . » ويمضي ابو مازن الى القول بان « هذه باختصار قصة اليهود في العراق ، ومما لا شك فيه انها القصة انموذج لباقي يهود البلاد العربية ، ففي كل بلد لهم قصة شبيهة بقصتهم في العراق وان اختلفت في التفاصيل الا ان الهدف واحد والمحرك الاساسي وراء هذه القصص واحد ايضا .»

القسم الثالث

حياتي المدرسية

« مرت حياتي المدرسية بثلاثة ادوار : الدور الاول ، نشأتي ودراستي الابتدائية في الوطن ، والدور الثاني ، دراستي في الجامعة الامريكية في بيروت بين سنة ١٩٢٢ و١٩٢٥ والدور الثالث ، دراستي في امريكا بين سنة ١٩٢٥ و١٩٣٠ دخلت في خلالها سبع جامعات وكليات في مختلف انحاء امريكا . »

الباب الاول ـ نشأتي الاولى ودراستي الابتدائية

١ ـ نشأتي الاولى . ٢ ـ اسعد الايام . ٣ ـ دراستي الابتدائية . ٤ ـ النظام الاقطاعي . ٥ ـ مشروع سدة الهندية . ٦ ـ افتتاح مشروع سدة الهندية . ٧ ـ ايسلم الرعب . ٨ ـ في عالم الذكريات . ٩ ـ السيارات تحل محل الجمال في نقل الغلات الزراعية . ١٠ ـ الاحتلال البريطاني وثورة العشرين . ١١ ـ فترة قلقة

١ ـ نشأتي الاولى

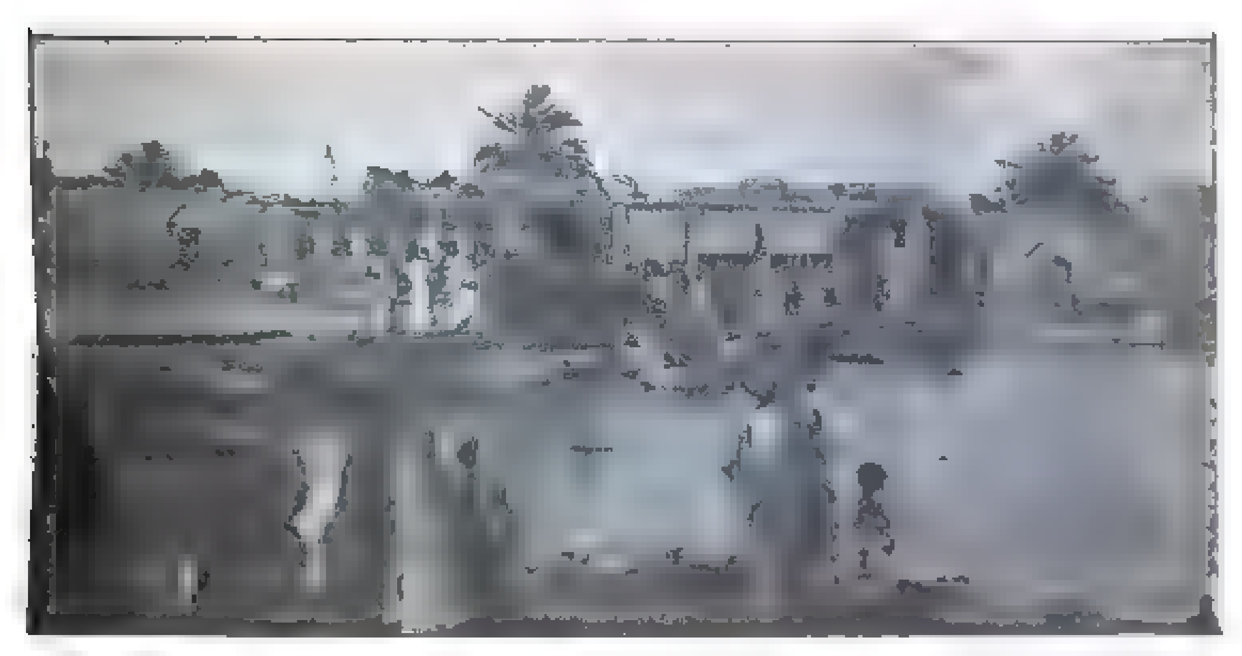
في ذلك العهد الحالك ، عهد الحكم العثماني المظلم ، في تمام السنة الاخيرة من القرن المنصرم شاءت الاقدار ان تقذفني في احضان هذا العالم الفاني ، فكان لي من الحظ الوفير ان نشأت في وسط اسرة لا بأس في رفاهيتها ، فرأيت النور لأول مرة في دار بسيطة في أحد الشوارع الضيقة في بلدة الحلة الفيحاء .

وكانت هذه البلدة مدخر العراق وأحد البلاد تجهز الحبوب للاستهلاك والتصدير ، فكان معظم اسرها يتعاطون الزراعة وتجارة الحبوب ، اذ كانت هذه الحبوب مصدر معظم المعاملات التجارية ، فلارتفاع اسعارها او هبوطها الشأن المهم في تكييف حياة أكثرية سكان البلدة كل بنسبته .

وتقع الحلة قرب بابل في محيط الفرات الاسفل ، في وسط محيط ريفي زراعي ، فكانت بحكم موقعها هذا منزوية عن العالم الخارجي محافظة على العادات والتقاليد الموروثة ، وكان يتجلى فيها مظهر البساطة والسكون بأجلى بيان ـ وفي كل وقت ومكان ـ ذلك المظهر الذي يجمع بين البداوة والمدنية ، فيكون من امتزاج العنصرين و حتكاكهما حياة تعاون وتآزر تنطوي على تبادل في الآراء والافكار واشتراك في العواطف ، والميـول ، واذا ما خرج المرء من داره في الصباح وسار في ازقة المدينة واجال نظره فيها فكأنه يشاهد مسـرحا اجتمع عليه الافندي بطربوشه ، و الفلاح بعقاله ، والشيخ والبدوي ، والحضرية المحجبة والبدوية السافرة ، والفارس على ظهر فرسه ، والراجـل المتأمل ، والتاجر والعامل ، الكـل في حـركة فطرية لا يشوبها اصطنـاع ولا زخرف ، واهم ما يسترعي النظر قوافل الجمال ترى فيها الابل تتهادى في مشيتها في الازقة والشوارع بين هذه الجموع دائبة في نقل الاطعمـــة الى الأمراء ، فلا يعيقها نهار قائظ ولا يروعها ليل دامس ، حركة اجتمع فيها العمل والهدوء والسكينة في آن واحد ، فكان فيها من آيات القناعة والاطمئنان ما جعل الجميع يحمدون ربهم على نعمه وخيراته .

كان والدي رجلا صالحا مستقيما في معاملاته صادقا في مخالطاته صريحا في كلامه مما جعله محبوبا لدى عارفيه ، وكانت له منزلة ذات شأن في المجتمع حتى عين عضوا في مجلس ادارة اللواء . ولا ازال اذكر وانا صبي ان والدي

كان بحكم عضويته هذه يقوم بسفرة كل سنة الى الديوانية لاجراء الانتخابات في مركز اللواء ، فكانت الاستعدادات لهذه السفرة اشبه بالاستعدادات للسفر الى القمر في تلك الأيام ، فكانت تعد الامتعة وما تتطلبه القافلة من الاستحضارات ، اذ كانت تستغرق هذه السفرة عدة ايام في الذهاب وعدة ايام في العودة . وكان لا بد من ان يرافق القافلة عدد من (الجندرمة) للمحافظة، هذا مع العلم ان الحلة كانت مركزا للمتصرفية التي كانت تشمل الديوانية والمعارة ثم انتقل مركز المتصرفية الى الديوانية وبقيت الحلة مركزا للقيادة العسكرية . وقد كانت اشغال والدي تتطلب انجاز مختلف المعاملات الزراعية بما في ذلك من اشتباك العلاقات بالمحيط الزراعي الريفي ، اذ كان موكلا بادارة شؤون المزارع والاشراف على كل ما يتصل بذلك من معاملات مع الـزراع والوكلاء والسراكيل والملاكين ومع رجال الحكومة . وعليه فقد نشأت والاتصال المباشر بكل ما يمت بصلة بالمزارعين من القبائل والرؤساء مستمر دون انقطاع فرسمت عاداتهم واخلاقهم وطريقة معيشتهم الفطرية في نفسي طابع الحياة العربية الاصيلة بما في ذلك المبادىء الاسلامية السامية .



التصوير رقم (٢٠) ـ بلدة الحلة كما كانت عليه سنة ١٩١٩ (انظر الفقرة ١)

٢ ـ اسعد الأيام

ها هو الوسط الذي عشته وترعرعت في احضانه بين المدينة والريف ، لقضيت فيه اسعد أيام حياة الصبا ، مترعرعا بين احضان الطبيعة ، متزملا برداء البساطة والفطرة ، محبا للانسانية ، ذلك ما جعلني احب ما احبه العرب واميل الى حيث اتجهت ميولهم ورغباتهم وامانيهم في الحياة حتى أصبحت



التصوير رقم (٢١) — والد المؤلف وكان عضوا في مجلس ادارة لواء الحلة (انظر الفقرة ١)

شغفا بركوب الخيل العربيه ، متعشقا ذات الارومة والسبوق منها(١) ، فاقتنيت اصل الافراس العربية ، فكان ذلك اعز شيء لدي في الحياة حتى قلما كان يمضي يوم الا واقضي ساعتين او ثلاثا او اكثر على ظهر فرسي بين باحات المزارع وفسحات المتارع . وكنت قد اخترت لبس اعرب بعقاله وعباءته واقتنيت البندقية (الكچوك) وما الى ذلك من ضروب الاسلحة التي يعتز بها كل عربي . وفي الاجمال لقد كنت كل اسباب لهوي حاصلة وفق رغباتي وميولي .

٢ — دراستي الابتدائية

وكان والدي يحسن اللغة الفرنسية عدا العربية (اللغة الام) فاخذ على عاتقه تعليمي القراءة والكتابة بنفسه وذلك في اللغتين العربية والفرنسية ، وكنت اكره هذه الدروس وامقتها الا اني كنت اسعى في اتقانها لارضاء والدي كي استغل رضاه واحصل على موافقته على بعض اسباب لهوي التي كانت تهواها نفسي . ولم يكتف والدي بذلك بل خصص لي معلما لتدريسي اللغة التركية بالنظر لما كان في ذلك الزمن من النفوذ لهذه اللغة في البلاد الامر الذي زاد في تذمري . وما مضى زمن طويل على ذلك حتى انشئت في الحلة مدرسة اهلية تقوم بادارة شؤونها الجمعية الاسرائيلية الفرنسية تعرف باسم (مدرسة

(١) السبوق اصطلاح عند العرب يعني الفرس التي لا تُسبق .

الاليانس . فكانت تدرس فيها الفرنسية والعبرية والتوراة لطلاب اليهود ، والفرنسية هي اللغة الاساسية للتدريس وقليل من العربية والتركية . وما كان من والدي الا ان ارسلني الى هذه المدرسة وهناك التقيت للمرة الاولى بالطلاب الاسرائيليين مع العلم انه كان عدد قليل من الطلاب المسلمين في المدرسة كان ميلهم الى مخالطتهم امرا طبيعيا . وقد افتتحت هذه المدرسة عام ١٩٠٧ وكان عدد طلابها سنة ١٩١٠ (١٧٥) طالبا .



التصوير رقم (٢٢) المؤلف بالزي العربي سنة ١٩١٩ . (انظر الفقرة ٢)



التصوير رقم (٢٣)
المؤلف في مكتبة والده
في الحلة سنة ١٩١٩
(انظر الفقرة ٢)

التصوير رقم (٢٤)
المؤلف على ظهر فرسه
المسكية ذات الأرومة
الأصيلة سنة ١٩١٦

التصوير رقم (٢٥)
المؤلف على ظهر جواده
[illegible] ٩ [illegible]
([illegible] الفقرة ٩)





٤ – النظام الاقطاعي

ولا يخفى ان النظام الاقطاعي كان سائدا حينذاك وكان الملاك او وكيله يتخذ الاجراءات التنفيذية اللازمة مباشرة من غير تدخل من الحكومة وذلك بسير الامور حسب العرف المعمول به · وعليه ان السلطة المحلية كانت تزود كبار الملاكين بافراد من شرطتها كان يطلق عليهم كلمة (جندرمة) فيصبح هؤلاء تابعين لأوامر الملاك الذي يكون مسؤولا عن اعاشتهم وتجهيز الجياد او البغال لهم · وكانت السلطة تجهز هؤلاء (الجندرمة) بالبندقية والعتاد يحملها معه عند قيامه بواجباته · وكان في المزرعة سجن خاص لسجن الخارجين عن العرف والنظام · واقول مع مزيد الاسف ان هؤلاء (الجندرمة) كانوا قساة الى اقصى حد في معاملة الفلاحين ، وكان مجرد حلول احدهم في احد بيوت الفلاحين يحدث الرعشة في قلوب افراد الاسرة لخوفهم وروعهم مما قد يقبلونه من ضيفهم الثقيل ، فيسعون لتقديم خير ما لديهم من المأكول ويغالون في ضيافته ويبذلون كل ما في وسعهم لارضائه · ولا ازال اتذكر احد هؤلاء (الجندرمة) اسمه يونس كان ملازما في المركز ينتظر الاوامر لتنفيذ ما يعهد اليه من مهام في مختلف المزارع ، وهو ضخم الجثة كانت له بغلة كبيرة شرسة لا يستطيع احد التقرب منها الا هو ·

وكانت حصة الحكومة من الحاصلات الزراعية تقدر من قبل هيئات خاصة تجول في المزارع لهذه الغاية في كل سنة بعد انتهاء موسم الزرع · وكان الملاكون يبذلون جهودهم للاتفاق مع هذه الهيئات فيما يخص تخمين كميات الغلال في البيادر فيتعهدون بتسليم حصة الحكومة منها حسب التخمين الذي يتفق عليه ، وذلك للتخلص من تدخل الحكومة او الملتزم في شؤونهم ، فيتضح من ذلك ان الحكومة لم تتدخل في اي امر من الامور التي تتعلق بالمزارعين والملاكين الا في الامور المهمة جدا وغالبا يجري ذلك بناء على طلب من الملاك نفسه ، لان طبقة الفلاحين لم يكن لهم مجال للاتصال برجال الحكومة ، وحتى شيوخهم فكان يتعذر عليهم الاتصال بالسلطات الا في الاحوال النادرة او بتوسط الملاك ·

٥ – مشروع سدة الهندية

ومن الاحداث المهمة التي عاشتها بلدة الحلة مسقط راسي في العهد العثماني انجاز مشروع سدة (ناظم) الهندية ، وهو المشروع الذي انشىء لايصال المياه الى نهر الفرات الذي تحول عن مجراه الذي يمر بمدينة الحلة ، ويحسن هنا ان نعرض نبذة عن تاريخ هذا المشروع :

كان مجرى نهر الفرات الرئيس يسير منذ القدم نحو مدينة بابل القديمة

ثم تمر بمدينة الحلة التي تقع بجوار بابل جنوبا الا ان عوامل اصطناعيـــة وطبيعية أدت الى تحول النهر من مجراه البابلي في جهة الشرق الى ما يعرف الآن بنهر الهندية في جهة الغرب مارا بطويريج فالكفل والكـوفة . وعلائـم استعداد نهر الفرات لترك مجراه البابلي الحالي والتحول الى جهة نهر الهندية الحالي قد بدأت منذ اوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، الامر الذي اضطـر اولي الامر على اتخاذ بعض التدابير لايقاف توسع نهر الهندية وتأمين وصول الماء الى فرع الحلة ، التدابير التي انتهت الى انشاء سدة الهندية الحالية في موضع مفرق صدري الفرعين (نهر بابل ونهر الهندية) كتدبير ثابت ودائـم يؤمن تموين صدر فرع الحلة بالمياه .

واهم العوامل التي كانت قد ساعدت على تحوّل مجـرى نهر الفرات في اتجاه بابل الى جهة نهر الهندية المشروع الذي قام به آصف الدولة وزير محمد شاه الهندي في اواخر القرن الثامن عشـر الميلادي لايصال المياه الى مدينة النجف ، فشق جدولا يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات من فوق مدينة بابل بحوالي مائة كيلومتر يجري في اتجاه نهر الكـوفة القديم . وقد عـرف هذا الجدول فيما بعد بنهر الهندية نسبة الى آصف الدولة الهندي . ويؤخـذ من الروايات التاريخية ان المياه بدأت تجري في هذا الجدول في اوائل القرن التاسع عشر على انه اخذ يتسع تدريجيا على حساب فرع الحـلة الذي كان يؤلف مجرى الفرات الرئيس في ذلك الوقت ، ففي سنة ١٨٣٠ اصبح من الضـروري اتخاذ بعض التدابير لايقاف توسع هذا الجدول وتوجيه قسم من ماء الفرات الى فرع الحلة الذي بدأ يقل ماؤه شيئا فشيئا . غير انه بالرغم مما اعقب ذلك من تدابير اخرى فقد استمر نهر الفرات يزداد فيضه في الجدول الجـديد تاركا مجراه القديم الذي يمر بمدينة الحلة ، وما حلت سنة ١٨٨٥م حتى كاد يجف نهر الحلة الأمر الذي ادى الى تحول كل مياه النهر الى جدول آصف الدولة (نهر الهندية) .

وقد تفاقم الخطر من ذلك الحين اذ توسع نهر الهندية بحيث اصبح مجرى الفرات الرئيس تقريبا فانقطع الماء عن مجرى بابل نهائيا فقلقت العشــائر المقيمة على نهر الحلة قلقا شديدا لهلاك مزارعهم وبساتينهم ، الامر الذي حدا بمدحت باشا (١٨٦٩–١٨٧٢م) أن يستقدم مهندسين فرنسيين لاصلاح الحالة. وقد انتهى هؤلاء من عملهم سنة ١٨٩٠ حيث أتم المهندس الفرنسي شوندرفير في تلك السنة انشاء سد محكم على صدر فرع الهندية وهو السد المعروف بسد شوندرفير . وقد استعمل ما يقارب ستة عشر الف متر مكعب من عتيق الآجر المستخرج من خرائب بابل في انشاء هذا السد ، الا ان اهمال صيانة السد ادى الى تصدعه ولم تعد المحاولات التي قامت بها الحكومة لتعمير السد وبقيت الحالة على ما هي عليه حتى استقدمت الحكومـة العثمانية السير ويليـام

وبلكوكس لدراسة مشاريع الري في القطر العراقي فوضع السير وليم تصميماً لسد جديد في تقريره المرفوع الى الحكومة العثمانية سنة ١٩١١ ووضع في المحل موضع التنفيذ وهذا هو المشروع الذي لا يزال قائماً حتى الوقت الحاضر (انظر التصوير رقم ٩) •

وقد قامت بانشاء السدة شركة السير جون جاكسون المحدودة البريطانية باشراف السير وليام ويلكوكس (انظر التصوير رقم ١٠) • وقد بوشر العمل في شهر شباط من سنة ١٩١١ وبعد مرور سنتين وتسعة اشهر تم انجاز المشروع • وقد افتتح المشروع رسمياً في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول من سنة ١٩١٣ باحتفال مهيب حضره فيه المدائح واقيمت فيه الولائم حضره والي بغداد وكبار الموظفين وقناصل الدول وغيرهم من الوجهاء والاعيان، وتبودلت الخطب بين الوالي ومدير الشركة التي قامت بالمشروع • وقد خطب في هذا الاحتفال مستر بشا رئيس مهندسي القسم الالماني من سكة حديد الحديدية •

وذكرياتي عن ويلكوكس تدفعه ترجع بي الى عهد الصبا (١٩١٢-١٩١٣) حين كان ويلكوكس منهمكاً في تنفيذ مشروع قناطر الهندية فكنت ازور دفة المشروع وهو تحت الانشاء بين حين وآخر وهو قريب من بلدة الحلة • كنت آنذاك لا اتجاوز الثانية عشرة من عمري فاشاهد ويلكوكس وكله حركة ونشاط رغم كبر سنه يراقب أعمال البناء ويحرز الآخر حريصاً على تطبيق التصاميم التي وضعها • ولا ازال اتذكر انه قضى ليلة في بيتنا في الحلة وطلب ان لا يقدم اليه اي طعام للعشاء غير كوب من اللبن المحلي •

٦ ـ افتتاح مشروع سدة الهندية

كان موعد افتتاح مشروع سدة الهندية في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٣ فكان البرد شديداً قارساً فحضرته مع ابناء بلدتي ساعة انطلاق المياه من امام السدة (القناطر) وانسيابها نحو بلدة الحلة • ولقد كان لهذا اليوم المشهود اثر عميق في نفسي وانطباع راسخ في ذهني الصغير اكباراً واعجاباً بمعجزة الفن الهندسي وعبقرية مصمم هذا المشروع العظيم الذي احيا منطقة جنوب الفرات باسرها • وان انسى فلن انسى ذلك اليوم وانا مسلط بصهوة مهرتي اسرع مع جمهرة من الفلاحين والمزارعين وهم يحدون باناشيدهم العربية الحماسية فرحين مهللين فكنا نمضي على طول طريق النهر نسابق مجرى المياه الذي كان ينساب فوق الرمال الجافة كالافعى بين منعطفات عقيق النهر حتى وصلنا واياه الى بلدة الحلة ، فاستقبلت الجماهير المحتشدة تستبشر بالبشرى السارة وهي فرحة بوصول المياه وقد غطتها رغوة بيضاء فاعادت الحياة الى هذه المنطقة الزراعية الخصبة بعد ان حرمتها يد الاقدار من عشرات

وجودها سنوات طوالا . وقد تم لي بعد مضي ٤٠ سنة على عملي في دائرة الري تحقيق رغبتي في الاطلاع على كل ما يتعلق بتاريخ هذا المشروع وتصميمه ، حيث عينت مديرا لمنطقة ري الفرات مسئولا عن ادارة شؤون مشروع قناطر الهندية ذاتها ، فالفت كتابا خاصا باللغة الانكليزية عن تاريخ سدة الهندية وتصميمها وتطورها ، وبذلك حققت امنية اصيلة بالاحاطة بما كنت اتشوق الى معرفته في مقتبل العمر عن المعجزة نفسها التي بهرتني وحيرت عقلي الصغير آنذاك(٢) .

٧ - ايام الرعب

ومضت الايام وتلتها الشهور والسنون واذا بشرارة الحرب العالمية الاولى قد امتدت الى حيث كنا نعيش في محيط الهندية ، فاعلن الجهاد بسبب دخول تركيا في معمعة الوغى الى جانب الالمان . وكان ذلك العهد المعروف بعهد (السفر برلك) عهد بؤس وشقاء لاهل المدن الكبيرة ومنها بغداد بخاصة . لان نفوذ الحكومة كان في الواقع مقتصرا على هذه المدن . اذ كان فرض تجنيده على اهالي المدن فقط . ولم يمر وقت طويل حتى ضعف نفوذ الحكومة في محيط الفرات الاوسط وامسى رجالها موضع سخريته واهانته في بعض المدن كالنجف والحلة وغيرها من مدن الجنوب . فاهم ما حدث لسيرة حياتي المدرسية ان المدرسة التي كنت اداوم فيها قد غلقت ابوابها فتركتني في خضم فراغا بلا هدف معين اسعى اليه .

وقد ابت الظروف القاسية الا ان تعكر صفاء حياتنا وتسلب ابناء هذا المحيط الهادئ هدوءه . اذ نفضت القيادة العثمانية عنها غبار الشفقة والرحمة وبعثت بجيوشها ومدافعها ونيتها نية سوء تبغي الانتقام من اهل الفرات لوقوفهم في وجه السلطة العثمانية متحدين سطوتها فكانت الحلة الفيحاء الهدف الاول . فما اقسى الانسان حين ينتقم ! . فقد جاء عاكف بك قائد الحملة متقمصا روح الغدر والفتك كالاسد الكاسر الجائع الذي يواجه فريسته . جاء هذا الوحش المفترس واخذ يسوق رجالات تلك البلدة الرعيل بعد الرعيل الى المشنقة . فشنق بصورة علنية في اليوم الاول ٢٨ شخصا من شخصيات البلدة . كما في اليوم الثاني والثالث والرابع الى مدة شهرين شنق في خلالهما مائة وسبعة وثلاثين شخصا . ويقال ما يقرب من ٥٠٠ شخص حوكموا خلال الحصار الذي فرضه على المدينة للحيلولة دون الدخول اليها او الخروج منها . ولم

---

(٢) عنوان الكتاب بالانكليزية :
The Hindiyth Barrage — Its History, Design and Function." (with 16 maps and 23 illustrations) The Government Press. Baghdad. 1945

يكشف بعضها بل تصدى الى الامراض وسمي ... واصدقاء ، شيوخ ، دون عطف ولاشفقة وبعادهم عن بيوتهم الى تركيا . وكان سري هدم المدينة بالمدافع بعد ان امر باخلائها . فخرج الألوف يتراكضون تاركين بيوتهم وامتعتهم ظناً منهم انهم بخروجهم يسلمون على حياتهم ولم يدروا ما كان ينتظرهم من نكبة المحنة من نيات مبيتة ... خرج الناس وكأنهم في يوم الحشر فكانوا يتدافعون ويتساقطون بينهم شيوخ مقعدون يحملهم أهلوهم على ظهورهم محدودبة بهم واطفال يركضون وراء آبائهم وامهاتهم وقد احدق الهلاك ، ونسوة منهم ماحصة . ونسوة محجبات ... نفوسهن الى عنان السماء ، عويل الاستغاثة وطلب رحمة ، ولكن اين الرحمة من قلوب الطغاة !! وقد اخير محتشد سهل منبسط ومحيط به سلسلة من التلول مؤلفة من بقايا حصون قديمة نصبت عليها المدافع . وما ان صدر الامر بعزل عوائل الموظفين من بين الجموع المحتشدة حتى استفاق الناس من ذهولهم وادركوا ان شبح الموت يلاحقهم وانهم على قاب قوسين او ادنى منه . لان عزل عوائل الموظفين كان اشبه بالاشارة الى نية حصد الجموع الاخرى وابادتها . وبعد أن قضينا اكثر من ست ساعات في العراء كنا نترقب في كل لحظة منها المصير الذي ينتظرنا ، وبينما كانت الجموع ملتهفة لسماع الاوامر اذيع علينا ان السلطة العليا رأفة بالأطفال وعوائلهم عدلت عن اتخاذ اي اجراء من شأنه ان يلحق الأذى بهم ، فعدنا الى منازلنا وكل منا يشعر بانه يعيش حياة جديدة ، ولم يمض زمن طويل حتى اخذت الجيوش التركية تتقهقر امام القوات الانكليزية منسحبة الى الشمال.

٨ ــ في عالم الذكريات

وقد شاءت الأقدار ان ترميني في وسط هذه الحوادث سجينا في فيحائي اذ كان يتعذر خروجي من المدينة التي حوطت كل اطرافها بالجيوش والخنادق، وما ان اقترب ميعاد رحيل القوات التركية من الحلة حتى صار يجول رجالها في شوارع المدينة للاستيلاء على كل حيوان صالح للركوب او النقل ، وقد كانت فرسي في الاصطبل مع بقية الخيول لم تكن قد غادرت جدرانه طيلة زمن هذه الحوادث . وبينما كنت غارقا في الهواجس خوفا على مصير فرسي اذ جاءني من ينبئني بانسحاب بعض القوات من خنادق احد اطراف المدينة حيث يمكن الخروج منه دون ما تعرض ، وما مضى بضع دقائق على ذلك حتى كنت ممتطيا صهوة فرسي مسرعاً في الشوارع الضيقة متجها نحو الجانب الذي تخلى عنه الجيش فمضيت منه دون ما عائق ، وما كادت الفرس تشم نسيم الفضاء حتى تفتحت خياشيمها واخذ صدرها يعلو ويهبط فمضت منطلقة كالسهم تنهب الارض نهبا ، وبعد مضي ساعة او نيف من المسير اعترضتنا جموع الأعراب على ظهور خيولهم متأهبة للطوارئ، فمررت بين هذه الجموع بعد ان

تحدثت الى بعض رؤسائها الذين كانت لي وإياهم معرفة شخصية وأنبأتهم بما كان عليه الحال في المدينة ، وما هي الا بضع دقائق حتى بعثت بعثة المهاوية التي كنت اقصدها.(٢)

اما الجيش فقد غادر الحلة في ذلك النهار وقد علمت انه استولى على خيول الاصطبل حيث كانت فرسي مثل مربوطة بها ، وكان يرافق الجيش بعض الموظفين وعدد من افراد (الجندرمة) . ولما كان الجيش متحفزا بانسحابه مستعدا للطوارىء فقد امتنع بالمرور في طريقه دون ما خسارة ذات شأن عدا وقوع بعض افراد (الجندرمة) اسرى بيد الاعراب ، وما كاد ينقضي الهزيع الاول من الليل حتى جيء بهؤلاء الاسرى وعددهم عشرون شخصا مع خيولهم واسلحتهم ، وكان هؤلاء من العرب ولم يرغبوا في الالتحاق بالجيش المنسحب .

ولما نتصور ما كان يلاقيه الفلاحون العرب من هؤلاء (الجندرمة) من الاهانة والذل ونستعرض قساوتهم ومعاملتهم التعسفية للاعراب فلا بد أن نتوقع ان ينتقم الاعراب منهم وان يقضوا على حياتهم بعد ان وقعوا بأيديهم . ولكن الشهامة العربية قد تغلبت في هذا الموقف على عواطف النقمة ، فأمر الرؤساء اتباعهم بوجوب اعتبار هؤلاء الاسرى ضيوفا لا اعداء ثم قال احدهم : « تذكروا يا ناس انهم عرب مثلنا وقد فضلوا أن يكونوا تحت حمايتنا على أن يرافقوا الجيوش التركية » . وفي الحال اخذ كل من هؤلاء (الجندرمة) مقعده في المضيف المعد للضيوف وقدم لهم الطعام حسب العادة العربية . اما الاسلحة فقد وزعت على الافراد وفق اوامر الرؤساء واتباعهم ، ولما كانت الخيول تعود ملكيتها الى افراد (الجندرمة) انفسهم وليست ملكا للحكومة فقد تقرر ان تبقى لهم مع امتعتهم الخاصة .

٩ ـ السيارات تحل محل الجمال في نقل الغلات الزراعية

وبقيت بعد ذلك بعض الزمن خارج المدينة لاضطراب الوضع اذ بقيت هذه الناحية من القطر العراقي بدون سلطة حكومية تقريبا حتى جاءها الانكليز بعد مضي مدة من الزمن على احتلال بغداد ، وما كان اهتمام الانكليز بقضيتنا الا لما احتوت عليه من ذخائر الحبوب التي كانوا باشد الحاجة اليها لتغذية جيوشهم وحيواناتهم فوضعوا اليد على الحبوب المخزونة وكسروا ابواب الاهراء عنوة . ولم تمض بضعة ايام حتى كانت اسراب سياراتهم تجوب شوارع

---

(٢) وكان في مقاطعة المهاوية عدا القلعة والمضيف بستان نموذجية واسعة تتوسطها بناية حديثة من الآجر تضم انواع الفواكه والازهار كان يشرف عليها خبراء زراعيون استقدموا من ايران فكنت اقضي اكثر ايامي في هذا المكان الذي يبعد حوالي ثلاثين كيلومترا عن بلدة الحلة .

المدينة واحدث لنقل الحبوب من خارج المدينة [illegible] وقد كان ظهور السيارات في محيطنا الريفي أول مرة [illegible] ونجمع [illegible] [illegible] في هذه الوسائط الميكانيكية الحديثة التي حلت محل الجمال في نقل الغلات [illegible] وقد كان [illegible] هذه السيارات من اليهود ورؤساؤهم من الانكليز . وقد جاء دور السوق من ذخائر حبوب القصبة التي كنت امكنت فيها كانت هذه السيارات اكثر تسلية لي [illegible] [illegible] رئيس [illegible] البريطاني في سفراتهم اليومية طيلة المدة التي استغرقتها [illegible] الغلة وبلدة الحلة مما فسح لي المجال لتعلم سياقة السيارة . و [illegible] كان [illegible] سياقة السيارة من العراقيين في ذلك الوقت ! [illegible] اول رخصة سياقة لاستيراد سيارة اهليه (من صنع فورد) من الهند وكانت [illegible] التي [illegible] عنها بعد اذن [illegible] امام العريف البريطاني في [illegible] من [illegible] الشاوي رئيس بلدية بغداد آنذاك (انظر التصوير [illegible] ٢٦) . وقد بدأت البلاد تدخل في فصل جديد هو دور التطور والانتقال الى الحضارة الحديثة فهجرت الفرس وعانقت السيارة الآلية . وان انس فلن انسى يوم [illegible] [illegible] طالب النقيب احد ابطال الحركة العربية في جنوب العراق فتبرعت سيارتي لنقل الحاشية التي رافقته من الحلة وكنت بالذات سائقها .

ومع ذلك [illegible] الانكليز [illegible] اهمية الخيول العربية الاصيلة وشهرتها [illegible] في [illegible] احتفالا عرضت فيه الخيول العربية واجريت سنة ١٩٢٠ سباق سمي سباق الفرات حضره [illegible] وكبار ضباط الجيش البريطاني . وكان لدي آنذاك فرس مسبوق من اصائل الخيول العربية شاركت في هذا السباق [illegible] بين الخيول المشاركة في هذا السباق ، وكان ان فازت فرسي باحدى الجوائز . (انظر التصاوير ٢٧و٢٨و٢٩)

١٠ ـ الاحتلال البريطاني وثورة العشرين

وكان الاحتلال البريطاني للعراق قد اثار روح التذمر وخيبة الامل في [illegible] [illegible] بعد ان نكث الانكليز بالعهد الذي قطعوه على انفسهم في [illegible] الحرب العامة الاولى ، فاندلعت نيران الثورة (ثورة العشرين المعروفة) في [illegible] [illegible] العراق . وكان قد قدر لي ان اعيش في وسط احداث الثورة العربية هذه وان ارقب ما انطوت عليه من تضحيات وبطولات ابناء الفرات في سبيل الحرية والاستقلال . فكانت اخبار النصر تعادل سرور عظيم وفرح عميق ، وكم كان سرورنا حين جيء بالاسرى الانكليز ، كنهم في سن الشباب فاحتجزوا في بلدة الكفل وعني بهم احسن عناية . وقد زاد انتصار الثورة في اضرام الحماس وانطلاق النفوس في سبيل تحقيق الاماني الوطنية .



التصوير رقم (٢٦) المؤلف في سيارته (الفورد) سنة ١٩١٩ – أول سيارة أهلية تدخل بلدة الحلة . (انظر الفقرة ٩)



التصوير رقم ٢٧ ـ منظر من مناظر سباق الخيل، نيسان ١٩٢٠، احدى الفرق الانكليزية في الحلبة، انظر الفقرة ٩)



التصوير رقم ٢٨ ـ منظر آخر من سباق الخيل (نيسان ١٩٢٠)، (انظر الفقرة ٩)



التصوير رقم (٢٩) — فرس المؤلف
الفائزة في سباق العراق
(انظر الفقرة ٦)

١١ — فترة قلقة

وقد كنت في هذه الفترة وقد ادركتني نهاية العهد الذي من حياتي اشعر بالقلق والاضطراب ؛ وهي الفترة المضطربة في حياة الانسان حيث يصبح بعد بلوغه هذه السن يفكر في مستقبله وفيما تحمله الايام له في مجرى حياته المقبلة. وكان والدي قد غادر العراق لغرض التطبب في النمسا ولم يبق طويلا حتى فارق الحياة هناك . فكان علي أن افكر في مستقبلي لوحدي . فكانت تلك الموت من اوجع ما اصابني في حياتي وأعمق ما اثر في نفسي . وكان اخي الاكبر قد ذهب الى بيروت والتحق بالجامعة الامريكية لدراسة الطب الا انه اضطر الى العودة لاسباب عائلية . وفي غمار هذه الفترة المضطربة في مجرى حياتي ساقني القدر الى صديق صدوق هو طبيب عسكري سوري الجنسية كانت بيني وبينه معرفة قوية واني مدين له بتوجيهي التوجيه الذي سرت في حياتي عليه . فسألني ذات يوم : « هل فكرت فيما تنوي سلوكه من مسلك في حياتك المقبلة ؟.. ان العلم والثقافة هما أفضل رأسمال في حياة الانسان وانصحك اليك أن توجه كل تفكيرك وتطلعاتك الى الدراسة لكي تصبح بعد ذلك طبيبا مثلي . وامامك الجامعة الامريكية في بيروت فهي خير معهد علمي تقصده وسأزودك بتوصيات الى اصدقائي في بيروت ليمدوك بكل ما تحتاجه من ارشاد وعون للدخول في الجامعة المذكورة . والجامعة الآن في بداية سنتها الدراسية الجديدة وعليك ان تتأهب للسفر بأقرب وقت للالتحاق بها ان ارتضيت بذلك » صادفت هذه النصيحة في وقت كنت بأشد الحاجة اليها فأخذت بها دون تردد . وبقي علينا ان نتحرى عن الطريق الاصلح للوصول الى بيروت . اذ لم يكن

طريق الصحراء بين بغداد وسورية مطروقاً آنذاك . فتبين لنا بعد التحقيق ان
أقصر طريق يمكن سلوكه هو طريق الصحراء الذي يسير من الموصل ودير
الزور عبر بادية الجزيرة التي بين دجلة والفرات ، ثم يواصل السير من دير
الزور الى حلب فبيروت . والطريق عبر بادية الجزيرة يمر بمراعي قبائل شمر
ولا يمكن اجتيازه الا بمعاونة رؤساء هذه القبائل فاتصلنا بالجهات المختصة
في الموصل ومن حسن الصدف اننا وجدنا هناك من يريد السفر الى بيروت
سالكاً الطريق الصحراوية ايضاً فاستأجرنا سيارة كاديلاك لنقلنا الى حلب ، وبعد
اخذ المعاملة اللازمة ودفع الاتاوة الى ممثل قبائل شمر غادرنا الموصل يوم
٥ ايلول من سنة ١٩٢٢ راكبين دليلاً من ابناء شمر متجهين نحو بادية
الجزيرة . وما ان اجتزنا ثلثي الطريق عبر الصحراء بين الموصل ودير الزور
حتى هاجمتنا عاصفة رملية هوجاء كادت تدفن سيارتنا في عصفها . فكان
لا بد من التوقف والانتظار ريثما تخمد . ولكن العاصفة استمرت طيلة الليل
ونحن مسجونون في داخل السيارة صامتين حتى هدأت بعد الفجر بقليل واذا
بنا مدفونين في داخل كثيب تعلو قمته ابواب السيارة ومقدمتها الزجاجية
وبعد محاولة استمرت اكثر من ساعتين تمكنا من فتح احد ابواب السيارة
والخروج منه الواحد بعد الآخر . واستقر الرأي ان يذهب الدليل والسائق
مشياً على الاقدام للبحث عن مسعفين لهم في انقاذنا . فمضى طول النهار واننا
نرقب الأفق البعيد لعلنا نبصر حركة انسان ما في عمق الصحراء
ولكن دون طائل . وفيما نحن في حالة يأس واذا باشباح ضعيفة تتراءى لنا
من بعيد وهي تتجه نحونا ثم بعد ان اقتربت امكن تشخيص اربعة اشخاص
على ظهور الجمال متجهين نحونا هم الدليل والسائق برفقتهما بدويان . وما
ان وصلوا الينا حتى ملأنا بطوننا من الماء الذي جلبوه معهم . ثم تركنا السيارة
في الصحراء وركبنا الجمال فوصلنا بعد مسيرة ساعتين الى قرية صغيرة من
بيوت الشعر حولها قطيع من الغنم وبعض الجمال والخيل . بتنا الليلة هناك
ثم ذهب السائق والدليل في اليوم التالي برفقتهما اربعة من البدو الى حيث
كانت تقف سيارتنا وسط الرمال . وبعد جهد كبير تمكنوا من سحب الرمال
عنها وتشغيلها فجاؤوا بها في المساء فاضطررنا الى المبيت ليلة اخرى في
القرية . ثم غادرناها في الصباح الباكر ووصلنا الى دير الزور حيث عبرنا نهر
الفرات ومنها توجهنا الى حلب فبيروت .



المصور رقم (٣٠) ـ أول محطة للقطار تؤسس في الحلة تحت ادارة موظفين من الهنود بعد الاحتلال البريطاني (انظر الفقرة ١١)



التصوير رقم (٢١) — أول محكمة مدنية تشكل في منطقة الفرات برئاسة حاكم بريطاني بعد الاحتلال البريطاني (انظر الفقرة ١١)



التصوير رقم (٢٢) أول تشكيل لجيش أهلي في الحلة برئاسة ضابط مراتب تحت اشراف مدربين انكليز وكان يعرف بجيش الشبانة ، (انظر الفقرة ١١)

الصورة رقم (٢٣) ◄
ضابطان عراقيان في جيش الشبانة (انظر الفقرة ١١)

الصورة رقم (٢٤) – اول تشكيل لجيش الشبانة من الخيالة تحت اشراف مدربين من الانكليز
(انظر الفقرة ١١)
▼





الباب الثاني

دراستي في الجامعة الامريكية في بيروت

١ ـ التحاقي بالجامعة الامريكية ببيروت

وفي بيروت راجعت الجامعة الامريكية(١) مواجهاً مشكلة تعيين الصف الذي يمكن ان التحق به . اذ كان علي قبل كل شيء ان احصل على شهادة الثانوية لتتسنى لي الدخول في الكلية . وبعد اجتياز امتحان عام تقرر في ضوئه الحاقي بالصف الاخير من صفوف الدراسة المتوسطة وذلك على سبيل التجربة على ان ينظر فيما بعد لاتخاذ القرار النهائي بعد دراسة فصل دراسي المسمية . وكان الاستاذ المكلف بمراقبة دراستي يدعى مستر آرمسترونك (امريكي) ، وكان يميل الى مساعدتي وتشجيعي اذ كان يرى بأني اكبر سناً من أقراني في الصف . كما انه كان يلمس ما كنت ابذله من جهد متواصل لاستيعاب الدروس . وبعد مرور حوالي الشهر اوصى بترحيلي الى الصف الرابع (الاول اعدادي) فالتحقت به وانهيته بنجاح في حزيران ١٩٢٣ . وكان سبب نجاحي رغبتي الشديدة في اللحاق بما فاتني من سني الشباب دون تحصيل او استعدادات علمية ، وكان الاساتذة يشعرون بذلك فأمدوني بكل وسائل التشجيع والعون . وقد قضيت صيفية تلك السنة مع الطلاب العراقيين اصحابي في رحلة . ومن النشاط الرياضي الذي مارسناه في تلك الصيفية قيامي انا والمرحوم محيي الدين يوسف برحلة الى جبال لبنان مشياً على الاقدام استغرقت حوالي الشهر . ثم التحقت بالصف المنتهي الاعدادي بعد قضاء فصل الصيف بالمراجعة والتتبع ، وتخرجت في نفس السنة (٢٧ حزيران ١٩٢٤) من قسم الاعدادية ، مما اهلني للدخول في الكلية .

---

(١) اسست هذه الجامعة باسم كلية بيروت للتعليم العالي عام ١٨٦٢ من قبل المبشرين البروتستانت وجعلوا على راسها « دانيال بليس » (Rev. Daniel Bliss)
ثم اصبحت هذه الكلية فيما بعد « الكلية السورية الانجيلية » كما صارت بعد ذلك الجامعة الامريكية ببيروت على ما هي عليه اليوم .

٢ ـ الطلاب العراقيون في الجامعة الامريكية

وفي محيط الجامعة التقيت بحوالي العراقيين من طلاب البعثة ومن ضمنهم اول بعثة عراقية وفدت الى الخارج عرفت بعد بحسب البعثة الاولى وهم وحسن الحمداني ، محمد دشتي ، يوسف زينل ، حسن فدو ، محي الدين يوسف ، حسن جواد . فكنت خير معوان لهم في ارشادهم وتوجيههم الى ولم يمض وقت طويل حتى ... في معموعتي العربية واحتلت ... في النشاطات الاجتماعية والثقافية في الجامعة . فاسست الى جمعية الطلاب العراقيين في الجامعة التي عقدت جلستها الاولى يوم الاحد المصادف ١٣ نيسان ١٩٢٤ . وفي هذا الاجتماع بحثت القضايا التي تخص الطلاب العراقيين في الجامعة تمهيدا لتسجيل الاعضاء وانتخاب الهيئة الادارية . وفي ٢١ مايس ١٩٢٤ اجتمع الطلاب العراقيون وكان عددهم ٤٦ طالبا من ضمنهم واخذت صورة مجموع امام وست هول مع رئيس الجامعة بايارد دوج (انظر التصوير رقم ٣٥) .

التصوير رقم ٣٥ ـ صورة تاريخية للطلاب العراقيين في الجامعة الامريكية في بيروت (اول بعثة عراقية وفدت الى الخارج للدراسة) مع رئيس الجامعة المستر بايارد دوج اخذت في ٢١ مايس ١٩٢٤

الجالسون على الارض من اليمين الى اليسار :

جلميران ، خضوري خضوري ، كاظم فتاح

الجالسون على الكراسي :

من اليمين : فلوير ، احمد سوسة ، رئيس الجامعة دودج ، حقي عزاوي ، انور ملكة

الصف الاول الواقفون :

مظهر فهمي ، اكرم رفعت ، ممتاز عارف ، اكرم فتحي جلميران ، تاجع الشحماني ، .... النعمة .

الصف الثاني : يعقوب وذن ، فؤاد حسو ، انور مته ، اكرم زينل ، يونس حنا ، انطوان صبري باتقو ، عبدالاحد بيثون .

الصف الثالث : محمد الدشتي ، نوري روفائيل ، داود سلمان ، فرج‌الله وردي، كمال حليل ، .... ، درويش الحيدري ، يوسف خدوري ، يحيى الباجه‌جي .

الصف الرابع : حسن جواد ، احمد النعمة ، ابراهيم السام ، صبيح الوهبي، تحسين ابراهيم ، وديع سليمان ، صموئيل بيثون ، توفيق شكوري ، جميل جمعة ، اسماعيل الجوربه‌جي

الصف الخامس : احمد دوغرامجي ، بدروسيان ، محي‌الدين يوسف ، يوسف زينل ، حنبل فدو ، فائق ...



ومن ثم عقدنا جلسة عالفيت كلمة بالمناسبة لاقت استحسان الحاضرين (نجدها القارىء في الفقرة ٢) • وتلاني خليل عدو فتكلم عن رحلته الى بغداد خلال العطلة ، وبعد المداولة في شؤون الطلاب العراقيين انفضت الجلسة • ثم عقد اجتماع يوم ١١ حزيران ١٩٢٤ تكلم فيه متي عقراوي ودع فيه اخوانه العراقيين بمناسبة تخرجه في الكلية •

وفي يوم ٢٢ تشرين الاول ١٩٢٤ عقد اجتماع لانتخاب الهيئة الادارية الاولى لسنة ١٩٢٤ ، فترأس الاجتماع فاضل الجمالي واجريت الانتخابات ففاز محيي الدين يوسف برياسة الجمعية ويوسف زينل بالسكرتارية وجميل استربادي بامانة الصندوق •

وفي بداية السنة الجديدة (سنة ١٩٢٥) عقدت الجمعية العراقية اجتماعا في ٢٩ كانون الثاني لاجراء انتخابات جديدة فانتخبت عشرين عضوا ثانويا انا بينهم عهد الينا بانتخاب الهيئة الادارية الجديدة • فاجتمعنا (نحن العشرون عضوا) في ٣١ كانون الثاني ١٩٢٥ وانتخبنا محيي الدين يوسف للرئاسة وصبيح الوصفي للسكرتارية وخالد خالت لامانة الصندوق وتحسين ابراهيم مراقبا له ، كما تم انتخاب اعضاء اللجنة الادارية وهم : شيت نعوم ومختار عارف وانا •

وفي ٥ حزيران ١٩٢٥ عقدت الجمعية العراقية وكانت جلسة انتخابات فانتخب فاضل الجمالي رئيسا للجمعية •

هذا ما سجلته في مفكرتي اليوميه عن تاسيس الجمعية العراقية في الجامعة الامريكية في خلال وجودي في الجامعة بين سنة ١٩٢٢ و١٩٢٥ • وفيما يلي نص الكلمة التي القيتها على الطلاب العراقيين في اول اجتماع لهم في الجامعة يوم ٢١ مايس ١٩٢٤ :

٢ ـ كلمتي في الجمعية العراقية يوم ٢١ مايس ١٩٢٤

اخواني :

لا استطيع ان اظهر لكم ابتهاجي بوجودي بينكم وانا في وسط اخواني في هذا المنتدى الذي عقدتنا واياه الرابطه الوطنية والاخوة العراقية ، إلا اذا كانت لي فصاحة احد اخواننا المنتمين الى الدوائر العليا (المقصود هنا صفوف الكلية) ، وان موقفي هذا لموقف رجل مرتبك اراد ان يصف البدر فلا يدري ماذا يقول فيه وهو باد للابصار ليس دونه غشاء •

يسرني جدا ايها الاخوان ان القي عليكم كلمة في هذا النهار السعيد ، اقول النهار السعيد لانا نرى انفسنا لاول مرة في الجمعية العراقية التي تملق عليها

الآمال . وما هي تلك الآمال ؟ اما لا ازيد على ان هذه الجمعية ستكون عملا كبيرا في جمع شملنا وتنبيه افكارنا الناشئة الى ما نحتاج اليه كشبان امة ناهضة يريدون أن يكتشفوا اهم ما تحتاج اليه فيبذلون غاية الجهد مكرسين الحياة لخدمة تلك الامة . يسرنا جميعا ما نسمعه عن النهضة العلمية والادبية الحديثة في قطرنا وهذا ما يبشرنا بمستقبل زاهر (زاه) ورقي سام (سام) نضاهي به سائر الأمم الراقية ، لا شك ان هذا الرجاء يتوقف على اعمالنا نحن شباب اليوم ورجال الغد على متوننا تلك الحضارة التي نتامها لوطننا المحبوب .

فهل نحن مستعدون لحمل هذه المسؤولية المهمة الضخمة ؟

لننظر الى ماضي تلك البلاد التي ترعرعنا فيها وتنشقنا هواءها وشربنا ماءها وتظللنا باديم سمائها ، ماذا نرى ؟ حضارة اضاءت دياجي الغرب وحولت جهلهم المطبق الى قريحة وقادة باكتشاف غوامض الحياة واسرارها . تذكروا ايها الاخوان ان أبناء بلاد الرافدين هم ابنائها (ابناؤها) بالامس الذين رفعوا معالم الأدب ما يفتخر به التاريخ العربي وشيدوا من الآثار ما ليس للدهر قدرة على ازالته .

ازوراء مدينة الرشيد ! يا منبعث المدنية الشرقية ويا حامل النور الساطع الى كهوف الغرب المظلمة ! ماذا دهاك ؟ فانزويت في زوايا النسيان واحتجبت عن العالم باسره حتى اصبحت كالكنز مخفيا ، وما كان سبب انحطاطها وما الذي عرقل مساعي مواطنيها بعد ان كانت بلاد الغرب ترتشف من مناهل علومها ؟ لم يكن وايم الحق سبب هذا وذاك الا عدم تمركز الاتحاد بين الافراد على اساس متين ، وقد شهدنا كيف أصبحت تلك البلاد الجميلة طعمة سائغة لأرباب القوة والطمع وهذا ما هو جار في كل قطر واجته جراثيم الجهل والتفرق فلا يلبث أن يمسي ضعيفا لا يتجرأ ان يواجه تلك اليد القوية القابضة على زمامه الا بعين المهابة والتوقير .

فلنعتبر بماضينا :

ان اختفى ما في الزمان الآتي

فقس على الماضي من الاوقات

فلنتحد لتحقيق غاية واحدة فنكون حينئذ كالدوحة العظيمة التي تقي ما تحتها من حرارة الشمس وشدة البرد فكل منا غصن من أغصانها يهتز لحركتها ، فحياة تلك الدوحة ونموها هما نفس مجموع تلك الأغصان ونموها، فلننشأ معتمدين على انفسنا متحدين لاعلاء مجد بلادنا ، ولتغرس هذه الجمعية في صدورنا حس المسؤولية امام التاريخ والعالم عن عز بلادنا كي تكون اعضاء

صالحون لتأدية هذه الخدمة وأدائها ، وهكذا يتبين منكم رجالا (رجال)
تفتخر بهم الامة ويفتخر لا مستقبل لي وجوده الا بهم ، فتحترم الواجب
والصبر والتضحية حبا في سبيل خدمة بلد لا يستحق لوطنه وقومه
[illegible] (٢) . انتهى

٢ - كلمتي في الجمعية العراقية يوم ١٩ تشرين الثاني ١٩٢٤

عقدت الجمعية العراقية في الجامعة الامريكية اجتماعا في الساعة الرابعة بعد الظهر وقد كرس هذا الاجتماع لالقاء خطب من قبل الاعضاء فالقيت فيه الكلمة التالية وقد نشرت في مجلة المصباح البغدادية في عددها لشهر كانون الاول ١٩٢٤ .

اخواني :

يسرني جدا أيها الاعزاء أن ألقي على مسامعكم كلمة انتم اخواني الطلبة وتحدثون في مثل هذا الاجتماع اول خطوب حيث يستطيع كل منا أن يعبر عما يخامر ذهنه من افكار مفيدة تبحث في حوائجه وتعوده على الاخاء والتعاضد والعمل لرقي جمعيتنا هذه .

وليست نيتي ان اتحفكم بخطبة مصقع ولا بمقالة كاتب نحرير فأستحوذ على عقولكم [illegible] ، انما أقف بينكم وقفة أخ ودود مخلص متودد لاخوانه وعشيرته بهذه كلمة وجيزة ، كلمة أعبر بها عما يخالج نفسي صريحة لا ترضي احدا ولا ترضخ لهوى بل تنظر الى مستقبل [illegible] وتضع [illegible] مستقبلا [illegible] املا محبوبة في ايام عهده .

غايتنا من هذه الجمعية كما لا يخفى عليكم جميعا هي الا لتعرف بعضنا بعضا ، ولنكون وحدة قوية قوامها ابناء وطن واحد ولنستأصل جراثيم التعصب والتفرقة التي لا يعرف الجهلاء عواقبها حيث تنمو وتكبر حتى تتسرب الى اعصاب الامة فتؤدي بالكل الى التخاصم والتباغض والتحاسد وهناك البلاء المعظم والشقاء المقيم .

---

(٢) ولا بد من الاشارة في هذا الصدد الى ان الحماس الوطني القومي كان على اشده بين الطلبة آنذاك ، فكان كل منا ينتظر بفارغ الصبر موعد التخرج من الجامعة ليتسنى له العودة الى الوطن للاضطلاع بالمسؤولية الملقاة على كل منا حسب اختصاصه . فكان هذا الشعور دافعا في نفوس الجميع باعتبارنا الدفعة الاولى التي يعتمد عليها الوطن في بناء كيانه الجديد .

اجل ايها الاخوان ان غايتنا القضاء على هــذه الجراثيم الفتاكة ؛ وذلك بواسطة اجتماعنا هذا الذي يضمنا مرة كل شهر ، يضم صغيرنا وكبيرنا ، قديمنا وحديثنا من مختلف الطوائف المذهبية والبلدان العراقية ، ولكن كيف نهلك تلك الجراثيم ايها الاخوان ؟ نهلكها بغرس بذور التساهل والتسامح في صدورنا (تينك الصفتين اللتين لا نجاح لنا بدونهما) وهنا تصبح جمعيتنا اخوانا متحدين لغاية واحدة ، متعصبين بعروبتنا الشريفة ، واذا فرقتنا المذاهب تجمعنا جامعة الوطنية ، وتؤلف بيننا رابطة القومية ، وتوحدنا تلك الراية المحبوبة ، رايتنا ذات الالوان الاربعة الجميلة .

ارحب بكم ايها الاخوان الحديثون وارجو ان تكونوا لنا عونا متيناً وساعداً عاملا في سبيل التوصل الى تلك الغاية الشريفة التي نتوخاها من جمعيتنا هذه ولنجعل نصب اعيننا صباح مساء امراً واحداً الا وهو ان الامم بافرادها فان نجح الافراد فازت بنجاحهم ، ونجاح امتنا اليوم متوقف على اعمالنا والقيام بواجباتنا نحن افرادها ، فلكم الواجبات الوطنية المقدسة التي تملأ فضاء صدور افراد الامة عزاً وشرفاً يناطحان قمم الجبال الشامخة بارتفاعهما اذا ما قاموا بها حق القيام .

اخواني ، ان البلاد التي ترعرعنا فيها ووطأت اقدامنا حصـباء تربتها ، والهواء النقي الذي استنشقنا عليل نسيمه ، والمياه العذبة مياه دجلة والفرات التي ارتشفنا عذب سلسبيلها ، والسماء الصافية التي طالما ظللتنا بوشاحها الازرق الجميل ، ان ذلك كله يا ابناء وطني الاعــزاء ليدعونا الى السعي المتواصل والنهوض ، ويلقي على عواتقنا مسؤولية وما لها من مسؤولية تحاسبنا عليها سنن الله والتاريخ والعالم .

ان بلادنا اعدتنا اجساما صحيحة وعقولا نبيهة ، وغرست في نفوسنا تلك الانفة التي خلدها اسلافنا بين احجارها وصخورها ، تلك الآثار التي تزدري بنا كلما حدقنا بها اليوم لقد حان لها ان تطالبنا بحقوقها وتسائلنا عما علينا نحوها ، فكم يكون افتخارنا عظيما واعجابنا شديداً اذا الفينا انفسنا متقلدين سيوف العلم ، متحصنين بمعاقل العرفان ، محلقين باجنحة النهوض في اوطاننا حيث نؤلف مجموعاً ناهضاً رافعاً به بناء جديداً اساسه الحق والعلم ودعامته توحيد الكلمة والرأي والغاية .

لننتبه ايها الاخوان ولنتعرف ما اتينا من اجله هذا المعهد العلمي ، ولنفحص مليا غايتنا من المكوث في ظل جدران هذه الجامعة ، فنا لم نقدم الى هنا الا لنرتوي من مناهل العلوم والآداب ـ خصوصا ومعاقلنا التي نعقد عليها عمارات اعدائنا في مستقبل ايامنا ـ ولقد غادرنا اهلنا وتركنا اوطاننا باذلين كل غال وثمين في سبيل فكرة التحصيل لنكون قادرين على النهوض بامتنا المحبوبة الى مستوى الامم الراقية .

ان نعمل ايها الاخوان بسطوتنا على آخر من احمر لنقوم بما حملنا على عواتقنا من المسؤولية ونبرهن للامم اننا قادرون على تدبير شؤون شعبنا وانا بين جامعتين ، والمحيط الذي نعيش به اليــوم قد جمع لنا بين ظهرانيه كــل ما نحتاج اليه من الوسائط والوسائل للتوصل الى ذرى الفلاح ، وذلــك اذا عرفنا كيف ننتفع منها .

مغتنمين هذه الفرصة الثمينة التي تدعونا الى الانتفاع بها ولنســع السعي الحثيث لنواصل غير مهملين تحصيلنا ونمتع انفسنا بالحــرية المطلقة ولنتخلق بافضل الاخلاق حاملين بين جنبينا سريرة نقية طاهرة نقدمها هــدية الى وطننا المحبوب فننشأ اذ ذاك – المحمدي والمسيحي والموسوي – متحدين لغاية واحدة متطرفين بقوميتنا ، مكرسين الحياة لنقيم بواجباتنا لوطنـــه . نابذين تعصب المذاهب والاديان الذي يعمي الابصار والبصائر وهكذا نكــون – مع مزيد الفخــر – عبرة للمعتبرين وقـــدوة ينسج على منوالهـا اترابنا ومواطنونا .

هـ – ثورتي على جريدة المصباح

يتضح من مسيرة ايام الصبا اني لم اكن ملماً بالتاريخ ولم افهم الا النزر اليسير من تاريخ الاديان عندما غادرت العراق قاصدا الجامعة الامريكيـــة في بيروت وذلك على الرغم من بلوغي الثانية والعشرين من العمر ، وكل ما كنت اعرفه اني ابن هذه البلدة (الحلة الفيحاء) فاحببتها واحببت وطني منـــذ الصغر . فقد طويت هذه السنين الطوال وانا لاه بين اقتناء الخيــل والبندقية والتصوير واخيراً السيارة الخ.. وكانت مخالطتي مع رفاقي وكلهم من المسلمين مندمجاً معهم في كل ما توجبه البيئة من ميول واهواء . ثم صرت احســس ان هناك فوارق في المجتمع الواحد ، فهناك مسلم ويهودي ومسيحي . فكانت هذه المسالة تستأثر بكل تفكيري وحواسي تبعث فيّ الشوق للتحصيل والتزود بما ينورني في هذه الامور الغامضة المعقدة . لماذا هذه الفوارق وكلنا عرب ابناء وطن واحد وقومية واحدة؟(٢) وقد بقيت هذه المشكلة تلازمني طوال الســنين التالية حتى انتهيت الى معرفة ما كنت اجهله حتى اصبح هـــذا الموضوع من ضمن اختصاصي العلمي .

---

(٢) يلاحظ القارىء بان جميع كتاباتي كانت تندفع بصورة تلقائية لا شعورية نحو الدعــوة الى الوحدة والتمسك بالقومية العربية حتى ناديت بها علنا في حفلة المسابقة الخطابيــة التي اقامتها الجامعة الامريكية يوم ٢١ شــباط ١٩٢٥ ، وكانت نتيجة ذلك ان اســقط اسمي من بين المتبارين لاني تطرقت الى موضوع يمس السياسة وهو محظور التطرق اليه حسب قانون الجامعة (انظر الفقرة ٦)



التصوير رقم (٣٦) ـ المؤلف يتوسط مجموعة من زملائه في الجامعة الامريكيـــة في بيروت سنة ١٩٢٥ .

وفي غمرة هذه الهواجس التي كانت تخيم على تفكيري وأنا أواصل دراستي في الجامعة الامريكية في بيروت ظهرت في بغداد جريدة اسبوعية هي عربية في الظاهر ولكنها تعنى بالشؤون اليهودية فقط تسمى جريدة المصباح الاسبوعية تصدر كل خميس صاحبها ومديرها المسؤول لصهيوني لعرقي سلمان شينه ورئيس تحريرها انور شؤول (ابن السموال) صدر عددها الاول الخميس في ١٠ نيسان ١٩٢٤ واستمرت ثلاث سنوات ثم توقفت . وقد تعرفت عـــن طريقها برئيس تحريرها انور شؤول وهو شاب اديب شاعر صارت بيني وبينه مراسلات وكان يرسل الي جريدة المصباح بانتظام . فكنت اتحسس من مطالعة هذه الجريدة بنفس الهواجس فتستوقفني علامات استفهام : مجلة عربية تظهر بالنمة العربية والوطن واحد وفي الوقت نفسه تحتضن اخبار وحوادث طائفـة معينة (الطائفة اليهودية) في حين اننا كلنا عرب في وطــن واحد . فعلى بساطتي دون ان اكون أعلم بان هناك حذورا لما يسمى بالصهيونية ، وبكل صراحة كتبت الى صاحبي رسالة بتاريخ١٦ أيلول ١٩٢٤ وكنت آنذاك مصطافا بزحلة اقتطف منها ما يخص هذا الموضوع قلت فيها :

عزيزي انور افندي المحترم

لدي ملاحظات اعرضها عليك وهي تتعلق بما لاحظته في مجلتك الغراء ، فلم ار بدأ من ان ابدي لك ما الفيته من تقصيـــر في مسلكها ، ولولا ثقتي بحرى

صداقتنا لما تجاسرت ان أعرض عليك رأيي ، وما أصدق القول (من كتم الطبيب مرضه فقد خان نفسه) ، وبهذا أصارحك بما علمته ولم يكن ابداء رأيي الا رأي صديق يريد لك ولصحيفتك كل الخير ٠

عزيزي – لو تأمل القارئ جيداً في محتوى صفحات مصباحك التي تصدر على الدوام لوجد لأول وهلة انها صحيفة يهودية ليس فيها سوى حوادث اليهود وأكثرها طفيفة لا اهمية لها في حياتنا الاجتماعية ولا يميل الى تلاوتها غير اليهودي لما حوتها من مقالات وحوادث يستشم منها التعصب لطائفة اليهودية٠٠ ليعز علي أيها الصديق العزيز ان أشير الى ضلال مسلك المصباح اذ كان عليك أن لا تقتصر بأخبارك على الطائفة اليهودية بل مشاركة مجموع أبناء الوطن بأفراحه وأتراحه ٠ ان التفرقة والتعصب يحولان دون تقدمنا ونهضتنا ٠ لذلك فعلى كل شاب مثقف ان يرعى واجباته الوطنية وان ينبذ التعصب الديني فقد خلق الانسان لوطنه لا لنفسه ٠٠ لا أدري وايم الحق ان كنت مصيباً باعتقادي هذا ولكنني لم أقصد بما كان يجول بخاطري الا حرصا على سمعة مجلتك ٠٠ اننا في عصر لا تتقدم فيه امة ولا تنهض من هوة الجهل والانحطاط الا بالاتحاد الوطني والتعاون والتفاهم ما بيننا والدين وما الدين الا رابطة بين الفرد وربه فان كان صالحاً يلاقي جزاء عمله الصالح عند ربه وان كان شريراً يعاقب على قدر منكراته وشروره ٠

وقد الحقت هذه الرسالة بمقال عن المصباح ارسلته الى انور شاؤل ولكنه لم ينشره ، هذا بعض ما جاء فيه :

لحضرة صاحب جريدة المصباح الغراء المحترم

تحية واحتراما وبعد . فقد دفعني الواجب الوطني لان اتقدم كشاب عراقي يتألم لفقدان روح الاتحاد القومي وبسبب لارتخاء عرى الأخوة العراقية في ربوع الرافدين ، راجيا نشر السطور التالية على ظهر صحيفتكم الغراء حباً بالاصلاح الاجتماعي وعملا بالحرية الفكرية ولكم مني مزيد الامتنان ٠٠

المصباح يعكس اشعة التعصب والتفرقة

بشرت صحف الزوراخبر صدور صحيفة ادبية عنوانها المصباح فاستبشر الكل بها وصار الناس ينظرون اليها كمصدر للتآخي بين الطوائف العراقية وتوطيدا لعرى الوحدة الوطنية لما للصحف من تأثير لدى الأمم في بث روح التآخي وعرى الوحدة الوطنية ٠ توالت الايام واذا بالآمال قد خابت اذ لم يمض الا أيام قلائل حتى ظهرت علائم التعصب الطائفي الذميم بين سطورها ٠

ان صاحب المصباح عراقي عربي وقد نال امتياز جريدته بصفته عراقيا بغض النظر عن الطائفة التي ينتمي اليها وقد كان الأمل والحالة هذه بان يقوم

واجبه كصحفي عراقي نحو وطنه وقوميته العربية ، ولكن من تصفح [illegible]
عدد من اعداد جريدته فانه لم يجد فيه ما يشير الى خدمة يقدمها للوطن [illegible]
هو في نظري رجل متعصب قد اهمل الواجب الوطني الملقى على عاتقه كصحفي
ان صاحب المصباح لا يعبر عن شعور الاسرائيليين في العراق كما [illegible]
البعض بل يعبر عن رأيه لان الاسرائيليين في ربوع الرافدين عراقيون [illegible]
ولن يركنوا الا تحت ظل الوحدة الوطنية العراقية . وعليه اذا ما نشر صاحب
المصباح بما ينافي الروح الوطنية والوحدة العراقية فذلك لا يدل على [illegible]
الاسرائيليين عموما بكلامه ورأيه . انا لا اريد ان اسرد الشواهد والبراهين
العديدة تأييدا لما اشرت اليه آنفا عن تعصب صاحب المصباح ، وانما اكتفي
بدليل واحد استرعى انتباهي : لقد نشرت احدى صحف الزوراء في اخبارها
المحلية خبر قدوم عدد من الطلبة العراقيين في الجامعة الامريكية ببيروت لقضاء
عطلتهم بين اهليهم فكان بين الذين درجت اسماؤهم المسلم والمسيحي والاسرائيلي
بلا تفريق بينهم لان الكل ابناء وطن واحد وهم اخوة شربوا كؤوس العلم من
منهل واحد فالبلاد تنتظر من العراقيين جميعا سواء اكانوا مسلمين ام مسيحيين
ام يهودا خدمات جلى في حياة جديدة حياة المستقبل . افهل تدرون ماذا نشر

صاحب المصباح على ظهر صحيفته ؟ فقد اختار من بين اسماء القادمين الاسرائيلي
فقط ونشر خبر قدومه . هذا دليل من ادلة كثيرة تبرهن على ضلال جريدة
المصباح وبث روح التعصب الطائفي الذميم . الرابطة الوطنية القومية اشرف
واعظم من ان يجعلها المرء ضحية تعصب ديني طائفي . اننا في عصر لا تتقدم فيه
امة ولا تنهض من هوة الجهل والانحطاط ما لم يكن رائدها الاتحاد الوطني
وسبيلها التآخي والتعاون ، ما لنا والدين يا صاحب المصباح وما الدين الا رابطة
بين الفرد وربه . عار علينا يا قوم بان نصبح كلاعبي الكرة كل يسعى جهده
بان يدهدر الكرة الى جانبه ، نحن لا نريد ان نكون في مؤخرة الامم بعد ان
كنا في مقدمتها . فلنترك التفرقة والخلاف ولنؤلف كتلة قوية نسير فيها
جميعا جنبا الى جنب تحت لواء الاتحاد والتآخي لخدمة الوطن .

ولا يسعني وقد ادركني الختام الا ان اوجه كلمتي الى من يجدر بهم ان
ينادوا بالوحدة العراقية المنشودة واعني بهم ارباب الاقلام والصحف .

اليكم يا ارباب الاقلام ترفع الامة يديها ، وعليكم تلقي الواجب بالسير
في طريق الاصلاح ، فانتم لسان الامة واسم المسؤولين بالمدافعة عن حقوقها
وانتم ساعدها الايمن الذي تعتمد عليه في نهضتها من هذا الخمول والانحطاط
فلينادي كل منكم بالوحدة العراقية فنضموا للامة من الاخاء سلما ومن التسامح
فرقانا لترتقي بهما الى قمم المجد والرقي وها اني اضيف صوتي الى اصواتكم
اعترافا باخلاصكم نحو بلادكم هاتفا : فليحيى العراق متحدا ولتحيى الوحدة
العراقية تحت ظل الاخاء والمودة .

١٥ آب ١٩٢٥

٦ - مشاركتي في مباراة انشائية خطابية في ٢١ شباط ١٩٢٥

وبعد ان لحقت بالكلية في العاصمة الامريكية انفتحت امامي أبواب امهل والفرص للمساهمة بفعاليات طلاب الكلية على مستوى عال ، ولما أعلن عن مباراة خطابية انشائية يشترك فيها طلاب الجامعة بصفوفها الاربعة ، وهي مباراة تبرع بجوائزها الامير خزعل امير المحمرة ، تقدمت بتاريخ ٩ يناير ١٩٢٥ بمقال بعنوان « الشرق وحاجته الى التجدد » ، كما تقدم أحد الطلاب العراقيين من الصفوف العليا بمقال ايضا ، فكان عدد المشاركين من طلاب الكلية (صفوفها الاربعة) كبيرا الا ان اللجنة المختصة لم تنتق الا سبع مقالات كان مقالي من بينها . وكم كان استغرابي لنجاح مقالي وانا لم اتم حتى السنة الاولى من الكلية في حين ان مقال الطالب العراقي الثاني الذي كان في الصف المنتهي من الجامعة لم يحز القبول . ولما كنت حديث العهد بدراسة اللغة العربية بالنسبة لبقية الطلاب الذين قضوا عدة سنوات في دراساتهم اللغة العربية فقد كان نجاح مقالي مشجعاً للغاية مع اني كنت في قرارة نفسي اشعر بمرارة لعدم نجاح مقال زميلي العراقي . وقد بلغني الاستاذ أنيس الخوري بنجاح مقالي وهنأني وطلب الي ان اقابله مقابلته ، ومع انه اثنى على المقال الا انه اشار الى وجوب حذف كل كلام يمت بالسياسة او الطائفية او الديانات فكان هذا التحذير محرجا لصلته الموضوع بالثلاث . وكان علي استظهار الخطاب وحفظه والاستعداد لالقائه بدون الاستعانة بالمقال المكتوب في الحفلة الكبرى التي ستقام في منتدى وست هول مساء السبت المصادف ٢١ شباط ١٩٢٥ وقد تعين أن أكون سادس الخطباء فيها . فكنت اذهب الى ساحل البحر في راس بيروت أصعد على الرابية والقي الخطاب بصوت عال وكأني امام الجمهور المحتشد في القاعة حتى حفظت الخطاب وقرأته على ظهر قلب عدة مرات . وفيما يأتي نص الخطاب الذي القيته في الموعد المعين وعنوانه « الى الامام » :

لقد كان من حظي ايها السادة أن أكون سادس المتكلمين في هذا الحفل الموقر فتذكرت الآية القرآنية الشريفة (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب) فتشاءمت من هذا التصادف ولكن لا سبيل للتخلص فلا بد من القاء كلامي ، وربما يتساءل البعض ماذا عسى ان يكون كلام ابن الرافدين وقد يشم من موضوعه رائحة ثورة !. اطمئن ايها السائل فكيف تنتظر ثورة وهناك قيد حديدي يقف حائلا دون اطلاق العنان للحوض فيما يوحيه الضمير ، فأنا الآن ذاك الحر المقيد الذي وصفه لنا وصفاً مسهباً في الحفلة الماضية المحامي حبيب افندي حلف .

سيداتي سادتي :

في سكان هذه الارض المقدسة ، مهبط الوحي ومسقط الأنبياء ، هذه البلاد التي تضم بين احشائها عظام مشيدي الحضارة التي تخذها الغربيون اساساً لمدنيتهم احصر البحث منقبا عن سر تقهقرنا داعيا الى ما فيه دعامة الرقي واساس التقدم - الا وهو التجدد والارتقاء •

انا لا اريد ان اكثر الكلام بسرد النقائص والاسباب التي ادت الى انحطاط الشرق او بالاحرى الى حالتنا الحاضرة ، وهذا امر قد ذهب فيه الناس مذاهب شتى ، انما اقول ان علينا ان نسعى بكل ما اوحته الينا العناية الالهية من حكمة ومقياس الى النهوض من سباتنا العميق وذلك لا يتسنى لنا الا بتغيير في حالتنا الحاضرة •

ان تخلف الشرق ليس الا ما خلفه احجامنا عن التقدم نحو الغرض الحقيقي واهمالنا حل مشاكل الحياة الجديدة المعقدة • نحن نقتل روح النبوغ ولا قلب يخفق في صدورنا ، وننبذ قابلية المضاهاة للامم الراقية ولا وتر يهتز في نفوسنا •

ليس من شيء في عالمنا هذا أيها السادة الا وهو عرضة للتغير ولا بد من تطوره من يوم لآخر ، وان الحياة الاجتماعية في كل رهط ومجتمع مسيرة بسنة التطور والتغير فتنتج انقلابات عظيمة في الهيئة الاجتماعية نحو التقدم والارتقاء • فها هي الانقلابات التي حدثت في العصور المنصرمة تثبت سنة التطور والتغير ، ان الامم اليوم غير ما كانت عليه في الاجيال الغابرة وستكون في المستقبل غير ما هي عليه اليوم ، فقد انقشع الضباب الكثيف الذي اخمل الادمغة المفكرة وامسى الأحياء ناهضين يشعرون بالواجب مجدين في ترقية مجتمعهم •

نظرة الى الشعب الفرنسي والى ثورته الكبرى التي نال بها الحرية الشخصية ، والى امريكا التي خضبت الدماء ارضها في سبيل استقلالها ، وانظروا الى الايطاليين الذين قاتلوا بكل ثبات ونشاط في سبيل نزع الراية النمساوية من فوق رؤوسهم ، والى سواهم من الامم التي رفعت لواء النصر والسعادة يرفرف فوق رؤوس ابنائها بالجهاد والعمل ، فالتبدل اذن سنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا •

كل هذه الانقلابات العظيمة والشرق لا يزال مكتوف الايدي جامداً ضارباً بكل ما تامر به سنة الحركة والتطور عرض الحائط ، اللهم الا امة اليابان التي حافظت على آية التقدم والنهوض ، ولا ريب في ان موقعها الجغرافي كان اكبر سبب في تقدمها دون سائر البلاد الشرقية •

ان كثيرين من ابناء الشرق لا يزالون يرددون على ألسنتهم ان الخير في التاريخ من سلف ثم يتجاهلون انهم غير متمسكين بما كان عليه أسلافهم وأجدادهم . فقد كان الأسلاف يعملون ويثابرون في السعي والتقدم آخذين من مدنيات العالم قسطاً وافراً في علمهم وعملهم فانشأوا مدنية راقية في الأدب والحروب وشيدوا مدنية عظيمة قوامها العدل والايمان . هكذا كان العرب وهكذا كانت أعمالهم . فلا بدع اذا ظل الخلف يعتز بأعمالهم الحسنة . ان الرجعيين هم أيها السادة ليسوا الا قدماء ابناء الشرق من حيث لا يشعرون فلا يزال حتى اليوم يرى في الشرق بطل الروايات شاخصاً على مسرح مجتمعه لا يرى مساعداً من المخترعات واسرعت ما تشعر به الايدي . يرى المزارع يأبى الا ان يحرث الارض بمحراثه القديم ولا يستقي الماء الا بناعورة السقي المستقى به اجداده لاعتقاده ان ذلك فيه الخير والبركة ويتشاءم من رؤية الآلات الحديدية الحديثة ويمقتها . ورئيس القبيلة يجهر امام اتباعه غزوات ابناء قومه لاعتزازه بالطابع شخصية مؤبدة . والفرد ينكر صاحبه لاختلافه في مذهبه او معتقده . وهناك فئة اخرى من الشرقيين ينظرون بكل دهشة واعجاب الى الجديد المزخرف فيبغضون القديم والواجب ويصبحون متباعدين متغطرسين بما قدمه لهم الجديد من الملذات والشهوات التي تخدر أعصابهم وتضعف ارادتهم . انا لا ادعو الى التمسك بالمدنية الحديثة على علاتها . ولكني أقول ان الحالة تدعو الى اقتباس الصالح منها الذي لا ينافي جمال وعظمة ماضينا ولا يمحو آثار الآباء من كرم ونخوة مع نبذ الطالح الذي يضر بسمعة الشرقي وشرفه .

ان الكلام ذو شجون أيها السادة واذا نظر اللبيب نظرة المتأمل الى انحطاطنا بعد ذلك المجد الاثيل باح بنوح الباكي الى مصائبها ، وان موقفي هذا ليمثل امام مخيلتي الآن ذلك البدوي الذي نزل ضيفاً في بيت متحضر ، كان وقت الطعام فقدم رب الدار أصناف المأكولات لضيفه ولشدة الحر امر له بقدح من البوصة فظنه الضيف سمناً وتناول قسماً منه ليضعه على الارز واذا به يشعر بالبرد القارص ، فتعجب ذلك البدوي كل التعجب وقال لصاحبه : « بربك كيف حصلت على هذا الجلد في هذه الايام ونحن لا نراه في بلادنا حتى في فصل الشتاء ؟ » فاجابه أنهم يستحضرونه في الآلات فيصبون الماء فيها وتصبح جليداً بعد بضع ساعات . وبعد تفكير طويل اجاب البدوي : « وربي انكم أيها الحضريون تشتغلون باشغال خالقنا فليس من العجب ان يثقل علينا المصائب والويلات . » ليس ذلك البدوي الوحيد في مثل هذا الاعتقاد بل نجد كثيرين من امثاله يقضون الحياة ولا يدركون لماذا خلقوا اذ يعتقدون ان كل ما يأتي به البشر من الغرائب خطأ وضلال لأنها اعمال الهية لا يحق لهم التدخل فيها . وهذا مثال من امثلة لا تحصى يدل على جمودنا وخمولنا واهمالنا مواهبنا البشرية . يرى الشرقي هذا وذاك من الاعمال العجيبة في

نظره فليقف مطأطئ الرأس أمام الغربي ينظر في نفسه بعين الاحتقار لا يخطر بباله أن ما استطاع أن يأتي به الغربي يستطيع غيره من الناس أن يتوصل الى نفس النتائج اذا جد ومن جد وجد .

أفلا يوافقوني الآن أيها السادة ان قلت ان دواء الشرق هو التجدد ؟ التجدد في المبادىء والافكار . التجدد في الاقتصاديات صناعية كانت أم زراعية . وبكلمة أخرى التجدد في كل شيء مع المحافظة على الارث الذي ورثناه من الآباء والاجداد .

ليس من أحد ينكر على ان للحياة الاجتماعية تأثير عظيم في مصير البلاد وتكوينها فإن كانت قائمة على أسس متينة من الثقافة والاخلاق ثبتت وتقدمت وان كان أساسها قائما على التفسخ والجهل لا تلبث ان تسقط الى حضيض الخمول والتقهقر وهنا المصاب الأليم والبلاء العظيم .

من منا اليوم ينكر ما وصل اليه التعصب في بلادنا الشرقية أجمع ؟ الأخ يمقت أخاه اذا خالفه في مذهبه والامراء يعملون حتى الاجرام اذا استفزتهم اطماعهم الشخصية فتمسنا جرائم نعرفها من حيث لا ندري وتمضي عنا ونحن جامدون . ان العصور المظلمة التي تحيط بالشرق العربي لا ترسخ في الارض وان الآمال الذهبية بالتقدم والرقي لا يتسنى تحقيقها الا بعد تركيز الوحدة القومية الرصينة القائمة على توحيد الكلمة والاخاء والتعاون المتبادل . الوحدة العربية الحرة القائمة على أسس الشعور الوطني والحس القومي قوامها أمة واحدة ولغة واحدة . هي تلك الوحدة التي تهدم سيطرة الاجنبي وتبني عليها آمالا جسيمة تحققها الاخوة العربية . هي الوحدة التي تحررنا من نير العبودية وترفرف فوقنا أجنحتها لنمر تحت كواكب يتفجر منها نور الهدى بعد أفولها أجيالا عديدة .

ما لي أرى الناس متقاعسين وكأني أسمع عظام الأمة تئن صارخة . وكأني أرى الصخور والاحجار بل الاطلال بأسرها تردد [illegible] كلما حدقنا اليها [illegible] أرى جراثيم التفرقة تفتك بالجماعات تمتص روح التشجيع وتبتر قوة النهوض وليس هناك من يشعر . فقد حان الآن يا سادتي أن ننتبه من سباتنا ونسل السيف الاسود لمقاومة تلك الجراثيم الفتاكة التي تفرق بين الاخوة والمتكاتفين وتغرس الحقد والنزاع فتمهد الفرص للاجنبي لاستغلال ضعفنا .

ان الشرق بحاجة الى التطور في الحياة الاجتماعية . فالمرأة التي هي عماد رجال الغد لا تزال في معظم الاصقاع الشرقية تقاسي من العبودية . يقول العلامة تيلور : « ان المرأة ام العالم التي تغذي وتملأ البيوت والمدارس والجمعيات حبا واعتناء بصنيعها . » فما يجدر بنا ان نمنحها الحقوق التي تجعلها عونا للرجل وشريكة حياته في السراء والضراء .

وشرفنا بحاجه الى التطور الصحي ، انظر الى الامراض المتفشية في هذه الاصقاع امة مطشنة لا تجد من يمص عليها العيش مستعل جراثيمها ويصيب هذا وذاك وتمص الدماء ولتنز سوغ الامة ، بل في كل المدن الشرقية ترى القذره بادية للعين ـ في الاسواق ، في النوادي العمومية في كل مكان ترى اهمال الاسباب الصحية ونتائجه الوخيمة .

ولنلاحظ اقتصاديات البلاد ـ وما اشد حاجتنا الى التجدد فيها ـ ما اشد حاجتنا الى ثورة صناعية تذهب باسباب التخلف نبني فيها معامل تديرها شركات وطنية يقصدها روح وطني واخلاص قومي .

ان لكل بناء اساسا يرتكز عليه العمران والركن الذي يقوم عليه التجدد في كل ما سبق ذكره لا يتسنى لنا انشاؤه الا في المدارس الوطنية التي تولد في شبابنا الاعتماد على النفس والاستقلال في العمل والتفاني في سبيل خدمة الوطن والامة . وان مشاركة المرأة في مختلف نشاطات المجتمع لأمر يدعو الى الاهتمام والعناية . اذ يقضي الواجب تهذيب الفتاة وتعليمها لكي تستطيع مشاركة الرجل في معترك الحياة . وخير الوسائل لنشر المدنية وتحقيق التقدم الحضاري يأتي عن طريق اشراك المرأة في مختلف نشاطات الحياة ، وان الامة التي تبقي نساؤها في حالة عبودية تسير بخطوات واسعة الى الانحطاط والتقهقر .

لا يموت الشعب ما دامت له

قوة الجنسين تسعى للعمل

وليس لي الآن وقد ادركني الختام الا ان ارفع صوتي عاليا مناديا « الأمام ! الى الأمام فعلى عواتقنا نحن طلاب اليوم ورجال الغد يرتكز رقي البلاد فلنسع مضحين كل غال وثمين في سبيل الاصلاح متحدين لغاية واحدة ننزل كتفا لكتف الى ميدان العمل ككتلة متراصة ترفع لواء الوحدة العربية الحرة رائدنا التجدد وسبيلنا الاتحاد . » انتهى

وما ان انتهيت من القاء خطابي حتى وقف الاستاذ انيس الخوري وطلب من المحكمين حذف اسمي من بين المتسابقين وقال انني خالفت قوانين الجامعة بالتطرق الى موضوع يمت بالسياسة . والمقصود بهذا الموضوع هو الدعوة الى الوحدة العربية كما يتضح من سياق الكلام . هذا واليك ما كتبته جريدة الاحرار البيروتية في عددها الصادر يوم ٢٤ شباط ١٩٢٥ في وصف حفلة المباراة من غير ان تشير الى حذف اسمي من بين المسابقين ، قالت :

« كانت الحفلة الخطابية التي اقامتها الدائرة العربية في الجامعة الاميركية مساء يوم السبت الماضي اجمل حفلة ادبية شهدتها بيروت منذ عهد بعيد حضرها

جمع غفير من اهل العلم والفضل والأدب واساتذة المدارس وطلبتها فافتتح الحفلة الاستاذ انيس الخوري المقدسي مرحبا بالحاضرين باسم الدائرة العربية ، ثم قال ان هناك ثلاثة امور لا بد من ذكرها واولها ان الجائزة مقدمة من صاحب العظمة الامير خزعل امير المحمرة ، والامر الثاني هو ان الخطب من صنع الطلبة الذين سيلقونها لم يساعدهم فيها احد فان كان هناك حسنات فهي لهم او سيئات فعليهم . والثالث هو الحكم سيكون على الالقاء والانشاء سواء كان الموضوع محبوبا او غير محبوب . ثم سمى المحكمين وشكرهم وهم سعادة حسين بك الاحدب حاكم بيروت الاداري وعبدالرحمن بك فليلات مفتش دوائر البوليس وجبران افندي تويني صاحب الأحرار وعزيز افندي كساب من تجار المدينة المعروفين « وصاحب البيت » الاستاذ شحادة شحادة سكرتير جمعية خريجي الجامعة .

« ثم اخذ يقدم الخطباء فكان اولهم السيد عبدالفتاح المغربي (مصري) وموضوعه « حديث ابو مباء » فالقى خطابا جميلا خلاصته عظة السلف للخلف والاستنهاض لاعادة مجد الشرق الخالد فكان لخطابه وقع جميل في النفوس وتلاه الأديب السيد جبرائيل جبور (سوري) وموضوعه اليد العاملة فوفى الموضوع حقه من جميع وجوهه واظهر ما لليد العاملة والفلاح من فضل وما في اهمالها واحتقارها من الضرر على الوطن وتطرق الى ذكر الزراعة واهميتها في اقتصاديات البلاد ورقيها .

« وتلاه السيد احمد الشراباتي (سوري) فالقى خطابا موضوعه « اطلبوا الجديد » اشار فيه الى وجوب ترك ما هو قديم بال والتمسك بالجديد ولم يدع بابا من ابواب هذا الموضوع الواسع الا ولجه مستشهدا على ان رقي الشرق لا يتم الا بطلب الجديد ونبذ القديم .

« ثم وقف الاديب السيد محمد خورشيد (سوري) فالقى خطابا موضوعه « الجراة الادبية » فحمل حملة شديدة على التملق والمجاملة اللذين منع الجراة الادبية في بلادنا وضرب لحملته الامثال بالموظفين والأدباء ورجال الصحافة والمؤلفين فلم يدع نوعا من انواع الملق والمجاملة الا واشار اليه وشجبه ولا بابا من ابواب الجراة الأدبية المفقودة الا ذكره وحبذه فكان لكلامه وقع جميل جدا في نفوس السامعين وتلاه الأديب السيد عبيد عبدالنور سوداني فالقى خطابه « الفقير الغني » وجعله على شكل حكاية ذات مغزى اخلاقي مفيد للغاية وتمت بين امير غني بماله وفقير معدم غني باخلاقه وفضائله طرب لها الحاضرون كثيرا وقد اجاد المتكلم في القائه واسماته كل اجادة .

« ثم سمع الحاضرون دورا من الموسيقى العربية المطربة ووقف بعده سادس الخطباء الاديب السيد نسيم سوسه (عراقي) وموضوعه « الى الامام » فاستهل خطابه بمقدمة فكاهية لطيفة وتناول موضوعه بمنتهى البراعة فاوفاه

حمه واجاد فيه كل الاجادة وكان ابن العراق يتكلم عن شعور واحساس ويشم حديثه عن المرارة التي يتألم منها نفسه لتأخر الشرق وابنائه فدعاهم بحججه المقنعة الى السير « الى الامام ، الى الأمام » وقد صفق له الحاضرون مرارا •

« وكان الخطيب الاخير السيدة احسان الاديبة المصرية المعروفة التي تتلقى العلم في الجامعة الاميركية وقد اختارت لنفسها موضوعا يتفق مع مبدئها وتؤيده وهو « اروض السفور » فلم يكن موقفها موقف من اقدم على المباراة طمعا في جائزة او شهرة بل موقف من اغتنم هذه الفرصة لتأييد مبدأ تراه وغاية تعمل من اجلها فحملت على اصحاب حملة جنودها بحجج والبراهين والآيات القرآنية والاحاديث المثبتة ان الاسلام لم يأمر بالحجاب وان الذين يحاربون السفور باسم الدين هم على ضلال والدين براء مما يدعون • واظهرت عجبها ودهشتها من ان اولئك الذين يقاومون السفور باسم الدين و الاخلاق يرون انتشار الخمر وهي ام الخبائث ومفتاح الشرور ويرون سوقا ينتهك فيها الشرف ويباع العفة تفتح برخص رسمية في بلاد اسلامية ، ويرون البدع والضلالات تقام باسم الدين ، ويرون غير ذلك من المحرمات فلا يحركون ساكنا ولا نرى اثرا لتلك الهمة التي تظهر في حملتهم على السفور التي لا تمسه الشريعة ولا يحرمه الدين ، ذلك الدين الذي جعلوه متكأ لهم في كل ابحاثهم ومحورا تدور حوله مناقشاتهم مع ان في دفاعهم عنه بهذا الشكل طعنا عليه وحجة للقائلين بان الاسلام علة تأخر الشرق ورميا له بالعقم والجمود وهو بعيد عنهما بعد الثريا عن الثرى •

« وقد استشهدت على نظريتها باقوال رجال الدين والفضل من قدماء ومعاصرين وكتاب واثبتت على ان الحجاب عادة قديمة ورثها المسلمون ولم يأت بها الاسلام وكانت تتكلم بحماس تلقي خطابها بلفظ صحيح واسلوب جميل وعبارة فصيحة اكسبتها استحسان السامعين على اختلاف مبادئهم فصفقوا لها كثيرا • »(٤)

« وبعد الانتهاء من سماع الخطباء اعتلى حسين بك الاحدب رئيس لجنة المحكمين منبر الخطابة فالقى كلمة اثنى فيها على الجهود التي تبذلها الجامعة في سبيل احياء لغة العرب وما تتخذه من وسائل لنشر العلم والادب كما اثنى على الخطباء ، ثم اعلن ان اللجنة أقرت بالاجماع منح الجائزة الاولى صاحبة

---

(٤) لقد دونا هذا الوصف بكامله كما جاء في جريدة الاحرار البيروتية لاعطاء القارئ فكرة عن الاتجاه الذي كان يجول في نفوس الشـباب العربي في ذلك الوقت وهو الانطلاق والتحرر من نير التخلف الموروث عن الاجيال القديمة ، فكانت الروح الوطنية طاغية في نفوس الشباب العربي بوجه عام والشباب العراقي بوجه خاص .

خطاب « أروض الحور » السيدة حسنى احمد وابنتيه لصاحب خطاب « امة العامة » السيد جبرائيل جبور وتسامه لصاحب خطاب « العبير العمي » .
ووقف بعد ذلك الاستاذ المقدسي وعين السيدة احسان احمد شرعت بالجائزة ويمثلها ايضا لتعليم احد فقراء الطلاب في الجامعة .

٧ ـ حفلة ادبية في الحله يوم ٢٢ نيسان ١٩٢٥

لقد صادف وجودي في الحلة ، مسقط راسي ، بمناسبة زيارتي للعراق لقضاء العطلة الربيعية ، ان دعيت لحضور حفلة أقامها مدير معارف الحلة يوم ٢٢ نيسان ١٩٢٥ فألقيت كلمة عن الجامعة الامريكية في بيروت ؛ التي كنت احد طلابها آنذاك . نشرت في جريدة السياسة البغدادية تباعا في عدديها ليومي ٣٠ نيسان و٢ مايس ١٩٢٥ ادرج نصها فيما يلي ، مع العلم ان هذه الكلمة القيت في وقت كانت السياسة تدور حول بريطانيا وانتدابها على فلسطين الذي اقره مجلس عصبة الامم في ١٤ تموز ١٩٢٢ وهو الذي مهد السبيل لهجرة اليهود الى فلسطين ، ولم تكن سمعة بريطانيا قد تلوثت بمقاصدها الصهيونية بعد .

حفلة ادبية في الحلة

دعا حضرة مدير معارف الحلة باسم الاميين عددا كبيرا من وجهاء الفيحاء وادبائها ومتنوريها لحضور مسامرة ادبية يقوم بها الطلاب الاميون وقد ارتاح كل من حضر المسامرة المذكورة ارتياحا عظيما لما شاهده هناك من نشاط الاميين لاقتباس انوار العلم والتهذيب وقد قام الاميون بعدة محاورات والقيت خطب تناسب المقام .

وقد تلى حضرة الاديب المتنور سليم افندي سوسة (طالب عراقي في الجامعة الامريكية في بيروت اتى لقضاء ايام العطلة) خطابا نفيسا كان له أجمل وقع في نفوس السامعين استهله بتحية وطنه وبعد عدد مزايا الحله وظهار حنينه الى ابناء بلاده ثم تصدى لذكر الجامعة الامريكية وابداء رايه فيها فرأينا ان نقتطف من ذلك ما يلي (السياسة)

ايها السادة !

قضيت ثلاث سنوت في هذه الجامعة التي يعدها البعض اعظم جامعة في شرقنا الأدنى لما اعدته من الشبان المحصنين لاوطانهم وبلادهم .

اجل ! قضيتها بين طلاب من ابناء أمم مختلفة وبين رفاق ينتمون الى طوائف مختلفة ولا انسى اخواني العراقيين فهم الاخوة الاعزاء .

قضيتها وكانى بها ثلاثة شهور لا ثلاث سنوات وذلك لا شك ناجم عن

شـديد الرغبة للعلم التي بعثها في نفس محيط هذه الجامعة .

قد نجد كثيرا من إبناء العرب يخيفهم لأول وهلة ان يحملوا احدى الجامعات الغربية ينبوع تثقيف اجيالهم لئلا تغرس في صدورهم مبادئ تنفي تراث الماضي وعزه ، مبادىء التمسك في الحديث على علاته ونبذ الصالح القديم وطالحـه على السواء ، ولكن من عرف حقيقة هذه الجامعة وتأمل مليا قبل ان يأخـذه تيار العواطف والتشاؤم وجد عكس ما تصوره ، وقد رأيتم بأم اعينكم ثمرتها وعرف من ولجها سنوات عديدة انها تبث بتلامذتها روح الوطنية الحقة ومبادىء التساهل والتسامح مع نبذ التعصب الذميم والفروق الطائفية . وهذا ما تحتاجه بلاد كبلادنا طفلة في نموها وحديثة في نهضتها ، اذ العلم لا يلبث ان يتبخـر كالبخور امام نار متقدة حينما يغادره صاحبه ، ولكن المبادىء التي يتشـبع بها الشباب والتهذيب والاخلاق التي يتخلق بها التلميذ خلال دراسته الجامعية فلا تفارقه حتى يقتطف القدر زهرة حياته .

ان هذه الجامعة تعلم ابناءها وسيما الناطقين بالضاد منهم أن يهتموا بلغتهم ويوجهوا اعتناءهم بها دون سائر العلوم فتمرنهم على الخطابة والكتابة بواسطة الجمعيات العربية العديدة والحفلات الأدبية الكثيرة التي تعقدها بين حين وآخر، هذا عدا المباريات الخطابية المستمرة لتشجيعهم على الانشاء والخطابة . ان غريزة الانسان وموهبته الطبيعية أن يقلد غيره في كل ما يراه فان عاش في محيط علمي اصبح شغفاً بالعلم وان ترعرع في بيئة يقتل الافراد فيها اوقاتهم باللهو والفراغ امسى واحدا منهم ، وان فتـح عينيه بين قوم راضخين الى العبودية والرق يشأ لا يعرف معنى الحياة ولا يدرك ماهية الحرية .

ان محيط الجامعة الامريكية محيط يبعث روحاً جديدة يتشرب بها التلميذ من اسـاتذته خلال دراسته ، هي الروح الديمقراطية الحقة المقرونة بالعمـل المستمر ، روح يتدفق فيها ينبوع الطموح للتبحر في العلوم يبحر منها مصدر الأمة العربية التي يؤثر صاحبها المنية على الرضوخ للذل والهوان .

ان الجامعـة الامريكيـة ترشـد الطـالب الى كيفية الدراسـة وتهـديه الى الطرق الاساسية التي يتوصل بها الى المعرفة والثقافة بلا مدرس ولا دليل فيعتمد الطالب على نفسه في عمله ، لا ينتظر معونة من الغير ومتى اعتمـد الشباب على نفسه اكتشف سر النجاح والتقدم ، واذا ما اعتمدت الامـة على شبان اكتشفوا سر النجاح بلغت قمم الرقي والعظمة .

ان الجامعة الامريكية جامعة غربية ولكنها ليست بالجامعة التي تقصد قتل لغة العرب كما تعرف اليه بعض الجامعات الفرنجية في الشرق ، انها ليست بالجامعة المستبدة التي تريد ان يترك تلامـذتها العرب وان يهجروا لغتهم وتراثهم بل تشجعهم على حب اوطانهم وتغرس فيهم الثقافة الحـرة والروح

الدمقراطية ، تعلمهم حقيقة الحياة الحرة والوحدة السياسية ، وهذا ما حمل الاستعمار يعدها عدوة لمصالحه ولا يخفى ان وحدة البلاد خطر على المستعمرين الذين ينفذون سموم التفرقة بين افراد الشعب . ان الجامعة الامريكية تحترم كل الأديان وتمنح الحرية المطلقة لتلامذتها ان يمارسوا طقوسهم الدينية . ونحن اليوم باشد الحاجة الى عدد من ابناء العراق قد تخرجوا من هذه الجامعة وهم يحملون هذه الصفات التحررية لاصلاح شؤوننا الدخلية اولا ، ثم يتصرفون للمحافظة على حدود بلادهم من غارات الاعداء باسلحة معارفهم وعلمهم. هذه هي الجامعة التي تحتاج الى جيش من خريجيها مدججا باسلحة المعارف الغربية متقلدا دروع تراث آبائه واجداده ليقضي بها على الشقاق والخلاف الذي نمى وترعرع في ارياف بلادنا العربية المحصنة فيمزق اوصاله اربا اربا ويعرضها على العالم ليريهم كيف ان مصدر هذه الجراثيم يرجع الى بذور اجنبية نثرت باسم الاصلاح والتهذيب .

وليس لي الآن بعد ان عرضت نبذة عن هذه الجامعة الكبيرة الا ان اتقدم بالغرض الذي سقت هذه المقدمة من اجله . يسركم يا سادتي ان تعرفوا ان الجامعة الامريكية تضم بين جدرانها حوالي المائة واربعين طالب عراقيا لا تزال تجهزهم خير تجهيز وتهذبهم أحسن تهذيب لاعدادهم رجالا مصلحين يكرسون حياتهم في خدمة البلاد ، ولكني اقول وملء قلبي الأسف انه لو اراد احدكم ان يتفقد هذا الحجم الغفير من ابناء العراق لم يجد الا فردا واحدا ينتمي الى الفيحاء ، ولعمر الله كثيرا ما كنت اقف مطاطىء الراس كلما تكلم احد اخواني عن بلدته اذ لا تلبث ان نجد زمرة من ابناء بلدته يشاركونه في الحديث ولا تسمع من حديثهم غير موضوع واحد : يجب ان نقوم بهذا وذاك بعد اياننا الى بلدنا ومما يزيد الاسف اني لم اجد الا عددا يسيرا ممن زاروا الفيحاء .

ابعثوا ابناءكم الى ينبوع العلم ومصدر التهذيب فتكونوا قد قمتم بواجبكم الملقى على عاتقكم وتكونوا قد اصبتم اجرا عظيما ، فقد قال النبي العربي الكريم (ص) « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة» .

ان ابناء الفرات هم الذين فتحوا منافذ النهضة العراقية العربية بدمائهم، هم الذين تفانوا في سبيل الوطن ، فما لي اراهم ساكتين متقاعسين عن معركة العلم ... الا يا ابناء الفرات الفوا لبعثات العلمية ليرتشف شبانكم واخوانهم من منهل واحد فيسيرون جنبا الى جنب في تحصيلهم ويذودون عن بلادهم كتفا الى كتف حاملين احدث الاسلحة العلمية وامضى الاجهزة الثقافية .

ما لي ارى الناس تتناسى تلك الدماء التي اهرقت تحت سماء الفرات ، تلك الدماء التي اهرقت في سبيل تمهيد الطرق لنا للوصول الى ضالة شهدائنا الذين ضحوا بأنفسهم في سبيلها ، وان املهم بنا ان نواصل السير ووكلوا امر النهضة السلمية القائمة على ركن العلم الينا وما كان لنا ان نخيب ثقتهم

بنا واعتمادهم علينا .

اونسينا يا سادتي ضحايا الفيحاء في سبيل الوطن الحر ، اونسينا ضحاياها الذين ارتقوا منبر الموت وذاقوا كاس المنون في سبيل الحريه . انسينا شهداء الفيحاء الذين علقت جثثهم ازاء دار الاتراك مكانت اجنحة الموز والنصر تسطر على صدورهم آية العظمة مرددة : « هكذا يكون العظماء وان الامم لا تقوم الا على عظام الابطال ، ولا يتكون الاستقلال الا على جثث الشهداء . » فهم يرون عظماء يوم الحياة واعظم من ذلك في الممات . » لا ، لا ، اننا لم ننس ولن ننسى ولقد سجلت هذه الحوادث صفحة مضيئة في تاريخ البلاد وفي تاريخ نهضتنا المباركة وسوف تخلد ذكرى اليمة في صدور احفاد الاحفاد ولكنها عظيمة تمثل لواء الحرية الحقة والتضحيه النبيلة ، وهي ذكرى تثير بركان القلوب وتدفع المتقاعس الى النهوض والخامل الى التحفز .

سادتي : انسيتم ماء الفرات العذب يوم اصبح احمر قاني ، اذ استمد لونه القرمزي من دماء الأبطال ! . انسينا نهر الفيحاء يوم ابتلع جثث الابطال حيث كانت ترمى في المئات حول المسلخ في ضوحي بلدتنا ! . اولئك الشجعان الذين ضحوا بانفسهم وهم يطالبون برفع يد الاستعباد عن رقابهم يسادون بالحرية وهي حق من الله بها على كل البشر من عباده على سطح البسيطة . فما قولكم يا سادتي بذلكم الجم الغفير الذي ذهب ضحية استقلالنا فانظروا كيف تغلب الشجعان على الجيش المدجج بطائراته ومدافعه واسلاكه الكهربائية الشائكة ومعظمهم لم يحمل غير الكوار اونسينا كيف تفانى ابناء الرافدين في سبيل قضيتنا الوطنية .

فلنطمئن ايها السادة لنطمئن لانني لم اكن في اي ريبة من ان ضحايا الفرات قد نالوا جزاءهم عند ربهم وكأني بهم الآن وهم مغتبطون في جنان النعيم وكأني بأرواحهم تردد قائلة :

هنيئا لنا بنعمة الله وهنيئا لكم بحريتكم فاقتدوا بنا وواظبوا على تحقيق آمالنا بأعدادكم جنود العلم لئلا يعد عدوكم اعمالا وضحوا في سعيكم فباركم من وراء اللا نهاية ! .

٨ ـ مشاركتي في مباراة انشائية خطابية ثانية في ٩ مايس ١٩٢٥

ولم يمض وقت طويل حتى اعلنت جمعية زهرة الآداب في الجامعة عن عزمها على اقامة مسابقة انشائية خطابية حددت موعد الاحتفال بها يوم ٩ مايس ١٩٢٥ ، فانتهزت هذه الفرصة لعلني اعوض بها عما فاتني في المسابقة الاولى فقدمت مقالا بعنوان « التضحية اساس النهضة » فانتقت اللجنة المختصة من بين المقالات المقدمة لمباراة ستة منها مقالي . اما المقالات الخمسة الناجحة

مع مقالي فهي تعود الى : أكرم زعيتر وشفيق بكار ونجيب ابو ابراهيم وايليا خلف وفؤاد العيد . وقد عقدت الحفلة في الموعد المعين (٩ مايس ١٩٢٥) فكنت ثاني الخطباء وكانت لجنة المحكمين مؤلفة من ثلاثة اعضاء برئاسة عبدالرحيم بك قليلات والمحامي ابراهيم سليم والشيخ يوسف زخريا حاكم صلح بيروت . وبعد سماع الخطباء اختلى اعضاء لجنة المحكمين بضع دقائق في غرفة خاصة أعدت لهم ثم عتلى المنبر رئيس اللجنة واعلن عن فوزي بالجائزة الاولى وفوز أكرم زعيتر وموضوعه « أنا لا أحارب من أجل عمر » بالجائزة الثانية وفوز فؤاد العيد بالجائزة الثالثة وموضوعه « المتقد والاسعاد » . وقد نشرت الصحف اللبنانية تفاصيل المباراة ، كما نشرت خطابي جريدة السياسة الراقية لصاحبها يوسف عيسى في عددها المؤرخ في ٣١ مايس ١٩٢٥ ، واليك نصه :

(الخطبة التي القاها الشاب الاديب نسيم افندي سوسه في حفلة المباراة الخطابية العامة التي اقامتها الجامعة الامريكية في بيروت ونال الجائزة الاولى)

سيداتي ، سادتي :

ما من كاتب نحرير او شاعر رفيع ، وما من عظيم من العظماء او زعيم من الزعماء ، الا وتجد آية العظمة والتقدير فيه مسربة الى ضحايا مسبوقة ومشاق مطروقة ، فإن الكاتب لا يكون كاتبا الا بعد انعكافه على الدرس والمطالعة ، مضحيا بربيع حياته متكبدا مشاكل السعي الحثيث ومصاعب العمل المستمر المتواصل ، والشاعر لا يكون شاعرا الا والتضحية شريكة حياته مفديا شرخ شبابه في استظهار المنظوم ، فبعد الجهد الجهيد والعناء الزائد يصبح ذا موهبة شعرية أهلا بالافتخار به ورفعه الى المنزلة التي يستحقها على منصة الأدب ، والعظيم لا يكون عظيما الا ونية الامة واخلاصها له قائمتان على زهده بنفسه وبذله الغالي والثمين في سبيل خدمة شعبه فيستحثه القوم ويخضع لآرائه ومبادئه رافعا اياه الى ما يستحقه من التقدير والتعظيم .

التضحية حركة تثور في بركان القلب البشري فتولد عواطف الحنو والشفقة في صدور البشر ، هي الواجب الذي يشعر به الانسان فيحمل المثري على مؤازرة الفقير ، والقوي على مد يد المعونة الى المنهوك ، والقدير على السعي لترقية امة ينتمي اليها او وطن يستظل تحت وشاح سمائه الازرق الجميل . التضحية ويا لها من كلمة تهتز لها اوتار القلوب وتنزل على جوارح الأفئدة فتنعشها ، هي الميزة التي اتصف بها الحيوان اطلاقا الا ان الناطق من هذا الجنس احدها تهذيبا . هي العامل الحيوي الذي يجعل الوالد يضحي

بكل ما يقسيه في سبيل امحاله لسمد اجسادهم الفداء من عرق الحين وتمص موة المزامقه والسوع من الدم الاحمر القاني ، ويحمل اشاب يدى كل عـال وتميى في سبيل برقية وطنه وامه حتى اذا ما شعرا بالواجب معذبان بحياتهما عندما يخيرهما الموقف الرهيب بين التضحية بروحيهما ، وبين ان يشاهـد الاول امحاله والآخر امته يسلمون الارواح الى الامر العظيم ٠

فتاة في مقتبل عمرها كالزهرة اليانعة تضحي شبابها النضر غير هيابـة ولا وجلة تقتحم المنية باقدام ثابتة في سبيل انقاذ وطنها ، تلكم الفتاة ربيبة الريف منقذة اورليان هي ابنة فرنسا جان دارك التي تقلدت الحسام ممتطية جوادها تعبر باسطة صدرها الى بطش العدو مكان الجيش يتبعها حاقـداً اذ انها قد حطته من كرامة الرجال الاشداء وهي شابة وصف جسمها بالصمت والنحول !٠ انظروا يا سادتي كيف ستمتت ابنة الريف المصطبه حيث كـان السجور مهيئا والنار متقدة لتبتلعها ، انظـروا كيف القت بنفسها ترحب بالموت كما يرحب الأعرابي بضيفه وهي تحسب انها طائرة الى السـماء حيث جنة النعيم تفتح لها ابوابها ، ماتت وكلمتها الاخيرة تخاطب بها ابناء روان ٠٠ ايه ابناء روان يحيمي ان تقاسوا اهوالا بعد موتي ٠٠ وفتى في ربيع حياتـه كالأم الحزونة على طفلها يضحي بشباب يافع للذود عن وطنه ، يسـير الى المشنقة بسرعة الطير وروح الشجاعة والبسالة تتجسم فيه لا تفارق خطواته ، ذلكم الفتى النبيل القصد الرفيع المقام هو ابن صيدا شهيد الوطن الذي اعدم مع جم غفير من ابناء العرب لا ذنب لهم سوى ما اظهروه من الـروح السامي والمبادىء الشريفة التي يتجلى فيها رمز الوطنية الحقة بأجلى مظاهرهـا ، اتعرفون ما فاه به وهو يشاهد احد عشر شهيدا أصبحوا جثثا تهتز في الهواء بغير حياة ، اتدرون ما كان يقول وكاس الموت على شفتيه ، فانه خاطب تلك الأرواح العزيزة الكبيرة وخاطب آلة الاعدام قائلا : « مرحباً بارجوحة الشرف، مرحباً بارجوحة الابطال ، مرحباً بالعمـد التي تستند اليها الشـعوب في استقلالها ، مرحباً بالموت في سبيل الوطن الحر » ثم عقبه ابن بيروت الى المشنقة وهو يخاطب الناس بصوت جهوري : « بلغوا جمال باشا ان الملتقى قريب وان الدول لا تبنى على غير الجماجم وأن جماجمنا ستكون أسـاساً لاستقلال بلادنا ٠ »

هذه هي الوطنية الحقة التي يجب ان يحـرزها شباب العرب وهكـذا فالتضحية الحقة والاخوة الصـادقة تستطيع أن تحصد سنابل الشقاق والخلاف التي نبت وترعرعت في ارياف بـلادنا المخصبة فمزقتها اربآ اربآ لتعرضها على العالم وتريهم كيف ان مصدر هذه الجراثيم يرجع الى بذور اجنبية نثرت باسم الاصلاح والتهذيب والا فما لنا سوى ان ننادي متألمين : « سـلام على الشرق وعلى ابنائه ٠ »

انظروا الى عالم الأحياء تشاهدوا ان الرجل الذي لا يهمه من الحياة غير احتجان المال ولا يفكر الا بارضاء لذته الذاتية والذي لا يجعل التضحية نصب أعينه شريكة اعماله لا بد من سقوطه الى حضيض الذل والهوان مهانا محتقرا ، افحصوا التاريخ والتاريخ عليم خبير ومعلم صادق تروا ان القائد الفرنسي (بولانجير) خارت عزيمته وذابت قوته تحت لهيب الجبن فخرق شماخ الخوف جبروته ومات بعيدا عن وطنه منتحرا بكلتا يديه لا يجد من يذرف دمعة واحدة على ضريحه ، ذلك القائد الكبير الذي طار صيته في انحاء البلاد ابان الثورة الفرنسية الثالثة فاستظل تحت جناحه عدد وافر من الجند وعاضده جم غفير من ذوي الباس حتى كاد ابناء فرنسا يعقدون عليه آمالا كبيرة • أراد ان ينال ما ناله نابوليون من المجد دون مجازفة بحياة او مخاطرة بسلامة ، ولكن هيهات ان يخضع له الحظ بدون التضحية التي تعلم المرء آية البسالة والشجاعة في مواقفه الحرجة ، اراد ان ينال ما لا ينال الا تحت اجنحة المنون فذهبت مساعيه ادراج الرياح ، وكما في الناس كذلك في الأمم فويل للامة التي لا يعرف ابناؤها معنى للتضحية •

انا معشر الشرقيين يا سادتي لا نعرف ماهية التضحية الا قليلا واذا عرفنا اسأنا استعمالها فنضحي بانفسنا نقتل انفسنا ، نضحي ونقول في سبيل دين ننتمي له والدين أعظم واشرف من ان يامر بتلك التضحية • نضحي ونقول خدمة للانسانية والانسانية بريئة منها ، ماذا تعد ذلك النجدي المدجج باسلحته النارية لا يشفي غليله الا برؤية دم الحجازي يسيل على كثب منه فيقف ناقما يشتفي بمشاهدة القتيل يتمرغ في التراب ، اتعد ذلك تضحية ؟• فكيف نروم استقلالا أيها السادة وهناك يضحي ابناء العرب بانفسهم لقتل ابناء جنسهم فيمهدون السبل للاجنبي للاستعادة من نحولنا وتفتح له يد الشقاء الابواب على مصراعيها ، وكيف نروم استقلالا وهناك الاغنياء يبذلون الثمين في التفنن في فساد المعيشة بدل بذله في الهبات الطائلة لمدارس والمشاريع الخيرية ومساعدة المنكوبين ، وكيف نروم استقلالا وهناك عرب يبرأ ون من عروبتهم يضحي الشبان أيامهم في اتقان العلوم بلغة اجنبية ولا يعرفون شيئا من تاريخ مجدهم الغابر ولا يحسنون اللغة التي تكلم بها آباؤهم واجدادهم ، وكيف نروم الاستقلال وهناك ذوو المقدرة المطرية والاكتسابية الذين باعمالهم منوطة ترقية البلاد يضحون في سبيل غايات شخصية حرصا على مناصبهم ومراكزهم •

ما لي ارى الناس متقاعسين وكاني اسمع عظام الآباء تئن صارخة وكاني ارى الصخور والاحجار بل الاطلال باسرها تزدري بنا كلما حدقنا اليها ! أجل ليسرنا ما نشاهده من آيات التقدم في مصر ونفتخر بنهضة بلاد الرافدين الحديثة التي يتجسم فيها رمز التضحية ومثال الواجب الوطني ، ولكن كم يكون افتخارنا

أعظم وسرورنا أشد اذا تمنى لنا أن نشاهد شرقا عربيا ناهضا مستظلا تحت جناح محبة الاخاء ومتعاضده الافراد على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم يستنشق هواء الحرية تربطه الرابطة القومية وتوحده لغة واحدة . لغة التي شهد بها الملا بسموها ورقتها ، اللغة التي :

العاظها درر أقوالها غـرر
آياتها سـور في كـل قرآن

فاسمحوا لي أيها السادة قبل أن اختم كلمتي أن أوجه الحديث لمن يجدر بهم بل لمن هم أهل لأن يغرسوا بذور التضحية الحقة في صدور الشبيبة . اليكم أيها الآباء ، أساتذة مدرسة الانسانية ومعلمو الجمعية البشرية . اليكم أنتم المسئولين أمام الله والتاريخ والعالم عن تربية شبان الغد أرفع شكواي واليكم أوجه كلمتي .

علموا البنين على التضحية لتالفهم اطفالا وترافقهم صغارا فتنمو مع نمو الجسد تحالفهم رجالا وتشاركهم كبارا . على عاتقكم أيها الآباء يرتكز رفع ستار الجهل ، علموا البنين على حب أوطانهم واشعروهم بذلك الروح السامي وبتلك الحلة الشريفة التي لا عز بدونها ولا استقلال بسواها ــ التضحية ــ أشروهم المبادئ السامية ليعرفوا أن لا حياة شريفة بدون التضحية وبها خلقت لتعرفها العاطفة من الحيوانات التي ميزة الخلق بها فاذا ما أهملها قضى حياة ذليلة بعيدا عن الرفعة والثرى من الفضيلة والعز ، وأي تربية أشد تأثيرا على المرء بل وأي خلق أمتن تمكنا من الرجل من التربية التي تولى رضعها والد طفله الصغير ومن الاخلاق التي يغرسها الأب في صدر نجله . ذلك الطفل وهو لا يزال في مهد طفولته غض الجسد لين العريكة سهل الانقياد فتسير المبادئ في أعصابه اللينة واذا ما بلغ سن المراهقة أصبحت متمكنة من جسده وجزءا منه لا تفارقه ما دام قلبه يخفق ودمه يجري في عروقه :

ان الغصون اذا قومتها اعتدلـت
ولا تلين اذا كانت من الخشـب

لنغرس في صدورنا بذرة التضحية ولنتخرج حتى اذا ما خرجنا الى العالم الأكبر سقيناها من معين الاحساس فتحلي ونكشف بظهورها المجـد العربي الكامن وروح القومية العاثر ، ولنمثل أمام انصارنا زعماء تضحية أمثال الذين وحدوا مصر الكبرى وأمثال الذين أسسوا ركن العراق بأجسامهم وغيرهم من الذين قدموا حياتهم في سبيل رقي أممهم فنبشر حينذاك أخوة مخلصين مصر للعدل ونقوم بالتضحية ولو بالحياة التي تملأ صدورنا آمالا فنسعى لارجاع كل حقوق مغصوبة واسعاد كل انسانة مضطهدة خانعين الحق نبراسنا والتضحية هدفنا .   انتهى

٩ ـ بعض الوقائع والاحداث في الجامعة الامريكية ١٩٢٢ـ١٩٢٥

وفيما يلي بعض الوقائع والاحداث في الجامعة الامريكية ببيروت بصورة عامة مقتبسة من مفكرتي اليومية وذلك في خلال السنوات الدراسية الثلاث التي قضيتها فيها وهي :

سنة ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ | في الاعدادية
سنة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ |
سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ . في الكلية (السنة الاولى)

الثلاثاء ٨ كانون الثاني ١٩٢٤

حضر اليوم الى بيروت الاستاذ كاظم الدجيلي وهو في طريقه الى لندن بمناسبة تعيينه استاذا للغة العربية في جامعة لندن وهو يعد في الاربعين من العمر وله ذقن صغير . زار جمعيتنا واجتمعنا به مع اكثر الطلبة العراقيين في غرفة فاضل الجمالي حيث مكث حوالي النصف ساعة .

الاربعاء ١٦ كانون الثاني ١٩٢٤

زار الجنرال ويغان المندوب السامي الفرنسي الجامعة وكان في استقباله رئيس الجامعة دودج والاساتذة بردائهم العلمي كما جمع الطلاب لاستقباله . وعند حضوره القى كلمة موجزة عبر فيها عن سروره لزيارته جامعتنا ثم ذهب برفقة الرئيس دودج الى وست هول حيث تناول الشاي معه .

الاحد ١٧ شباط ١٩٢٤

بلغنا ان نوري السعيد وزير الحربية العراقية وصل الى بيروت فاستحصلنا انا وعدد من الطلاب العراقيين الاذن بالخروج من الجامعة لمقابلته . وبينما نحن في طريقنا اليه صادفنا ان شاهدناه وهو متوجه الى الجامعة ، فعدنا مسرعين الى الجامعة فوجدناه قد قصد دار الاستاذ هول لتناول الشاي عنده . فبقينا ننتظره حتى خرج فاجتمعنا به في غرفة الجمعية العراقية وحضر اكثر الطلاب العراقيين فالقى علينا كلمة حثنا فيها على الاهتمام بدروسنا وبالرياضة البدنية .

الاحد ١٣ نيسان ١٩٢٤

اجتمع اليوم الطلاب العراقيون في الجامعة في ويست هول بقصد تأسيس جمعية للطلاب العراقيين في الجامعة فانتخبت لجنة مؤقتة ترعى شؤونهم . وبحثت في هذا الاجتماع مسألة تأسيس جمعية للطلاب العراقيين وتقرر ايجاد صندوق للطلاب . وقبل الانصراف وزعت اوراق على الحاضرين وطلب الى كل منهم ان يدون اسمه وعنوانه والصف الذي ينتمي اليه .

السبت ١٧ مايس ١٩٢٤

اقيمت في الساعة الثامنة والنصف مساءا حفلة خطابية عينت أجرة الدخول اليها نصف ليرة سورية فذهبت مع الاخوان العراقيين • اما الخطباء ، فثلاثة هم : امين الريحاني (واسحاق) النشاشيبي اديب فلسطين وخليل بك مطران • وعند رأس الحفل الاستاذ جبر ضومط وحضره الرئيس دوج وجلس بين الخطباء في الوسط • وكان خطاب الريحاني رائعا ، اما خليل بك مطران فالقى قصيدة ثلاثمائة بيت من الشعر وقد طبعها مسبقا ووزعها على الحاضرين في نهاية الحفلة •

الثلاثاء ١٧ حزيران ١٩٢٤

القيت صباح اليوم في اجتماع الطلاب العام (Assembly) كلمة باللغة الانكليزية بالنيابة عن طلاب الصف الثانوي الاخير (الخامس) اودع فيها الاساتذة والطلاب بمناسبة اكمالنا الدراسة الثانوية والقى طوقان قصيدة بالمناسبة كما القى عمر فروخ قصيدة اخرى يودع فيها الاساتذة والطلاب •

الجمعة ٢٧ حزيران ١٩٢٤

اقيمت اليوم في الساعة الثامنة مساءا في المنتدى الكبير (Chapel) حفلة توزيع الشهادات على متخرجي الثانوية وكنت احدهم ، فتكلم عن الطلاب صبحي محمصاني باللغة الانكليزية وكوستي زريق باللغة الفرنسية وعمر فروخ باللغة العربية •

السبت ١٣ كانون الاول ١٩٢٤

اقامت مساء اليوم جمعية زهرة الآداب حفلة مثلت فيها رواية « دوق بورغانديا » كنت احد المساهمين في التمثيل •

الجمعة ٢ كانون الثاني ١٩٢٥

وصل اليوم الى بيروت الجنرال سراي من باريس على ظهر الباخرة « لوتس » فمنحت الجامعة عطلة الى جميع الطلاب لاستقباله •

الاثنين ١٢ كانون الثاني ١٩٢٥

قامت اليوم في بيروت مظاهرات امام السراي وقد احتشد الناس وهم يعلنون عن عدم ثقتهم بالمجلس النيابي الذي اخذ على عاتقه انتخاب حاكم وطني للبنان الكبير وذلك حسب الوعد الذي قطعه المندوب السامي الجديد لسورية • ذهبت مع يوسف زينل لمشاهدة المظاهرات واذا بجمهرة من الناس محتشدة امام باب السراي وكان يخطب بهم رجل قصير القامة والكل يهتفون (بيسقط

المجلس النيابي) • وفي هذه الأثناء قدمت ثلة من الجنود ممتطين خيولهم وشاهرين سيوفهم فأخذوا يفرقون الناس ولكن الناس لم يعبأوا بهم واستمروا في هتافاتهم • وكان اعضاء المجلس النيابي مصطفين على الشرفة • وكلما اراد احدهم ان يلقي كلمة على الجمهور المحتشد لاقناعهم واسكاتهم لم يجد من يصغي اليه حتى نهض خطيب من بين الجمهور ووجه كلامه الى اعضاء المجلس النيابي قائلا : « انتم لستم اعلى من طبقة الشعب فمن اراد ان يلقي علينا كلمة فما عليه الا ان ينزل من الشرفة ويقف بيننا لا فوق رؤوسنا » فهتف له الجمهور واضطر احد اعضاء المجلس الى ان ينزل من الشرفة فحمله الناس على اكتافهم وتكلم محاولا اقناع الجمهور بما يرضيهم ولكنهم لم يعبأوا به واخذوا يستمرون بهتافاتهم ، ثم اخذ الجنود يفرقون الناس وعدنا الى الجامعة •

الاثنين ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٥

عقدت جمعية العروة الوثقى بعد ظهر اليوم جلستها الانتخابية فانتخب فريد زين‌الدين رئيسا لها ويوسف ربنل نائبا للرئيس ومحيي‌الدين يوسف امين سر الجمعية واسكندر حريق امينا للصندوق وقد سحب محمد دشتي نفسه من الترشيح •

الاثنين ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٥

وردني اليوم كتاب من الاخ فاضل الجمالي بعث لي فيه بعض الابيات من الشعر من نظمه يصف فيها الطبيعة في حمانة •

الاربعاء ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٥

قام اليوم طلاب الصف الثاني‌والعلمي بالكلية بمظاهرة احتجاجا على قرار الجامعة باستثناء طلاب الصف الثاني من امتياز الاكل خارج الجامعة • فتزعم هذه المظاهرة فريد زين‌الدين وحبيكاتي فوقف الاول بين المتظاهرين خطيبا ثم تلاه حبيكاتي وكانا يتكلمان باللغة الانكليزية • وقد قوبل كلامهما بالتصفيق الحاد ، ثم تقرر تعيين اربعة اشخاص من الطلاب لمراجعة العمدة بهذا الخصوص •

الخميس ٢٩ كانون الثاني ١٩٢٥

عقدت الجمعية العراقية جلسة انتخب فيها عشرون عضوا ثانويون عهد اليهم انتخاب الرئيس واعضاء اللجنة الادارية وكنت احد هؤلاء الاعضاء الثانويين • وقد قرر في هذه الجلسة تخصيص مبلغ من صندوق الجمعية لاقامة مسابقة خطابية بين طلبة الصفوف الاعدادية من العراقيين • وقد القى ممتاز عارف كلمة في هذا الاجتماع ندد بالذين يدعون بالوطنية وهم ليسوا منها •

وكان السبب الذي حمل معمار عارف على ذلك انه تشكل حزبان بين طـلاب القسم الاعدادي وهما حزب محمد دشتي وحزب محيي الدين يوسف وكان كلام معمار عارف موجه الى جماعة حزب محمد دشتي . ثم تلاه حكمت امين فالقى قصيدة تلقاها من احد اصدقائه في بغداد وانصرفت الجلسه .

الخميس ١٩ شباط ١٩٢٥

اقامت جمعية زهرة الآداب حفله في منتدى وست هول كان المتكلمون فيها كل من السادة نجيب خلف والانسه الاميرة نجبه بنت اللمع . وفي الفترات بين الخطباء عزفت آنسة من اقارب بنت اللمع على البيانو ، وكذلك عزفت انا على العود مع كمان الخطيب الذي عزف على اساس مصفق لنا الحاضرون وطلبوا منا اعادة العزف فلبينا طلبهم . ثم قام المحامي نجيب خلف وتلا بيتا من الشعر يثني فيه على عزفنا فانس به الجميع .

السبت ٢١ شباط ١٩٢٥ .

كان مساء اليوم موعد حفلة المسابقة الخطابيه التي اقامتها الجامعـه والتي تبرع الامير خزعل امير المحمرة بجوائزها وكنت احد الخطبـاء المبارين الذين اشتركوا في هذه المسابقة.(٥)

الاثنين ٢٣ شباط ١٩٢٥

عقدت جمعية العروة الوثقى جلستها الاولى للفصـــل الثاني من السـنة المدرسية وقد دعي الدكتور محجوب المرافق سعد زغلول في مصر فالقى محاضرة استمرت حوالي ساعتين فكان يأتي بنكات لطيفه بين آونة واخرى لازالة الملل، وهو خطيب مصقع كان كل كلامه ارتجاليا بدون تاهب له .

الثلاثاء ٢٤ شباط ١٩٢٥

نشرت صباح اليوم جريدة الاحرار البيروتية تفاصيل الحفلة التي اقامتها الجامعة نهار السبت الموافق ٢١ شباط ١٩٢٥ لاجراء المسابقة الخطابيه الكبرى بين طـلاب الكلية وقد قدم جوائزها الامير خزعل امير المحمرة . وكنـت احد المشاركين الناجحين في هذه المسابقة.(٦)

الخميس ٩ نيسان ١٩٢٥

غادرنا بيروت صباح اليوم انا ودرويش الحيدري ويحيى اباجهجي قاصدين دمشق في طريقنا الى بغداد لقضاء بضعة ايام فيها بمناسبة العطلة الربيعية ،

---

(٥) انظر التفاصيل عن هذه المباراة في الفقرة (٦)

(٦) انظر التفاصيل عن هذه المسابقة في الفقرة (٦) م

ومن ان دخلنا دمشق حتى رأينا الاهلين متجمعين حول مقر الحكومة متظاهرين في الازقة والاسواق وقد اضربوا عن العمل وقد عطلت الدكاكين عموما احتجاجا على قدوم بلفور الى دمشق فجرح افراد الشرطة ثلاثة من الاهلين لان الاهلين اخذوا يضربون افراد الشرطة بالحجارة مما اضطر افراد الشرطة ان يطلقوا الرصاص واستمر اطلاق الرصاص حوالي الساعة .

بغداد الاثنين ١٣ نيسان ١٩٢٥

ذهبنا صباح اليوم انا ويوسف زينل واكرم زينل وحقي الطبقجلي الى جامعة آل البيت في المعظم بمناسبة زيارتنا بغداد في العطلة وتفقدنا صفوفها وزرنا البناء الاول الذي تم انشاؤه مؤخرا وهو يتألف من شعبتين فقط شعبة علم الدين وفيها عشرون طالبا في عمائمهم وهم يشغلون الطابق الاسفل . اما الطابق الاعلى فيشغله طلاب الهندسة وعددهم ستون طالبا فاخذنا مدير دائرة الهندسة ودار معنا في كل الصفوف وارانا اعمال الطلبة والمختبرات الخاصة بالطبيعيات والميكانيك وقد اعلمنا ان مجموع ما انفق على بناء هذه البناية ٦٦٥ الف روبية . وقد شاهدنا اساسا لبناء حديث تتجه الانظار الى تشييد مرصد فلكي وشعبة للزراعة فيه .

بغداد الجمعة ١٧ نيسان ١٩٢٥

زرنا انا واكرم زينل اليوم بعد الظهر نادي حزب النهضة فقدم لنا الكاتب بطاقتين لدعوة حضور الحفلة التأبينية التي ستقام نهار الاحد للشيخ مهدي الخالصي .

بغداد السبت ١٨ نيسان ١٩٢٥

ذهبت مساء اليوم انا ويحيى الباجه جي الى دار حزب النهضة[7] حيث اقيمت حفلة تأبينية للامام الخالصي فحضرها كبار القوم وكانت حفلة شائقة القى الزهاوي فيها قصيدة مؤثرة كما القى السيد مهدي القزويني والعصمان خطبتين ارتجاليتين بليغتين .

وهنا نص قصيدة الزهاوي قال :

فجعتنا حوادث الايام ... بابي الشعب حجة الاسلام
يعجب الاسلام بالمصلح الاكـ ... ـبر بالحبر بالعميد الهمام
بعد ان فاض يملأ الارض خصبا ... غاض بحرا للرزية طامي

(٧) تأسس حزب النهضة في شهر آب ١٩٢٢ اثر صدور قانون اجازة تأسيس الاحزاب في ٢٥ حزيران ١٩٢٢ وكان هذا الحزب من المعارضين للحكومة .

وهوى من علوه في دوي ... علم شامخ من الاعلام

كان فردا ورب فرد عظيم ... هو قوم وليس كالاقوام

وحد الشعب في العراق جميعا ... بعد خلف فيه وبعد انقسام

قد وجدنا شهر الصيام كئيبا ... لنعي اتى بشهر الصيام

لا تلمني اذا بكيت من الحز ... ن فاني امام خطب جسام

انتظرنا منك الرجوع ولكن ... حال دون الرجوع عنو الحمام

انما الناس من رفاتك في يا ... س عظيم ومنه في آلام

ـ اضاعوا شيخا لهم اي شيخ ... واماما في الشرع اي امام

تغلي القمقام يصبح رهوا ... بعد ريح هبت على القمقام

انت ذاك الميت الذي ليس يبلى ... ذكره من تعاقب الايام

كلما مرت العصور تباعا ... ذكرته العصور بالاعظام

قد ملئت الخصام في هذه فاخ ... ترت دارا ما ان بها من خصام

ايها الشيخ قد ذهبت كئيبا ... ايها الشيخ فاذهبن بسلام

دميت بعدك الجروح فمن ذا ... لجروح مل‌ء القلوب دوامي

وطن القوم بعد فقدك روض ... ليس فيه الربيع بالبسام

انت يا حافر الضريح افدني ... اي غمد اعددت للصمصام

ايها النعش كيف ترضى نزولا ... في حفير وانت كالطود سامي

اذرفي يا عيون دمعا الم تدخريه ... للحادثات الجسام

ايها الموت قد اخذت أبا الشعب فمن ذا تركت للايتام ؟

● ■ ●

حكمت بالشقاء فينا الليالي ... والليالي شقيقة الأيام

تتوالى على البرايا والرزايا ... كسهام يصبن اثر سهام

كثر الواردون حوض المنايا ... انه منهل كثير الزحام

واذا لم يسر الى الناس هذا ... الموت ساروا اليه بالاقدام

لم اشاهد كالموت رزءا عميما ... فيه غير الانام مثل الانام

ترى اننا من السيل ننجو ... ان لجأنا منه الى الآكام

خطف الموت الناس من كل جيل ... مثل ذئب يعيث في الاغنام

« واذا لم يكن من الموت بد » ... فلنقابل عبوسه بابتسام

ليست الدنيا تستحق لعمري ... كل هذا الهوى وهذا الغرام

اقمرت ايام وجنت ليال ... والليالي تجود في الاحكام

واذا كانت الحقيقة بيضاء ... فماذا يفيد منا التعامي ؟

انا لم اشهد السعادة الا ... مثل طيف يزورني في المنام

انها كانت تستزار ولكن ... لا تزور الحسناء غير لمام
اي نفع من الحياة الشيخ ... لم يعش الا نضو داء عقام
ومن الخرق ان نهاب المنايا ... والمنايا للمرء ذات لزام

* * *

لا ابالي اذا كان موتي زؤاما ... حين يدنو ام كان غير زؤام
ما حياة امرىء سيهلك الا ... حلم باطل من الاحلام
انما هذه الحياة لعمري ... حيرة للعقول والافهام
لم تكن اكثر الحقائق الا ... صورا من رواسخ الاوهام
كم ظلام قد جاء بعد ضياء ... وضياء جاء بعد ظلام
ليس يبقى من الوجود اخيرا ... غير وجه المهيمن العلام(٨)

الحلة ــ الاثنين ٢٠ نيسان ١٩٢٥

ذهبت هذا اليوم الى الحلة الفيحاء مسقط راسي ووطن الصبا فصار قلبي يخفق حنينا وشوقا واما اجتاز الشوارع في طريقي الى دارنا .

الحلة ــ الاربعاء ٢٢ نيسان ١٩٢٥

وصلتني صباح اليوم بطاقة دعوة من مدير معارف الحلة لحضور الحفلة التي ستقام مساءا في المدرسة الابتدائية لسماع مسامرة الاميني وبمناسبة وجودي في العراق لقضاء العطلة الربيعية اعددت كلمة القيتها بهذه المناسبة كان موضوعها « الدراسة في الجامعة الامريكية »(٩) . وقد ختمت كلمتي بقولي: « بصفتي تلميذا وطالب علم وحبا بطالبي العلم من ابناء الفيحاء اتبرع بخمسين روبية لتنفق على تدريس الاميين بالطريقة التي يرتأيها حضرة المدير . » ثم اخذ الحاضرون يتبرعون كل حسب امكانيته وكان من بين الحاضرين رزوقي ابن صالح المهدي فقد تبرع بمائة وعشرين روبية .

بغداد ــ الخميس ٣٠ نيسان ١٩٢٥

ذهبت صباح اليوم مع محمد دشتي واكرم زينل لزيارة دار المعلمين وتفقدنا صفوفها واحدا واحدا فوجدنا ان هناك قسمين ، قسم داخلي وقسم خارجي ، وفي المدرسة قسم لاعداد معلمي مدارس القرى وقسم آخر لاعداد

---

(٨) نقلا من كتاب « ذكرى الخالصي » تاليف المرحوم عبدالرزاق امين ، بغداد ــ ١٩٢٥

(٩) نشرت في جريدة السياسة البغدادية بعدديها ليومي ٣٠ نيسان و٢ مايس ١٩٢٥ (انظر نص الكلمة في الفقرة ٧)

معلمي مدارس المدن . ومن بين المعروفين الذين زرنا الصف الذي كان يدرّس فيه متي عقراوي فأعجبت بأسلوب تدريسه وكان يدرّس علم النفس باللغة العربية .

بغداد ـ السبت ٢ مايس ١٩٢٥

زرت اليوم انا ومحمد دبسي واكرم زعيتر المدرسة الامريكية للبنات في بغداد تديرها امرأة وهي عقيلة القسيس ستاوت فرحبت بنا وكلمتنا عن المدرسة مفصلاً . فذكرت ان عدد الطالبات في مدرستها زهاء خمسين فيهن طالبة واحدة فقط مسلمة وهي من عائلة الحيدري . وقد كانت المدرسة تغلق ابوابها عادة يومي السبت والاحد فلم يتيسر لنا زيارة الصفوف .

بغداد ـ ٣ مايس ١٩٢٥

غادرنا بغداد ظهر اليوم عائدين الى بيروت للالتحاق بالجامعة بعد انتهاء عطلتنا الربيعية فوصلنا الى بيروت في اليوم التالي .

بيروت ـ بعد العودة الى الجامعة ـ الاربعاء ٦ مايس ١٩٢٥

تألب بعد ظهر اليوم طلاب الجامعة العرب إزاء الباب الرئيسية للجامعة وعلق كل منهم شريطاً اسوداً على صدره حداداً على ذكرى الشهداء الاحد عشر الذين شنقهم جمال باشا السفاح في ساحة البرج ببيروت . وحمل الطلاب تصاوير الشهداء وراء حاملي اكاليل الزهور السوداء . وسرنا خلفهم مصطفين على طول الطريق العام قاصدين تواً الى ساحة الشهداء . وهناك انضم الينا طلاب المدارس والكليات الاخرى مع اكاليلهم . ثم سرنا جميعاً قاصدين مقبرة الشهداء خارج البلدة فبلغناها بعد مسيرة نصف ساعة تقريباً . فتجمع الجمهور حول المقبرة وداخلها ثم وضعت منصة في وسط الجماهير فوقف عليها رئيس الحفل جبران تويني صاحب جريدة الاحرار فألقى كلمة اعقبه عدد من الخطباء مشيدين ببطولة الشهداء وعظمة هذا اليوم وقدسيته . وكان من بين الخطباء خمسة من طلاب جامعتنا . وفي الختام ألقى فتكنس فارس خطيب سورية المفوه كلمة بليغة في هذه المناسبة كان لها تأثير عميق في نفوس الحاضرين .

بيروت ـ السبت ٩ مايس ١٩٢٥

كان مساء اليوم موعد حفلة المباراة الخطابية التي اقامتها جمعية زهرة الآداب في الجامعة . وهي المباراة التي اشتركت فيها فكنت ثاني الخطباء المتبارين وموضوعي « الصحافة اساس النهضة » وبعد ان انهى الخطباء خطبهم اجتمعت لجنة المحكمين برئاسة عبدالرحيم بك قليلات وعضوية كل من الشيخ ابراهيم المنذر والشيخ يوسف زخريا في غرفة مجاورة . وبعد عشر دقائق

تخللها عزف موسيقي وقف رئيس اللجنة واذاع نتيجة الحكم وهي فوزي بالجائزة الاولى وفوز اكرم زعيتر بالثانية وفؤاد اسعد بالثالثة . ثم انفضت الجلسة فاقبل أكثر الحاضرين يهنئني على فوزي بالجائزة الاولى . وقد صافحني الاستاذ انيس الخوري مهنئا اياي وكذلك الاساتذة والزملاء .(١٠)

الاحد ٢٤ مايس ١٩٢٥

القى اليوم الرئيس دوج رئيس الجامعة خطابا في الكنيسة حضر لسماعه جميع الطلاب والاساتذة وذلك بمناسبة عودته من جولة في الولايات المتحدة الامريكية وفي اوروبا ، فاشار الرئيس الى التطور والتقدم في مسيرة الحضارة الانسانية واخذ يشرح لنا المكتشفات الحديثة ومنها الراديوم(١١) الذي اخترع في الولايات المتحدة الامريكية فذكر ان خطاب رئيس الجمهورية الامريكية اصبح نتيجة هذا الاكتشاف يسمع في كل انحاء الولايات المتحدة ، شمالها وجنوبها ، شرقها وغربها ، يسمعه الجميع ، واضاف انه هو نفسه تكلم بالراديوم عن احوال الشرق لكن يسمعه الناس في كل انحاء امريكا .

الاثنين ٢٥ مايس ١٩٢٥

عقدت جمعية العروة الوثقى مساء اليوم جلسة خطابية يلقي فيها الاعضاء خطبهم ولما كنت أحد الذين لم يلقوا كلمة بعد فقد اعددت خطابا موجزا بعنوان « هل توافق على اشتراك الطلبة في السياسة ؟ » وهذا بعض ما ورد فيه :

ان الواجب ايها الاخوة يقضي على كل منا ان يكون له نصيب وافر في معرفة شؤون بلاده وان يعنى بكل ما يتعلق بها من شؤون سياسية واقتصادية وتاريخية واجتماعية ، ولكن هناك يعترضنا سؤال متى وكيف نشترك بهذه العمليات بشكل جدي ؟ فهل نشترك ونحن لا نزال في عهد حياتنا المدرسية بين جدران دار التلمذة ؟ ان واجباتنا كثيرة ولكن لكل واجب مكان ولكل عمل مقام . ان حياة التلمذة ان هي الا ايام معدودات علينا ان نكرسها في تحصيل العلم لكي نبني اساسا قويا لمعترك حياتنا في المستقبل فاذا كان ذلك الاساس ركيكا خسرنا اعظم ما نملكه في الحياة . هي الايام التي تفتح فيها زهرة الحياة وريقاتها لتنشر مساعينا المدرسية في وسطها لقاح العلم الحقيقي فتلتقح وتثمر ثمرة ناضجة تعم فائدتها على الجميع . هي حقبة سنوات من حياتنا علينا ان نركز فيها على الهدف الذي اتينا الى هذه الدار من اجله وهو تحصيل العلم

---

(١٠) انظر التفاصيل عن هذه المباراة في الفقرة (٨)

(١١) هكذا ورد اسم الراديو في المذكرة مما يدل على ان الراديو كان يسمى بهذا الاسم في اول ظهوره .

والمعرفة . كيف لا وهي فرصة العمر فرصة ثمينة لا تتكرر في حياة الانسان وقد تندم فيما اذا لم نستغلها لتحقيق ذلك الهدف حيث لا ينفع الندم .. فنوجه عنايتنا ونحصر اهتمامنا في تحصيل العلم فندرس سير عظماء الرجال وتاريخ نهضات الشعوب حتى اذا ما خرجنا الى معترك الحياة العملية سقينا تلك المعرفة من منهل الاختبار نعمل على اسعاد وطننا قولا لا قولا . واذ ذاك نكون قد حققنا الهدف الذي نرجاه من العلم في خدمة الوطن والسلام عليكم.

السبت ٣٠ مايس ١٩٢٥

اقامت جمعية تهذيب الشبيبة السورية مساء يوم ٣٠ مايس ١٩٢٥ حفلة كبرى في منتدى وست في الجامعة الامريكية حضرها جمع غفير من ارباب العلم نساءا ورجالا لما يتمتع به خطباء هذه الحفلة من شهرة في الاوساط العلمية والادبية . فقد دعت الجمعية الدكتور نيقولا فياض وهو احد خريجي الجامعة الامريكية والآنسة مي ليكونا خطيبي الحفلة وقد خصص ريعها لينفق على تعليم الشبيبة السورية . وما كادت تحل الساعة الثامنة مساءا حتى اخذ الناس يتهافتون الى الجامعة ، ولم يمض وقت طويل حتى غصت قاعته بالحضور ، ثم دخل الخطباء ورئيس الحفلة الاستاذ نجيب بك سرسق فجلس كل منهم في المحل المعد له . افتتح الجلسة احد اعضاء الجمعية بالقاء كلمة وجيزة عن الجمعية وغايتها ، ثم تلاه الخطيب المفوه الدكتور نيقولا فياض فألقى خطابه وموضوعه « انا وانتم » فاخذ يغرد على اغصان المنبر ابياتا رقيقة مستهلا خطابه ببضعة أبيات مطلعها :

يا مي هذه ساعة الميعاد   فسلي فؤادك عن حقوق فؤادي

فكان لكلامه صدى عميق في نفوس الحاضرين حماسا للوحدة وحنينا للاخوة البشرية والتسامح الديني عامة وايم الحق انه خطيب وقد كان كل كلامه ارتجاليا . ثم تلاه الاستاذ أنيس الخوري والقى قصيدة رنانة ، واعقبته اميرة الكتاب فاعتلت المنبر وقد ادهشت الحاضرين ببلاغتها وفصاحتها كما ادهشتهم في اسلوب القاء خطابها . وقد تخلل الحفلة انغام موسيقية واناشيد شرقية قام بها الاستاذ عمر زعني اشهر المغنين في بيروت .

الجمعة ٥ حزيران ١٩٢٥

عقدت الجمعية العراقية هذا اليوم اجتماعا لآخر مرة في هذه السنة الدراسية (١٩٢٤-١٩٢٥) وكانت جلسة انتخابات فانتخب فاضل الجمالي رئيسا للجمعية. وفي هذه الاثناء قام احد الاعضاء وطلب من رئيس الجلسة ان يدعوني لاعزف قليلا على العود قبل سفري لامريكا ليسمعوا مني آخر قطعة على العود فلبيت الطلب وعزفت قطعة (تقسيم) فطرب لها الحاضرون وسط تصفيق .

الجمعة ١٩ حزيران ١٩٢٥

انتهيت اليوم من الامتحانات في الجامعة لسنة ١٩٢٤–١٩٢٥ بنجاح وقد قررت باذن الله السفر الى امريكا في ٨ تموز ١٩٢٥ .

الاحد ٥ تموز ١٩٢٥

طلعت اليوم الى الجبل فذهبت الى حمانة حيث قضيت يومين في زيارة لفاضل الجمالي وعبدالحمد الچلبي .

الثلاثاء ٧ تموز ١٩٢٥

رسالتي من بيروت الى يوسف زينل قبيل سفري الى امريكا أودع فيهـ اخواني العراقيين .

أخي :

ها هي الساعة قد دنت بدنو الرحيل فانزل دمعة حارة على سـطور عجالتي هذه وهي رسالة الوداع ، اذ لم يبق الا ساعات معدودات لسفري وقد اخذت اشعر بالم الفراق فغمرتني حرارة الشـوق وهي تحرق بوادي وتمزق اوتار قلبي ، ولا بدع فاني سأفارق أعز من عرفت في الحياة ، سأفارق رفاق الحياة بل سأفارق أخوة سوف تبقى حلاوة العيش وأيامهم على شفتي الى الابـد . والله لقد عز عليّ فراقكم كثيرا وما بعثت اليك هذه السطور الا لاخفف عن غمي ولأسطر على جبينك قبلات الوداع . ولا يسعني الآن وانا على وشـك مغادرة بر لبنان لاستقل الباخرة الا أن ابتهل اليه تعالى ان يظللك تحت رايه الفوز والفلاح مقرونين باسعد العيش . سلامي الى الاخوان جميعا واقول في الختام : الوداع يا من وددت في الحياة من رفيق او نسيب من بلاد أو ديار ، الوداع الى يوم الملتقى الذي يجمعنا كرة اخرى للعمل تحت راية الوحـدة في الوطن العزيز ان شاء الله ودم معززا لاخيك المشتاق .

ومن زملائي غير العراقيين الذين اتذكرهم : قسطنطين زريق ، عمر فروخ ، شـارل مالك ، فريد زين‌الدين ، اكرم زعيتر ، كنعان خطيب ، ومن اساتذتي: فيليب حتي ، انيس الخوري ، امين الحسن .

الباب الثالث ـ دراستي في امريكا

١ ـ مغادرتي بيروت وسفري الى امريكا ٢ ـ الجمعية العراقية في بيروت تعتبر عضوية اعضائها في الخارج مستمرة ٣ ـ التنافس بين الطلاب العراقيين في الجامعة الامريكية ببيروت ٤ ـ المرأة في امريكا وفي العالم العربي ٥ ـ دراستي في امريكا ٦ ـ الامس واليوم ٧ ـ مغامرات غرامية

١ ـ مغادرتي بيروت وسفري الى امريكا

غادرت بيروت يوم ٨ تموز ١٩٢٥ (اي قبل خمسين سنة بالضبط) متوجها الى امريكا لمواصلة دراستي العالية في كلية تكساس الزراعية الميكانيكية
(Agricultural and Mechanical College of Texas)
التي سبق ان حصلت منها على قبولي فيها معترفة بدراستي في الجامعة الامريكية في بيروت . وكان سفري على ظهر الباخرة الامريكيه « براكا » (Brago) ، وهي باخرة حمل خاصة بنقل البضائع بين مختلف الموانيء في البحر المتوسط والبحر الاسود وبين الولايات المتحدة الامريكية ، الا انه كان في الباخرة جناح خاص لنقل الركاب عليها بعدد محدود وبدرجة واحدة ممتازة تعادل الدرجة الاولى في البواخر الاخرى . وهكذافقد مررنا اولا بحيفا ، ثم باستامبول ، فكوستانزا في رومانيا على البحر الاسود ، ثم الرجوع الى البحر المتوسط فمررنا بازمير واثينا ومسينا وبالرمو والجيرز (الجزائر) وملاكا في اسبانيا . فكانت الباخرة تقف في كل من هذه الموانيء لتفريغ وشحن البضائع مما يتيح الفرصة للركاب ان يزوروا هذه الموانيء ، فيتجولون فيها ثم يعودون الى الباخرة ليلا للمبيت في غرفهم الخاصة . وهكذا فقد زرت هذه الاماكن كلها والتي لا ازال احمل ذكريات جميلة عنها ، ومن ملاكا آخر ميناء من موانيء البحر المتوسط اجتازت الباخرة مضيق جبل طارق ماخرة عباب الاوقيانوس الاتلانتيكي في طريقها الى نيويورك فمطمته في بضعة ايام هبت علينا في خلالها عاصفة هوجاء اقعدتنا عن اية حركة ولم يجرأ احد مغادرة فراش النوم، وقد دامت هذه العاصفة يومين متواصلين ، ثم هدأ البحر فواصلنا السير حتى وصلنا الى نيويورك صباح يوم ٦ آب ١٩٢٥ ، وبذلك تكون سفرتنا قد استغرقت حوالي الشهر كانت اجمل سفرة قمت بها في حياتي رغم الازعاج الذي اعترضنا بهبوب العاصفة .

وما كاد يطل الركاب على مرفأ نيويورك المتسع حتى ظهر تمثال الحرية شامخا وهو على هيئة امرأة تبسط ذراعيها مرحبة باولادها وهي تحمل في يمناها المرتفعة مشعلا ينير سبيلهم الى بلاد الحرية . وهذا التمثال مع مباني نيويورك الشاهقة التي تناطح السحاب هي اول ما يحيي المسافر الى هذه المدينة

العظيمة • وقد اقيم التمثال على احدى الجــزر الصغيرة التي تحصن مرفأ نيويورك • وقصة هذ التمثال هي رواية الصـداقة بين فرنسـا والولايات المتحدة التي ترجع الى مطلع العقد الثامن من القرن الثامن عشر • وبمناسبة الاحتفال بانقضاء مائة عام على اعلان الاستقلال الامريكي (اي سنة ١٨٨٦م) اراد الفرنسيون ان يكرموا اخـهم الجمهورية الامريكية فيعبروا عن هذا التكريم في هدية رمزية يهديها الشعب الفرنسي الى الولايات المتحدة تكون مثالا لروابط الصداقة بين البلادين ، فبعثوا بالمسيو اغسطس برتولدي الفنان الفرنسي الشهير الى امريكا ليتفق مع المسؤولين فيها على اختيار الهدية • فعرض عليهم اقتراح يرمي الى وضع تصميم لتمثال ينصب على احدى الجزر الصغيرة في مدخل مرفأ نيويورك فوافقوا عليه وتقرر ان ينفق الشعب الفرنسي على صنع التمثـال وينفق الامريكيون على صنع القاعدة التي يقوم عليها التمثال ، وعلى اثر ذلك اتخذت الاجراءات اللازمة لتنفيذ المشروع على هذا الاساس حتى انجز العمـل وفق التصميم الموضوع له •

أ ـ تمثال الحـرية

وتمثال الحرية هذا اكبر التماثيل في المسكونة واضخمها ، هيكله مصنوع من الحـديد ومغطى بصفائح البرونز المطروق ، وهو مؤلف من ثلاث مئة قطعة من البرونز تختلف مساحاتها بين ذراع مربعة وثلاث أذرع مربعة • ولا يزيد ثخن احداها عن ربع بوصة ، ومع ذلك فوزن التمثـال ٢٥٠ طنا • وعلـو التمثال من اخمص قدميه الى راس المشعال ١٥١ قدما ، وطول يده القابضـة على المشعال ١٦ قدما ونصف قدم ، اما القاعدة فارتفاعها ١٥٤ قدما • وبذلك يكون الارتفاع الكلي للتمثال مع قاعدته ٣٠٥ اقدام • هذا مع العلم ان اربعين شخصا يستطيعون الوقوف في داخل راس التمثال واثنى عشر شخصا حول المشعال • وهذا التمثال مع مباني نيويورك الشاهقة التي تناطح السـحاب بارتفاعها هي اول ما يحيي القادم الى هذه المدينة العظيمة ـ كما تقدم ـ •

ب ـ جزيرة الس

وتفت بنا الباخرة أمام جزيرة الس (Ellis Island) التي تهلع لذكرها قلوب المهاجرين الى امريكا لما يلقاه الكثيرون فيها من مرارة معاملات التحقيق والتدقيق والفحص الطبي قبل ان يؤذن لهم بالدخول الى أرض الميعاد أو قبل ان يقرر أولو الامر بارجاعهم على اعقابهم الى بلادهم • ولما كنت مـن صنف الاجانب فكان نصيبي ان انزل في الجزيرة مع بقية الاجانب قبل ان يسـمح لي بالذهاب الى نيويورك • فقضيت ليلة واحدة في الجزيرة ، وبعد ان خضعت للفحص الطبي مجددا على الرغم من ان ذلك اجري في بيروت واتممت معاملات السفر المطلوبة غادرت الجزيرة يوم ٧ آب ١٩٢٥ ، وقد صادف ان ضابطـا

امريكيا لعلمي وانما مع اصدقائي اتيت الى نيويورك فسالني من يكون قلت له اني طالب عراقي قدمت الى مركز مدعوين في احدى الجامعات في تكساس . فسالني هل العراق يران فاجبته ان العراق هو بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) فرحب بي وسرع في الحديث معه الى نيويورك . فحمل معي بعض امتعتي وركبنا زورق الذي كان ينتظره على الساحل ومن ثم رسا الى بر نيويورك حيث كانت سيارته تنتظره على الرصيف . وعند سالني عن فندق معين ارغب في السكن فيه فاجبته بعد ان ارغب في النزول في فندق لبنان في شارع واشنطن فاخذني معه الى الفندق وتركني فودعته شاكرا له فضله . وشارع واشنطن هذا من اوله الى آخره شارع سوري عربي على الغالب فاذا سرت فيه مستعرضا ابنيته واسواقه ومطاعمه ومعروضاته سوف تشعر وكانك في حي من احياء لبنان .

ج - نيويورك بلدة ناطحات السحاب

بقيت في نيويورك خمس ليالي دفعت دولارا واحدا عن كل ليلة (منام فقط) في غرفة خصوصية . ونيويورك اشتهرت بمبانيها التي ضربت الرقم القياسي في ارتفاعها حتى صارت تعرف بمدينة ناطحات السحاب . ونيويورك اعظم المدن في العالم مساحة واكثفها سكانا واعظمها غنى وثروة . فيها اعلى المباني واطول الجسور لعمقه واضخمها وافخم الفنادق . ووسائل الانتقال فيها تحت الارض وتحت الماء وفوق الارض وفي الهواء فتنقل الملايين من الناس سنويا . وازدحام السكان في بقعة ضيقة من الارض كان الداعي لابتكار المباني الشاهقة والوصول بهذه المباني الى مرتبة عليا من الاتقان والكمال . والذي ساعد على التقدم في هذا المضمار ان نيويورك قائمة على طبقة عميقة جدا من الصخور ، فالاساس الثابتة التي تقوم عليه هذه المباني الشامخة يجب ان تقوم على صخر صلد عمقه يزيد على مائة قدم على ان تملأ المسافة بين سطح الارض والصخر على نسق الابراج الضخمة التي يبنيها صانعو الجسور اي بالكونكريت المسلح . والبناية الواحدة من هذه البنايات مدينة مصغرة فيها من الروافع ما يزيد على اربعين او خمسين رافعة تقسم الى قسمين ، روافع سريعة بلا وقوف واخرى تقف عند كل دور . ونجد في هذه البناية المطاعم والمخازن والمكاتب ودوائر البريد والبنوك وشركات والاطباء والمحامين والخياطين والحلاقين ومساحي الاحذية وبائعي السكاير الخ . واحتمالا ان الساكن او المشتغل في بناية من هذه الابنية لا يحتاج الى الخروج منها لقضاء حاجة من حاجاته بل يستطيع ان يقضيها فيها . ومن اهم هذه البنايات بناية ولورث المؤلفة من ٥٥ دورا عدا البرج ارتفاعها ٧٩٢ قدما وقد بلغت نفقات بنائها نحو ثلاثة ملايين جنيه وفيها مكاتب تسع ١٤ الف نفس بناها رجل عصامي يدعى ولورث جمع ثروته من مخازن لا يباع فيها شيء اكثر من عشر

سنتات(١) ثم بناية « الاكويتابل » وهي تتألف من ٤٣ دورا وارتفاعها ٥٤٥ قدما يشتمل فيها يوميا ١٥ ألف نفس وفيها ٦١ رافعة وقد بلغت نفقات بنائها وثمن الارض نحو ٦ ملايين جنيه ، ثم بناية البلدية مؤلفة من ٣٤ دورا علوها ٥٣٩ قدما وعمق اساسها ١٣٠ قدما ، وقد بلغت نفقات بنائها مليوني جنيه • وهناك مبان كبيرة تتألف من عشرين دورا او أكثر •

د ـ الوصول الى الكلية

غادرت مدينة نيويورك يوم ١١ آب ١٩٢٥ بعد ان تجولت فيها وزرت المواقع المهمة فيها قاصدا الكلية في ولاية تكساس احدى الولايات الامريكية الجنوبية عن طريق هيوستن ، فركبت القطار السريع وكانت اجرة السفر مع أجرة سرير منام (Pulman) ٨٥ دولارا ، ووصلت الى الكلية يوم ١٣ آب بعد ان توقفت بعض الوقت في هيوستن • والكلية بلدة قائمة بذاتها بما فيها من مبان ومرافق عامة وخاصة يقف القطار عندها في محطة خاصة بها تدعى « محطة الكلية » (College Station) وعنوان الكلية « كلية تكساس الزراعية الميكانيكية » (Agricultural and Mechanical College of Texas)

وتنفق الحكومة على الكلية والطعام فيها نظام عسكري يدرب فيها الطلاب على مختلف الفنون العسكرية بالاضافة الى منهج الدراسة في الكلية ويتخرج الطالب فيها بعد اكماله سني الدراسة الزراعية او الهندسية ضابطا في الجيش الامريكي برتبة ملازم ويتعهد خطيا ان يخدم في الجيش الامريكي في حالة الحرب او عند الضرورة لاسباب أخرى • وفي كل ولاية من الولايات المتحدة الامريكية كلية حكومية من هذا النوع • هذ مع العلم ان التدريس في هذه الكليات مجاني وتنفق الحكومة على جميع ما يحتاجه الطالب من منام ومأكل وملبس • وشروط القبول فيها لا تختلف عن الشروط التي تعمل بها بقية الكليات والجامعات في الولايات المتحدة الامريكية • وهكذا تعد امريكا آلافا من ضباط الاحتياط في مختلف فروع الاختصاص العسكري في كل سنة تستدعيهم للخدمة عند الحاجة • وتقبل هذه الكليات عادة بعض الطلاب الاجانب على نفقتها ايضا اسوة ببقية الطلاب الامريكان ، وفي هذه الحالة يكون الطلاب الاجانب مخيرين بين ان يلتحقوا بالقسم العسكري او القسم المدني وللطلاب المدنيين بناية خاصة بهم ومطعمهم منعزل عن مطعم الطلاب الخاضعين للنظام العسكري • واذا رغب الطالب الاجنبي في ان يلتحق بالقسم العسكري فهو غير ملزم عند تخرجه في الكلية باعطاء تعهد ان يخدم في الجيش الامريكي عند الحاجة • ولا تقبل الكلية

---

(١) ان أعلى بناية من بنايات ناطحات السحاب في الوقت الحاضر هي بناية « امباير ستيت » يبلغ ارتفاعها ١٢٥٠ قدما فوق سطح الشارع •

الزوج فيها لان الزنوج محظور عليهم الاختلاط مع البيض فهم معزولون عنهم في الاماكن العامة ولا يتعامل الابيض مع الزنجي في البيع والشراء ، والكلية خاصة بالذكور فقط •

وكان في هذه الكلية طالب لبناني من زملائي في الجامعة الامريكية في بيروت كان قد سبقني الى هذه الكلية هو جودت حيدر (اخ رستم حيدر) واللنفيت به في الكلية وسكنت معه في البناية التي كان يسكنها وكان خير رفيق لي في حياتي الجديدة لما كان يتسم به من سمو الخلق وكرم النفس • والعرب في غربتهم خارج البلاد العربية يتعاطفون بعضهم مع بعض وبخاصة اذا كانوا طلابا في جامعة او كلية واحدة • ومن ذكرياتي مع زميلي جودت اني عبرت له عن رغبتي في التكلم على التلفون اذ لم يسبق لي التكلم عليه فذهبت الى احدى البنايات وطلبني من البناية التي كنا نسكنها وهكذا تمت مكالمتي على التلفون للمرة الاولى في حياتي •

وفي ٢ ايلول ١٩٢٥ وصل الى الكلية محمود فتاح من طلابنا العراقيين وقد التحق بهذه الكلية ، فكان سروري به عظيما اذ قضينا كل النهار في الحديث الشجي حتى معظم ساعات الليل • وقد ذهبت معه الى « كالفستون » (Galveston) للسبح في البحر وكان السبح مختلطا من الجنسين ، فكان هذا المشهد مثيرا وغريبا اذ لم يسبق لي ان اعتدته من قبل الا انه لم يمض وقت طويل حتى اعتدته فاصبح امرا اعتياديا •

ولما فتحت الكلية ابوابها واخذ الطلاب يسجلون اسماءهم ويختارون مواضيع دراستهم كان عليّ ان اقرر موضوع التخصص فكانت رغبتي منصبة في البداية على التخصص في الزراعة لشغفي بالحياة الزراعية التي عشتها في الوطن ايام الصبا • الا اني وجدت بعد ذلك ان التخصص في الهندسة المدنية التي تعنى بهندسة الري ضمن مواضيعها الدراسية اهم من الزراعة بالنسبة لاحتياجات العراق في نهضته الحديثة فتحولت الى الهندسة المدنية • بقي عليّ ان اقرر هل التحق بالقسم العسكري او المدني ، فقررت ان اخذ بالشق الاول اي القسم العسكري مع اني كنت اعلم بما تنطوي عليه الحياة الخاضعة للنظام العسكري من المشقة والخشونة لاني كنت اشعر ان المرء لا يمكن ان يدرس المجتمع الا بالاندماج والاختلاط والمشاركة في جميع فعالياته • ولما كنت احسن ركوب الخيل وشغفي بها منذ الصغر قررت ان انخرط في سلك الخيالة فانتميت الى فرقة الخيالة (Cavalery Troop A) • والعادة هي ان يختار الطالب الرفيق الذي يشاركه في غرفته واقصى ما تستوعبه هذه الغرف ثلاثة او اربعة اسرة لاربعة طلاب ، فصادف ان اقترح عليّ احد طلاب صفي اسمه (G. Taylor) وهو في قسم الخيالة ايضا ان اشاركه في الغرفة التي يسكنها



التصوير رقم (٣٧) - المؤلف يمارس لعبة القفز فوق الحواجز على ظهر الحصان سنة ١٩٢٦ - انظر الفقرة ١ د)



التصوير رقم ٣٨ المؤلف في نزهة الصيد - انظر الفقرة ١ د)



التصوير رقم (٣٩) - المؤلف وهو أحد طلاب الصفوف العليا يدرب أحد طلاب الصف الأول (انظر الفقرة ١ هـ)



التصوير رقم (٤٠) — المؤلف وهو [illegible] في ٨ [illegible] ١٩٢٦ [illegible]
(انظر الفقرة ١ هـ)



التصوير رقم (٤١) — المؤلف وهو يحمل على ظهره امتعته في جولته في المدن الجنوبية من الولايات المتحدة الامريكية
(انظر الفقرة ١ و)

مع زميل آخر يدعى (Kreager) فنقلت امتعتي الى غرفة زميلي المذكورين وهي الغرفة التي اصبحت مقري الى آخر السنة الدراسية .

هـ ـ تقاليد وعادات غريبة

وفي الكلية تقاليد وعادات غريبة يمارسها الطلاب ويتمسكون بها كجزء من تراث الكلية على الرغم من ان بعضها ممنوع منعا باتا بموجب قانون الكلية. ومن بعض التقاليد المسموح بها ان الطالب الذي يدخل الكلية للمرة الاولى يعامل في السنة الاولى من وجوده في الكلية معاملة خاصة فيطلق عليه اسم « فيش » (Fish) اي سمكة وعليه ان يضع طوق ابيض في زنده لتمييزه عن زملائه من الصفوف العليا . وتقع على الطالب (الفيش) مسؤوليات وواجبات تشبه علاقة الجندي بالضابط في صفوف الجيش ، ومن هذه الواجبات :

١ ـ عليه ان يخاطب زملاءه من طلاب الصفوف العليا باستعمال كلمة «سيدي».
٢ ـ عليه ان يطيع امر كل طالب من طلاب الصفوف العليا .
٣ ـ عليه أن يعرّف نفسه على اي طالب من طلاب الصفوف العليا يلاقيه بقوله : « اني (فيش) فلان . »
٤ ـ عليه ان يكون في داخل البناية وقت الفراغ من الدرس وان يكون منتبها حتى اذا ما نادى أحد طلاب الصفوف العليا يطلب القيام بخدمة ما عليه ان يسرع اليه وتقع عادة الخدمة المطلوبة على رأس آخر من يلبي النداء .
٥ ـ عليه أن يكنس وينظف الغرف العائدة الى الصفوف العليا .
٦ ـ عليه أن لا يتناول شيئا على مائدة الطعام الا بعد ان يقدمه الى زميله من الصفوف العليا وعليه ان يملأ له قدح الماء ويقدم له القهوة أو الشاي.

ومن بعض التقاليد ايضا أن هناك مصطلحات خاصة غريبة تستعمل لكل نوع من انواع المأكولات والمشروبات التي تقدم على مائدة الطعام يجب على الطالب الذي يدخل الى الكلية لاول مرة أن يتعلمها . فيطلق مثلا على الحليب (Milk) مصطلح « بقرة » (Cow) ، والماء (Water) مصطلح « عصير السماء » (Sky Juice) ، والسكر (Sugar) مصطلح « تراب المسمار » (Saw Dust) ومعجون الطماطة (Tomato Juice) مصطلح « دم » (Blood) والمكرونة (Maacarona) مصطلح « دود » (Worms) والسلاطة (Salad) مصطلح « ارنب » (Rabbit) والخبز (Bread) مصطلح « خشب المدفع » (Gun Wooden) واللحم (Meat) مصطلح « رقبة الثور » (Bullneck) الخ. وكنت

في بادىء الامر ادون هذه المصطلحات الغريبة على ورقة لاستعين بها اذا صادف ان نسيت بعضها .

والتعذيب الممنوع ممارسته معما بابا وفق قانـون المدرسة هو التقليد شطوي على ضرب طلاب الصفوف العليا للطلاب (الفيش) ولكن مع ذلك كانت هذه الاعمال تمارس فعلا ، وكان على (الفيش) ان يحضر العصا وينحني لتلقي الضربات الشديدة من غير تذمر ، وهذه العملية تسمى (Hazing) وبالطبع كان الضرب يمارس في الخفاء وعلى (الفيش) ان لا يبوح به للسلطات واذا باح به قاطعه جميع الطلاب . وقد صادف ان فاجأ احد الضباط بناية من بنايات الكلية بزيارة من غير سبق انذار فوجد في احدى الغرف بعض طلاب الصفوف العليا يمارسون عملية الـ (Hazing) فاخذ اسماء جميع من كانوا في الغرفة واجريت محاكمة طلاب الصفوف العليا بعد فحص مقاعد (الفيش) الذين اصروا على عدم الاعتراف بشيء مما جرى او ذكر اسماء الطلاب الذين قاموا بالضرب . ومع ذلك حكمت المحكمة بطرد كل طلاب الصفوف العليا الذين كانوا في الغرفة وعددهم ١١ طالبا وذلك لفصل واحد من فصول السنة الدراسية . واستعد الطلاب للقيام بمظاهرة احتجاج على طردهم ، ولكن الطلاب المطرودين منعوهم من القيام باي عمل من شأنه ان يؤدي بالحاق الضرر بهم . فتجمع كل الطلاب لتوديعهم والحزن يخيم على الوجوه حتى أخذ بعضهم يبكي من شدة الغيظ والغم . هذا مع العلم ان أكثر الطلاب المطرودين عادوا الى الكلية بعد انتهاء الفصل الاول من دراسة الكلية فاستقبلوا استقبالا حارا .

وعلى الرغم من الصعوبات والمشاق التي كانت ترافق حياة الطالب العسكري في سنته الاولى ، واظبت على دراستي باذلا أقصى الجهود حتى انهيت الفصل الاول من دراسة الكلية بتفوق ، وهذا نص ما دونته في مفكرتي ليوم الاحد المصادف ٢٨ شباط ١٩٢٦ :

« ذهبت اليوم بعد الظهر مع بعض الزملاء الى خارج الكلية حيث احتشد جمع غفير من الناس في مساحة واسعة وكانت هناك طائرات صغيرة يدفع الراغب في ركوب الطائرة دولارا واحدا فيطير في الجو حول الكلية مدة حوالي عشر دقائق ، فركبت احدى هذه الطائرات وطرنا فوق الكلية حيث كانت تشاهد كل ابنيتها ومرافقها من الجو . وكانت هذه هي المرة الاولى التي اركب فيها طائرة في حياتي (انظر التصوير رقم ٤٠) . وبعد عودتنا الى الكلية عرجت الى البناية العمومية حيث تلصق الاعلانات فوجدت لائحة تحمل اسماء الذين كانوا من الممتازين في مختلف فروع الدراسة للفصل الاول . قرات وقرات كثيرا من الاسماء واذا باسمي كان مدرجا في فرع الهندسة المدنية ، فكان فرحي شديدا ولا سيما عندما قرات اسم البعدة والقطر العراقي اللذين امثلهما هنا ».

و ـ جولة في الانحاء الجنوبية من الولايات المتحدة

وفي اخر السنة الدراسية نجحت في الامتحان السنوي بتفوق ايضا . ثم انتهزت فرصة عطلة الصيف فقمت انا وزميل من زملاء صفي بجولة في الانحاء الجنوبية من الولايات المتحدة ، وقد اتفقنا على ان نقوم بهذه الجولة دون ان نتحمل مصاريف النقل والاقامة في الفنادق . فاستعرنا من مخزن معدات الجيش في الكلية خيمة صغيرة وادوات طبخ وحملناها انا وصاحبي في نقل امتعتنا على ظهرينا فكنا نقف على الطريق العام ونؤشر الى السيارات المارة فكانوا ينقلوننا معهم برحابة صدر الى البلدة التي كنا نقصدها خاصة عندما يرون لباسنا العسكري . وهكذا تجولنا في اكثر مدن الولايات الجنوبية . فكنا ننصب خيمتنا خارج البلدة وندهب الى البلدة تاركين امتعتنا في الخيمة فنقضي بعض الوقت لتناول طعام العشاء و نتجول في انحاء المدينة حتى وقت متأخر ثم نعود الى خيمتنا لنبيت ليلا . وقد يستغرب القارئ ترك امتعتنا في الخيمة من غير حارس يحرسها ، ولكن هذا هو واقع الحال لان السرقات في امريكا تنصب عادة على أصحاب الملايين والبنوك وقلما يقدم احد على سرقة الثياب والممتلكات الصغيرة وخاصة اذا كانت الخيمة خيمة طلاب عسكريين . وفي الصباح نعود فنحمل امتعتنا بعد تناول طعام الفطور ونقف على الطريق العام المؤدي الى المدينة التالية التي نقصدها . وهكذا دواليك الى نهاية الجولة . وقد استغرقت هذه الجولة خمسة وعشرين يوما شهدنا فيها أكثر مدن المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة الامريكية .

ز ـ جمعية الطلاب الاجانب في الكلية

وفي الكلية جمعية للطلاب الاجانب تسمى (Cosmopo.ıton Club) تعمل تحت شعار « الانسانية فوق الأمم » (Above All is Humanity) وقد كنت عضوا عاملا فيها ، فاقمنا يوم ١٢ آذار ١٩٢٦ حفلة انس دعونا اليها اساتذة الكليةورئيس الكلية والقائد وبعض الضباط مع عائلاتهم ، فلبست اللباس العربي والقيت كلمة نالت اعجاب الحاضرين تحدثت فيها عن العراق وبلاد العرب ، مهد الحضارات ومهبط الوحي ، فشرحت ما قدمته للانسانية في مضمار التمدن ، ثم تكلمت عن الكلية ونظامها والروح الطيبة التي تتسم بها طلابها ، فذكرت انها تعد رجال سيف وعلم ، عنصران يمثلان سر تقدم الانسانية ، وبعد ان انتهيت من كلمتي عزفت بعض الانغام على العود الذي كنت قد حملته معي الى امريكا فانس الحاضرون بالنغم العربي الغريب . وقد كنت في السنة الاولى من دراستي في الكلية (١٩٢٥-١٩٢٦) امينا للصندوق في هذه الجمعية ثم انتخبت في السنة الثانية رئيسا لها .

٢ - الجمعية العراقية في بيروت تعتبر عضوية اعضائها في الخارج مستمرة

وكانت اتصالاتي مع اخواني العراقيين في جامعة بيروت الامريكية مستمرة ومراسلاتي معهم غير منقطعة . وكان ان قررت الجمعية العراقية في بيروت اعتبارنا اعضاء فيها ، وفي هذه المناسبة بعثت بالرسالة التالية مع مرفقها كلمة موجهة الى الجمعية بتاريخ ١٧ مارت ١٩٢٦ هذا نصها :

الى حضرة الاخ فاضل افندي الجمالي رئيس الجمعية العراقية في الجامعة الامريكية ببيروت المحترم

سلاما وشوقا (وبعد) فاني اشكر الجمعية العراقية على قرارها المتخذ بشأن قبولها اياي مع بقية الاخوان العراقيين في امريكا اعضاء في الجمعية العراقية ، وهذا ما حملني على أن اردد آيات الثناء والتقدير لما أسداه الأخوة في بيروت من صدق المودة وسمو الخلق لابناء وطنهم المغتربين في الولايات المتحدة الامريكية ، واعترافا بارتياحهم لقد اشتد الميل في نفسي لان اجعل الرابطة قوية متينة ، ووجدت ان افضل رابط يمكن ان يوطد عرى الاتصال المستمر هو المراسلة فيكتب الطالب ما تجود به قريحته وما تثيره في نفسه حياة الغرب من ملاحظات وتعليقات فياس اعضاء الجمعية بها ويستفيد الطالب بما يستمده من تلك المراسلة من التحسس والانتباه فيكون بذلك قد افاد واستفاد . وها اني أنزل فكرتي هذه الى حيز التنفيذ فابعث اليكم مع كلمة لتلاوتها على اعضاء الجمعية علنا نجد فيها عبرة في حياتنا المقبلة حين ننزل الى ميدان العمل والاصلاح ولكم مني مزيد الشكر والامتنان والسلام .

وهذه مقتطفات من الكلمة الموجهة الى اعضاء الجمعية :

« اخواني الاعزاء :

لا فرق فيما اذا كان بينكم في محفلكم الكريم من حديث لم يسبق ان اتوفق للتعرف به ، او قديم بتحيتي منتصبا امامه فكل منكم اخي ..

« ما اجمل الساعة بل ما اسعدني الآن وقد انفردت في مجلسي لأحاكي اخوة الوطن طارحا عن كاهلي اثقال الدرس واعبائه ، كيف لا وقد اراني حالما احاكي رجال الغد جيش العراق الباسل الذي سيتسلم زمام امته بعد قليل فيطرد عنها كل شر وبلاء ويبعدها عن الطامعين بها .

« اين الطبيعة فاستمد منها الوحي لانطق بما تمليه النفس عليّ واصفا شعوري لاخوتي ؟. ما ليت الراديو معروفا في بلادنا العربية فاطلب اليكم ان تجتمعوا الى هذه الآلة الصغيرة لتسمعوا دقات قلبي المتتابعة في هذه الساعة واليراع في يدي ..

« ان الحياة الامريكية حياة عمل متواصل ، ممثل الامريكي الأعلى هو الحركة والسرعة ، ومبدؤه اتقويم التعاون الوطني : صفتان اتصف بهما ابن العالم الجديد يمثلان دور الفوز والفلاح ، حياة قائمة على اساس العمل والتآزر القومي ..

« ان في الحركة نهضة ، وفي العمل تقدم ، ولكننا نحتاج الى صفة نتصف بها اذا ما اقدمنا على العمل ، وهي تفاهمنا المتبادل ، واتفاقنا الدائم «وبكلمة اخرى نحتاج الى تربية بيتية . فاذا فقدنا التفاهم والاتفاق كان العمل عبثا والحركة سدى . فهل لي ترتك اوتنزل الى ساحة العمل ونحن لا نزال متفرقين طوائف واحزاب . هذا ينضم الى حزب والآخر الى طائفة تجهر الاساءة وتحقد عليه . نحمل الحرارة المحرقة المنبعثة من شعلة تلك الفروق واضحين تحت المقة للمشاحنات الطائفية والاحقاد المتأصلة بنا ؟ اوننزل ونحن على حالتنا وبلائها !..

« التربية قبل العلم ، والاخلاق قبل الدرس ، التربية الصحيحة قبل درس الكيمياء ، والاخلاق الفاضلة قبل الطب . الكيمياء تعلمنا المادة وتركيبها ، والتربية تغرس فينا المحبة والاخوة . الطب بلا اخلاق يعلمنا كيف نمتص دم الفقير .. في التربية الصحيحة وحدة وفي الاخلاق الفاضلة تفاهم ..

« نحن نحتاج الى مدرسة التربية والاخلاق قبل مدرسة الطب والفلسفة . نحن نحتاج الى امهات يعرفن كيف يربين شبابا احرارا ، يتقمصون بمحصل المودة والاخوة الوطنية . مبدؤهم الاتفاق ، ومسلكهم التفاهم والتساهل . وهذا ما يدعو الى حصر اهتمامنا في تعليم الفتاة وتهذيبها تهذيبا صحيحا لكي تكون قادرة على تربية اطفالنا تربية صحيحة .

« ان واجباتنا كثيرة ، والاصلاح واجب ، على اني ارى اول واجب هو تهذيب الجنس اللطيف ، لان في المرأة الامل الكبير ، وعليها يتوقف بناء الامة، فهي مدرسة التربية الصحيحة ..

« اتكلم بكل حرية وانتم اخوتي قد فهمنا معنى الحياة والواجب ، فدعوني اختتم رسالتي فاقول : دعوا عنكم يا ابناء وطني الحقد والفروق ، فكل منا اخ للآخر ان شاء أم لم يشأ .. وقد حان لنا ان نلتفت الى واجبنا نحو بلادنا التي طالما صرخت آثارها واطلالها تنادينا بارجاع مجدها الغابر . فقد ارتني سفرتي هذه ما للقومية من الاهمية الكبرى بين الشعوب المختلفة . وقد برهنت لي ايها الاخوان ان الفرد الذي ليس له أمة ينتمي اليها وينضوي تحت لوائها ذليل حقير ، وان المرء الذي لا بلاد له يفاخر بها ويباهي بمآثرها لا عز له ولا مجد ، لان عزه ومجده في قوميته ووطنيته ... »(٢)

---

(٢) نشرت هذه المقتطفات في مجلة عالم الغد ، ج٢١ ، ١ تشرين الاول ١٩٤٥ ، ص٢٤ .

٢ ـ انقسام بين الطلاب العراقيين في الجامعة الامريكية ببيروت

وفي جملة مراسلاتي مع اخواننا العراقيين في جامعة بيروت الامريكيه رسالة وصلتني من فاضل الجمالي رئيس الجمعية العراقية في الجامعة الامريكيــة في بيروت يومه فيها بوجود انقسام بين الطلبة العراقيين في جمعيتهم فبعثت جوابا على رسالته بكلمة مؤرخة في ٥ نيسان ١٩٢٦ هذا نصها :

عزيزي ، تسلمت رسالتك امس فكان لها اثر عميق في نفسي ، اذ ضربت على اوتار قلبي وأسمعتني الحانا مبهجة ولكنني ويا للاسف لم انته من تلاوتها حتى تغيرت الالحان الى نغمة محزنة نزلت على جوارحي كالصاعقة التي تنـزل على الزهرة المنعشة لتمحو آيات البهجة و لسرور المسطرة على وريقاتها ، فقد كان سروري بها شديدا اثناء فصها ، ولكن ويا للاسف لم يمض على تـلاوتي بعض سطورها حتى تلاشى سروري شيئا فشيئا فخمف حزنا عميقا حين قرات ما ذكرته عن عدم اتفاق الطلبة العراقيين في الجمعية العراقية ببيروت فليس لدي الا ان اقول : نحـــن نختلف في اعمالنا وآرائنا ونقول هذه منافســة واحتكاك وكذا يكون التقدم والارتقاء ، ويا ليت القائلين علموا انها ضربة قاضية ويا لها من ضربة .. جميل بنا أن نجد ونجتهد ، وجميل بنا ان نسعى ونعمل، ولكن الجهد والسعي بدون صفاء النية والاخلاص الاكيد لا يثمران غير الخراب والخسران . اولا توافقني اذا قلت اننا بحاجة الى اتفاق الآراء وصفاء النية قبل الدرس ؟.. أن حياة المرء النافعة في عمله لخدمة وطنه خدمة صادقة ولكنها تصبح عكس ذلك اذا نزع العمل حتى اغير في التعبير عن آرائهم او جـرح هذا العمل حواس زميلك . عار والله وكل العار فيما ذكرته عن عدم اتفاق الاخوان في الجمعية العراقية ، ماذا تخاصمنا الآن في امورنا ونحن بين جدران الجامعة فكيف سنكون غدا يوم ندخل الى ساحة العمل الفعلي ؟ مع ذلك ان خيط الامل لا ينقطع وانا لا اؤمن بما قيل في بعض الاحيان : « اننا قد اتفقنـا على ان لا نتفق ، وقد اتحدنا على أن لا نتحد » ، لاني أجد بارق أمل في اخـلاص الكثير من الاخوان وصدق معظمهم فلا بد من أن يأتي اليوم الذي نرى فيه الكل قد التحم كالجيش المتراص من مختلف المشارب والميول لنهوض بالبلاد والدفاع عنها باقدام ثابتة متناسين ما بينهم من خـــلافات ، ففيكم الامل وفي اتفاقكـم تتحقق الاماني .

كلنا نموت ولكن القليل من يعيش بعد المنية ، ونحن نريد من مات وعاش، نرى المرء يقاتل ويعارك ويتخاصم فتحدث الشهوات ضبابا امامه تنسيه الهدف الامثل من الحياة ، فتنسيه بان ليس في الحياة ما يدوم سوى الاعمال الطيبـة والذكرى الحميدة ، كل عمل يموت مع الشخص ، ولكن العمل النافـع هـو الذي يخلد . لقد فهمنا والحمد لله معنى الحياة ، ورأينا النور بعد الظلام ،

وهل كان لي ان اتعدى في احلامي بعد ان رايت امور ، ان لا احصر كل همي في تخصصي او استحدث [illegible] الاول امام نجاحه في التربية [illegible] بعد امس دون [illegible] ونحن [illegible] وعدا لا يقسم الا يستشيف فتاة اليوم ..

كليه تكساس الزراعة الميكانيكية
٥ نيسان ١٩٢٦

٤ ـ المراة في امريكا وفي العالم العربي

ان اكثر ما كان يحدثني في الحياة الامريكية الجديدة دور الرئيس الذي تلعبه المراة الامريكية في المجتمع الامريكي ، فكان هذا الدور يسائر تحسسي وتطلعي لي تحقق نهضة تحرر امراة عربية بوجه عام والمراة العراقية بوجه خاص من سجنها لتلعب نفس الدور الذي تلعبه المراة الامريكية على مسرح الاحداث في الحياة العامة وفي تربية الجيل الجديد ، فانطلاقا من هذه الاحاسيس المرتبطة بحب الوطن والتفكير في بناء المستقبل كتبت مقالا مطولا عن المراة في امريكا وفي العالم العربي [illegible] اجتزىء منه المقتطفات التالية :

المراة سر غامض في مجموعة اسرار هذا الكون حاولت كشفه الادمغة وبحث فيه الكتاب والشعراء ، فمنهم من وصفها زهرة الحياة ومنهم من نعتها تربة الجمال والى ما هنالك من الاوصاف في هذا الصدد حتى اصبحت المراة محور بحثنا وموضوع حديثنا ومكتوبنا واحاسيسنا .

اجل : ان المراة سر من الاسرار ، فهي منبع طموحنا ، وباعثة نشاطنا وسعينا واساس وجودنا . هي في نظري عماد الكون ومصدر الرقي والتقدم في مجالات حياة المجتمع ، فبكمالها نكمل ، وبرقيها نرتقي ، هي مربية الجنس وقاعدة وجودنا ، فان كانت صالحة كنا صالحين وان كانت متاخرة بالنعمة التربية كنا كذلك .

غوامض الطبيعة وما اعقدها . لقد ناضلت العقول مسوف المعقدات حتى اكتشفت اسرار في الكون وكمية وجودنا .. اسرار هي الطبيعة وسنعمل كشفها الى يد الابدين .. هي تلك الطبيعة عينها وما يثيره حتى تشعل جذوة الاحاسيس في صدور الجنسين فيتفقا بينهما حتى يتعاونون حتى يتحركوا ذاتهم وبتعاونهم ارتقت الامم الى مستوى الابداع والتقدم . فالشعب المتقدم هو الشعب الذي فتح بابا واسعة لذلك التعاون . وبذا نجد احترام المراة عند الامم المتقدمة في الحضارة اكثر منه في الامم المتاخرة .. ان الامم المتقدمة اعطت مطلق للمراة حريتها شيئ فشيئا حتى سمحت اليوم بمساواتها للرجل في كثير من الميادين التي كانت محدودة امامه . المراة الامريكية تجدها اليوم مع الرجل في

محققة بمفردها ، هي [illegible] من اعمال [illegible] فيها . ثم [illegible] في
حرب كما [illegible] تحقق في [illegible] وحققت تفوق الرجل وزميله في صنعته
حتى أصبحت مستقلة في [illegible] وعملها وحياتها . وهكذا فقد حققت استقلالها
بحقوقها وشعرت بمسؤولياتها في المجتمع . وليس غريبا اذا اعتبرت [illegible]
الرجل مساويا لها في شتى مجالات الحياة .

شيء قد شعر به كثير من [illegible] ونقيم من وضع شخصيته على قدم المساواة
من قبل [illegible] وزملائه [illegible] يحصلون على مقعد [illegible] حتى [illegible]
يستمعون [illegible] في محاضرة التدريس ، ومن هو [illegible]
الثالث من عمرها بعد مسواة كرسي التدريس .

ان عمل المرأة الامريكية لا يقتصر على ميدان التدريس والاستفادة من ثقافتها
الى ساحة الالعاب الرياضية . فالامريكي شديد الشغف بالالعاب الرياضية
البدنية وشديد ميله الى لعب الكرة فالشعب عامة يحب [illegible] في
الالعاب فوق مدرجات ذوي الالعاب [illegible] على [illegible]
المدينة ، ترى الكبير والصغير ، المرأة والرجل ، الشاب والعجوز ، كل حديثهم
عن الالعاب الرياضية وشهير اللاعبين ، حتى اذا كان من [illegible] في احدى
المدن او الجامعات تجذب مشاهدته الوفا من الناس من كل ناحية وصوب .
اما من لم يتهيا له مشاهدة [illegible] فالراديو ينقل له كل ما يحدث على ساحة
اللعب . كانت تلك الالعاب مقتصرة على الرجل يتفاخر بقوته وعضلاته
ومهارته في الالعاب . أما اليوم فاصبحت المرأة تروض بدنها حتى [illegible] الرجل
في كثير من الالعاب الرياضية . فنجد المرأة الى جانب الرجل على شواطئ
البحر برداء السباحة كما نجدها على ساحة اللعب بارتداء اللون الجميل .

عام قد مضى منذ تحررت ولاية تكساس وباشر الوطنيون لانتخاب حاكم
ولايتهم ، فكثرت الخطب ونشطت الاحزاب وكتبت الصحف و[illegible] الاعلانات
في كل مكان حتى لم يمض على الانتخابات مدة قصيرة حتى [illegible] مدام
فرجسون ، بمنصب رئاسة الولاية .

سنة كاملة قد مضت والمدام فرجسون ممسكة كرسي الحكم في ولاية
تكساس . فلا تزال صور حادث يوم زيارتها لكليتنا عالقة في ذهني فكان لزيارتها
اهتمام كثير اذ اصدر قائدنا الامر صباح ذلك النهار بوجوب التأهب لعرض
يقام خصيصا لها . وها اني انقل فيما يلي ما دونته في مفكرتي عن زيارة مدام
فرجسون لكليتنا :

• الخميس ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٥ :

• لشعب الولايات المتحدة يوم وطني يطلقون عليه اسم « عيد الشكر »
وفي الانجليزية (Thanks Giving Day) هو عيد وطني يقع عادة نهار

الخميس من الاسبوع الاخير من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) في كل عـــام يحتفل فيه المواطنون على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم ، فيتوقف كل الاعمال في ذلك النهار وتقفل المحلات والمخازن والدوائر والمعامل رمزا للشعور القومي وشكرا لله على نعمه وخيراته التي اغدقها على الاهلين في خلال العام .

« قدمت مدام فرحسون تزور مدرستنا ذلك النهار فصدر الامر من قائدنا العسكري بالتأهب لاستعراض باللباس الرسمي والاسلحة الكاملة وقد اعلن وصول حاكمة الولاية في الساعة الخامسة بعد الظهر ، فما كاد يصفر القطار في المحطة معلنا وصولها حتى اطلقت فرقـــة المدفعية احدى وعشرين طلقة متتابعـة .

« كان مجموع الطلبة بفرقه العديدة حوالي الفي طالب كل فرقة تمشـي وراء حامل رايتها ، ولما كنت انتمي الى فرقة الخيالة فقد كنت بين الصفـوف الاخيرة حاملا بندقيتي ومقمطا بالاحزمة فكنت اسير بين رفاقي وافكاري طارت باجنحة التأمل الى تصور حالتنا في الوطن البعيد ، فتصورت ما اعتدت رؤيته، رايت ما اعهده من القيود التي ربطت المراة ، رايت الحجاب وما يتبعه من القيود فتجسم لي الوضع الذي تعيشه المراة عندنا باجلى مظاهره ، واتضح لي تطرفنا في تقييد المراة وحرمانها من نور الحرية والثقافة ، فرسخ اعتقادي تلك الآونة بوجوب تحرير المراة عندنا شيئا فشيئا بعد ان تفتح لها المدرسة الباب لترى النور الذي حجبه عنها الجهل ، لقد تطرف الغرب في اطلاق الحرية للمراة وتطرف ابناء الشرق في حرمان المراة حريتها وما من تطرف الا وعاقبته غير حميدة .

« انتهى الاستعراض فاقبل علينا رئيس فرقة الخيالة واثنى على همتنا ، ثم قال وهو يبتسم : لقد اصبحنا في عصر يستوجب حصر اهتمامنا في نيل رضا الجنس اللطيف . فضحك الكل واذن لنا بالانصراف . »

فتاة امريكا لا تفقد جنسيتها عند اقترانها باجنبي فهي تحتفظ بجنسيتها ولا تتبع جنسية بعلها عند الزواج .

ان المراة الامريكية تنظر الى الرجل كرفيق يتعاونان كلاهما في مسيرة حياتهما الزوجية حتى يبلغا طريق السعادة التي ينشدانها فان لم يتحقق ذلك فالدواء الطلاق وما اسهل الطلاق في امريكا فلم يمض على اقتران الزوجين شهر حتى تقرأ اعلان افتراقهما .

وانا اذ اشرح بعض جوانب الدور الذي تلعبه المراة في امريكا في المجتمع الامريكي ارجو ان يكون في ذلك الحافز لغربلة احوالنا في ضوء من سبقنا في مضمار التقدم فناخذ الصالح من الحضارة الغربية ونتجنب الطالح فيها في تطوير حالة المراة العربية الى ما فيه خير المجتمع العربي .

٥ ـ دراستي في امريكا

لقد قضيت ست سنوات في امريكا وذلك بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٠ وتنقلت في خلالها عدة جامعات وكليات في مختلف انحاء امريكا ، مما ساعدني على التنقل من كلية او جامعة الى اخرى على درس الحالة الاجتماعية والجغرافية في مختلف انحاء الولايات المتحدة الامريكية . مع العلم ان هذا التنقل لم يحدث اي تأثير في منهجي الدراسي او وضعي الاقتصادي لأن منهج الدراسة الجامعية في امريكا موحدة فالنظام موحد في كل جامعات وكليات امريكا مع فروقات بسيطة . فاذا داوم الطالب في احدى الجامعات او الكليات في فترة من الزمن يستطيع ان يتحول الى اية كلية او جامعة اخرى في اية ناحية من نواحي الولايات المتحدة الامريكية مستصحبا معه استشهادا بقسم الدراسة التي اتمها في الجامعة الاولى ويعتبر هذا القسم جزءا من منهج الدراسة المطلوبة للتخرج على ان يداوم سنة دراسية كاملة في الجامعة التي يتخرج منها في السنة الاخيرة حتى يحصل على شهادته منها . وفي اكثر الجامعات دورات صيفية فاذا داوم الطالب دورة صيفية يكون قد اتم ما يعادل ثلث سنة دراسية كاملة . ولما كان وضعي الاقتصادي لم يؤثر في تنقلي سواء اكنت في جنوب امريكا او شمالها ، في شرقها أو غربها حيث كنت أدرس على نفقتي الخاصة ، فتنقلت بين سبع جامعات وكليات وحصلت على ثلاث شهادات علمية عالية من ثلاث جامعات بدوامي في كل منها سنة دراسية كاملة ؛ وهي سنة التخرج التي يشترط قضاؤها في الجامعة التي يتخرج الطالب منها . وقد استفدت من نظام الدورات الصيفية فدخلت ست دورات صيفية في مختلف انحاء امريكا وذلك بغية اكمال دراستي باسرع وقت ممكن لاعود الى وطني باقرب وقت فاعتبرت هذه الدورات الصيفية الست معادلة لدوام سنتين دراسيتين . وبذلك اصبح مجموع السنوات الدراسية التي اتممتها في منهج دراستي في امريكا ثماني سنوات دراسية .

وهذه هي الكليات والجامعات السبع التي دخلتها في مختلف انحاء امريكا بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٠ .

١ ـ الكلية الزراعية الميكانيكية العسكرية في بريان (ولاية تكساس)
٢ ـ الكلية الزراعية في شمال تكساس في ارلنكتون (ولاية تكساس)
٣ ـ جامعة تكساس في اوستن
٤ ـ كلية كولورادو في كولورادو سبرنكس (ولاية كولورادو)
٥ ـ جامعة جورج واشنطن في واشنطن
٦ ـ جامعة شيكاغو في شيكاغو (ولاية ايلينوي)
٧ ـ جامعة جونس هوبكنس في بالتيمور (ولاية ماريلاند)

وفي جامعة جورج واشنطن حصلت على جائزة وبدل التعليم



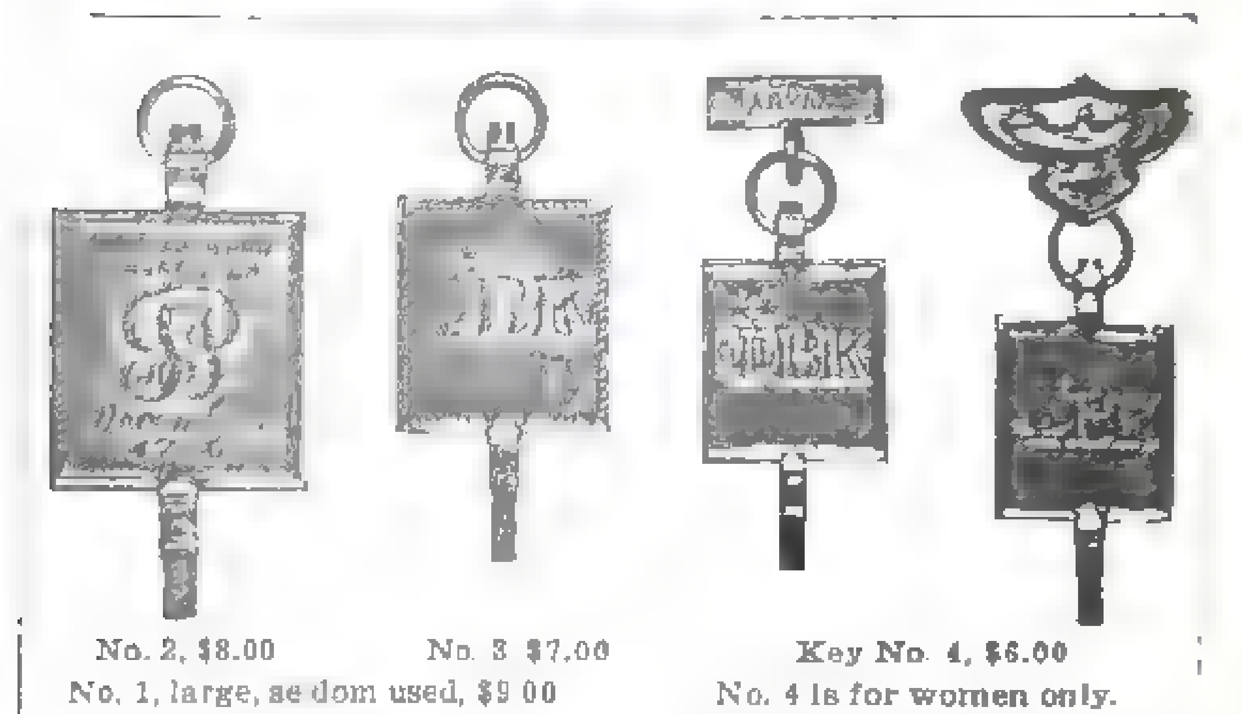
المصور رقم ٤٢ — سرب من طالبات جامعة لكسنتن في احدى سفراتهن .
انظر الفقرة ٤ ،



المصور رقم (٤٣) — المؤلف في كلية ڤناس العسكرية (انظر الفقرة ٥)



التصوير رقم (٤٤) — المؤلف في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الامريكية .. (انظر الفقرة ٥) .



تصوير رقم ٤٥ — المفتاح الذهبي الذي يمنح ... بتفوق (انظر الفقرة ٥)

(Wedoel Peace Prize) بمبلغ خمسمائة دولار التي تمنح كل
سنة لكاتب أحسن مقال علمي في موضوع عام من شأنه أن يوطد عرى الصداقة
والعلاقات الحسنة بين دول العالم . وكان من بين الذين شاركوا في هذه
المباراة عدد من المدرسين الذين كانوا يواصلون دراستهم العالية للحصول على
الدكتوراه . وكم كان اغتباطي عندما أعلنت أسماء الحاصلين على الجوائز في
حفلة التخرج فكان اسمي من بينهم فتقدمت الى المنصة لتسلم الجائزة وسط
تصفيق الحاضرين واذا بها كيس يحتوي على نقود ذهبية من فئة خمسة
دولارات ، وهذه لا يتداول بها الا نادرا . فاحتفظت بالكيس في بيتي حتى
الى أن اضطررت الى تحويل النقود الى عملة ورقية . فدهش موظف البنك وقال من
أين أتيت بهذه النقود ؟ وقد أوضحت له أني طالب في الجامعة وقد حصلت
عليها كجائزة علمية للطلاب وعلق عليها وأعطاني ما يعادلها بالدولارات
الورقية .

وقد أتيح لي عندما كنت في جامعة جورج واشنطن أن أحظى بمصافحة
رئيس الولايات المتحدة الأمريكية المستر هوفر وزوجته في البيت الأبيض . وقد
تم لي ذلك بواسطة صديقي في الجامعة الدكتور [illegible] الذي ذكر لي ذات
يوم أنه سيزور البيت الأبيض هو وزوجته [illegible] ويمكنني
مرافقته في هذه الزيارة ان رغبت في ذلك . فشكرته مرحبا بهذه الفكرة
وفي الوقت المحدد ذهبنا الى البيت الأبيض حيث كان جمع كبير ينتظر حتى
يأتي دور كل واحد منهم فيصافح الرئيس وزوجته بعد أن يعرف نفسه بهما
ثم يجلس على أحد المقاعد المعدة في القاعة وعندما جاء دوري عرفني الأستاذ
الى الرئيس وزوجته وقال لهما اني طالب من العراق ، فرحبا بي ، أدرس
في الجامعة للحصول على شهادة الماجستير فرحبا بي عند مصافحتهما . ثم
جلسنا على المقاعد بجانب الحائط فقدمت لنا القهوة في القاعة وشربت الشاي في
أكواب خاصة نقش عليها اسم البيت الأبيض وشعار الجمهورية .

وكان حصولي على الجائزة وتلك المقابلة خير حافز لمواصلة دراستي بشوق
زائد وعملت فيها حتى تم تخرجي في جامعة جونس هوبكنس وحصولي على
شهادة الدكتوراه بشرف . فانتخبت عضوا في جمعية فاي بيتا كب
(Phi Beta Kappa) التي تمنح عضويتها لكل من يتخرج من الجامعات
الامريكية بتفوق ، ولهذه الجمعية تاريخ حافل اذ يرجع الى زمن اعلان استقلال
الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٧٧٦ فأسست لأول مرة في كلية وليم وماري
في فرجينيا في ٥ كانون الأول ١٧٧٦ ثم تأسست لها فروع في أكثر الجامعات
الامريكية وفي سنة ١٨٨٣ أسس اتحاد لجميع الفروع ومركزه في نيويورك .
وكانت العضوية في هذه الجمعية كانت مقتصرة على الرجال فقط ثم منح الحق
للمرأة في الدخول في عضويتها سنة ١٨٧٥ . ويتكون شعار الجمعية من وجهين :

اوجه الاول يحمل حرفي (اس وبي) وهما يمثلان الحرفين الاولين للكلمتين اللاتينيتين (Socetas & Philosophice) اي جمعية الآداب المسمية ، ويحمل اوجه الثاني الشعار اليوناني « حب القيادة اي المعرفة » Love of Wisdom the helmsman) ، وهناك اشارة الى ثلاثة نجوم ترمز الى الزمالـــة والفضيلـــة والأدب (Friendship, Morality and Literature)

وللعضو الحق ان يحمل شعار الجمعية المكون من مفتاح ذهبي عليه شـــعار الجمعية ولهذا المفتاح مكانة علمية متميزة للشخص الذي يحمله في المجتمـــع الثقافي الامريكي ، لذلك يشاهد الحاصلون عليه يحملونه في مكان بارز للعيان اعتزازا به ، وقد كان هذا المفتاح واسطة على فتاة امريكية على ظهر الباخرة في عودتي من امريكا الى العراق كانت تحمله حكم النصيب ان تصبح زوجتي وسيأتي ذكر ذلك فيما سأقصه عن اول زواجي بفتاة امريكية .

اما موضوع دراستي العالية في امريكا فكان الهندسة المدنية كما سبقت الاشارة الى ذلك ، فحصلت على شهادة ب.ع. هندسة مدنية مع اختصاص في هندسة الري ، ثم رغبت في دراسة القانون الدولي فحصلت على شـــهادة الماجستير والدكتوراه في القـــانون الدولي مع اختصاص في الانظمة الدوليـــة الخاصة بالانهر المشتركة بين الدول لما لهذا الموضوع من صلة مباشرة بانهـــر العراق وفي مقدمتها مشكلة نهر الفرات وهو مشترك بين ثلاث دول ومشـــكلة الانهر التي تنبع في ايران وهي مشتركة بين دولتين .

٦ ـ الامس واليوم [٣]

قرب بابل خلقت ، وعلى ضفاف الفرات نشأت ، وسط أحاطت به عظمة اجتذبت الفرنج اوروبا ، لما حوته من آثار ، هي أس معجزات حضـــارتنا .. اطلال وربى تحير عقل الزائر بجلالها ، تملأ نفس المرء اعجابا بمكنونها ..

كم من مرات زرت بابل ، وكم من مرات مررت بنمرود[٤] ، فما كنت الهم الا اليسير من عظمة ماضيهما !!

في وسط الصحراء ، اطلال « الاحيمر »[٥] كان الاقرنسيس يعبرون بين تلولها ، تصدتها وانا صبي ، فما كنت ارى غير الاكام جهلا عظمة من عاصرها

---

(٣) كتبت هذه المقطوعة في خلال مواصلتي الدراسة في كلية كولورادو الامريكية ، وانا في احدى المتنزهات على قمة احد جبال كولورادو الجميلة حيث الشلالات السبعة الشهيرة .

(٤) هي برس نمرود (مدينة بورسبا البابلية) تقع اطلالها وبقايا برجها الشاهق نحو ٩ـ١٠ اميال جنوب مدينة الحلة .

(٥) هي بقايا مدينة كيش التاريخية الشهيرة ، تقع اطلالها على بعد حوالي ٥٢ كيلومترا من شمال شرقي بلدة الحلة وزهاء خمسة عشر كيلومترا من شرقي بابل .

في صحيق الزمن ..

حسب [illegible] حبه ، فيحدثني وحدوتها ، فهي مستطعة رأسي ووضعت ذكـريات [illegible] ، [illegible] وندي ، كم شربت من [illegible] وهي محرومة من [illegible] [illegible] [illegible] .. ثم نقل مشروع [illegible] الهندية [illegible] كم [illegible] [illegible] معشي .

[illegible] تزل ذكريات [illegible] يوم أجلس [illegible] في [illegible] .. [illegible] [illegible] صغيرة [illegible] ووجدت [illegible] [illegible] وهم يقصدون [illegible] الهندية ، [illegible] [illegible] [illegible] أبو [illegible] ..[6]

للمرة الأولى جرت مياه الفرات في وسط [illegible] . [illegible] منها كثيرة ، [illegible] دبيب الأمس ، حاملة من الزبد رغوا ، ومن ورق الأشجار كثيرا .. [illegible] لها من ذكريات جميلة ، تثير من الشجون أزكاها ، ومن الأحلام [illegible] ..

أحسست [illegible] [illegible] [illegible] ما [illegible] [illegible] [illegible] ومن [illegible] .. أحسست [illegible] ، ووجدت [illegible] [illegible] [illegible] .. من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، ومن [illegible] [illegible] عرفت [illegible] [illegible] [illegible] .. [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عرفت [illegible] [illegible] [illegible] .. عرفت [illegible] و [illegible] . [illegible] [illegible] . ومنهم [illegible] [illegible] [illegible] .

كان لي [illegible] ، فرس يسمى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] ، [illegible] به [illegible] [illegible] [illegible] .. [illegible] وكم من [illegible] [illegible] [illegible] في البرزي ، ومن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .. كم من [illegible] [illegible] فيه [illegible] [illegible] [illegible] ، وفي [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] على ظهر [illegible] [illegible] [illegible] في وسط [illegible] وكـلاب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وأخرى [illegible] الأمام [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] ، وكواكب منيرة ، سكون وهدوء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، وبين آونة وأخرى تسمع [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] أن آوى [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من بين [illegible] [illegible] [illegible] .. [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] فسيان [illegible] عرفت [illegible] [illegible] يعرفك بقبلك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، فتسمع صوته [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] وهو يقول « السلام عليك » .

تلك هي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أيام [illegible] ووضعت

---

(٦) انظر ما تقدم عن مشروع سدة الهندية في القرنين ١٩و٢٠ من الباب الاول من هذا القسم.

حجر الزاوية لاساس حياتي ، مبداي ومعتقدي ، زمنني برد ، الفطرة البدوية مربية ووضعت على جيدي طوقا بالروح المرية مرصع .. ايام ولياليهـا مضت ولكن ذكراها في نفسي خالدة ، وصورها في جوف قلبي مرتسمة ..

سعيد ذري من عاش بين ربوع الرافدين وزروعها ، ارض الرشيد هي محور الذكرى والاماني .. فاجمل لك يا دار لحـلال روحا ترسمه ، اعلى الاعراب رائدها ، واعلاء شان العراق مرادها .

أتت الوغى وويلاتها ودنا بالاتربيج اباتو بالقرب من الديار .. وصار دوي المدفع يرن بالاذان .. ثم جاءنا عاكف وعساكره ، فاراتا من الذل والهـوان ما لم تره الفيحاء طول عمرها .. نصب المشانق واخذ يمس ابطال الديار بالرعيل بعد الآخر .. اراد بطاغم موتهم وما ليته درى بانهم احياء وقد حفروا في قلب كل عربي حر من التبجيل ما يجعل موتهم حياة جديدة لا تموت .

مضت الأيام واذا بجيوش عاكف اخذت تراجع الى الوراء ، فمالت الى اعز ما كان لي تريد اغتصاب « معنكيني » .. هربت وفي وسط ضوضاء جيش منسحب سارت بمن اهوى واما مسند صهوتها ، كانها عقاب وقد دعاه جيش الظلام الى وكره ، فانقذت حياتي وبالتبادل من يد الاتراك انقذتها ..

جاءنا الانكليز بسياراتهم وطياراتهم فحسبوا غوثاً وشتت معدت نهرونا . رحب الناس بهم وهم يمنون بالتحرير وبسفد الوعود يرقبون .. ولكـن لم يمض وقت طويل حتى ماتت الآمـال وخابت الظنون ، فثار احرار العـراق وبالدماء خضبوا ماء نهرهم ، دفاعا عن حقوق مغتصبة وحبا بعز البلاد ومجدها دتلوا .. رحم الله زيدان ان كان ماتنا ، واطال عمره ان كان حيا .. فما ارق صوته وما اعذب كلامه اذ نقد اجتمع الاعراب حوله ذات ليلة حيث كانت اشعة البدر تضيء الفضاء ، فرنم عقيرته في ذلك الفضاء الساحر وهو يغني الى جانب « ربابته » الابيات العامية الآتية :

« اتانا الذل يا ليت الموت يدنى ..
« الخادم طال واحنا (نحن) اكصرت (قصرت) يدنا ..
« وانجانك (ان كنت) محمد (صلعم) صدك (صحيح) جدنا ..
« فكنا من زمان الصوحريه , العسكريه الانكليزية) .

ثم اتانا كوكس بالوعود ، بساد السلم ، وعلى تنفيذ الوعود عقدت الآمال وركزت الاماني ..

جلس فيصل على العرش فاضطرمت في نفوس الشبيبة روح الوطنيـة تعالت في سماء العراق بعد افولها اجيالا كثيرة ، وبدات تسير قوافل الشباب افواجا نحو اسوار المدارس ..

تلك هي الحوادث التي ضربت على أوتار نفسي ، فوثبت ومن قبل جهلي مشيت الى صفوف الجد وهدي الارشاد من مناهل العلم والعرفان ... وما أصعب الفراق !. فودعت الرفاق ومدمعي من الدموع قاصدا بلاد غريبة تاركا ورائي العزيز في الحياة من رفيق ونسيب ، صديق وقريب ، بلاد وديار ...

بلادي ، عزيزة بحلوها ومرها ، بأتراحها وأفراحها ، هي أم حنونة من ثدي الفرات سقتني ماءا عذبا ، ومن حبوب بعرق الجبين اختمرت طعمتني عيشا طيبا ، من ثمار أشجارها اليانعة أكلتني ومن ظلال أغصانها عند اشتداد الحر سترتني .. ما أطيب خبز الشعير وهو من نبات أرض الرافدين مخبوز، وما ألذ اللبان وهو من ثدي أغنام العراق مستحلب !.

بلادي ، ولها أضمر حبا يحاكي حب الرضيع مرضعته ، ولما آن أوان الوداع أوحت الي هامسة : لك مني يا بني مزيد الحب والحنان ، فان عدت للبلاد نحو نور عدك واعماله سطر ، سر يا صبي والخالق يرعاك ، فاذكر لعيش ولبن الصغر ، ولكن ذكرى الوطن نصب عينيك انى كنت وحيثما صرت ، فان الله يود الوفي ..

رحلت ، وقد سجلت دموعي وعدا هو دين علي ، فالوفاء بالوعد أصبحت تدور آمالي وأحلامي ..

بلغت بلدة الرشيد ومنها قصدت الحدباء حيث وقفت في أطلال نينوى عظمة تحاكي عظمة بابل .. ثم قطعنا أرض ما بين النهرين ، دجلة والفرات ، وبعد ان اجتزنا العراق سرنا شمالا ، والغرب يلازمنا جنب ، حتى بلغت الشهباء ، ومنها امتطينا قطار سلفت بيروت حيث الجامعة الامريكية غذت حياة جديدة ملأت صدري وحيا وطموحا .. هناك لقيت أبناء الوطن ومنهم وجدت حبا وأملا وطموحا .. ما مضى الا القليل حتى وجدتني وبينه ...ـاد شعفا معمما ، لعني وعمم نحوها كان أسهل علي من شرب اللبن ، العرب كان استاذي فباخلاصهم وعونهم أحسست النحو حتى أستيقن وبقيت نصيحة أستاذ مقال .

جامعة امريكا وارتباطها بالعالم الجديد لفتت بالمدة طموحي فأصبحت نفسي تريد التجوال في أرجاء العالم الغربي .. امتطيت متن بحر الروم موليا وجهي نحو ... كوزمسر قاصدا أرض اليهود ... .. فوقفت ... حيرة الاوربي أمام ناطحات السحاب ... ورأيت ... رمز من النحل والى ... مسرعون ، ورأيت ورأيت وكان كل ما رأيت يمثل المدنية الصناعية الحديثة بأسنى درجة تقدمها .

ستا من السنين قضيتها في الولايات المتحدة الامريكية ، آنا بجنوبهـا تحـدى واخرى بغربها ، وتارة بشرقها وطورا بشمالها ، ولجت عـددا من الجامعات والكليات في مختلف انحائها شغفا بدراسة المجتمع الامريكي دراسة عملية على أمل ان اساهم يوما ما مع العاملين في اصلاح شؤوننا واعلاء شأن عراقنا الحبيب ٠

كم قلت يا ليتني بقيت جاهلا وفي الجهل دفينا !٠٠ اراني العلم تاريخ دسائس وصراع جرت على مسرح ديارنا وقد كنت اجهلها ٠ اراني العرب ابيض واسـود ، وما كنت عرفت في وطني غير انسا حيوان ناطق والكل سواء ٠٠ هـذه مدنية الغرب ، رأيت فيها غرورا جنسيا ، يعزل فيها الابيض عن الاسـود ، والغربي من الشرقي ، وما كنت عرفت في وطني غير المساواة ٠٠ يعزلـون في بعض ولايات امريكا ابن حواء كما يعزل الرعاة اغنامهم ، فتجد محلا لا يدخله غير الأسود وترى في القطار للابيض محلا خاصا لا يمسه الاسود ٠

في الجهل والسذاجة كنت وجدت راحة النفس وسكونها ، وفي جمـال الطبيعة كنت قد الفيت روبحا واطمئنانا ، رأيت الان ناطحات السـحاب وسـواد الجو يعمي الابصار ، رأيت الناس تركض ومرامها التمويل ، رأيت القوي يستعبد الضعيف ، رأيت غاصبـا ومغتصبا ، ظالما ومظلوما ، غنيـا يتباهى بمنتوج مدنيته الحديثة ، وفقيرا يتضور جوعا ، وما اكثر مشـاكل المدنية الحديثة القائمة على المادة !٠ رأيت ورأيت ، عرفت وعرفت ، فاتضح الخفي ، وباتضاحه غدا عذابي يكثر ، وكثيرا ما يكون الجهل مجلبا للسعادة ، وكثيرا ما يكون في المعرفة شقاء ٠٠

رأيت بلاد العز والمجد في الوراء بعد ان كانت منار البسيطة ، اللهـم ، فكيف السبيل الى استعادة ذلك المجد العابر ؟ أفي القعود والتقاعس ؟٠ لقد دنا الأوان يا بني العراق ، كنت كما كان الكثير منا نجهل واجب الوطـن ومعنى الحياة ، فذاك زمن مضى وكالنجم افل ٠٠ لكم يا بني الاوطان بتاريخ الأمس فخر مجيد ، كفانا قعودا وبذاك الفخر نصوغ الاحلام ، هذا زمن عمـل ومن لم ينهض ليعمل في سبيل فخر الغد فاقرأ على مجد الأمس السلام ٠٠

مسئولية ويا لها من مسئولية كبرى تقع على عاتق كل فرد في مجتمعنـا العربي ٠٠ واجب مقدس ـ هو واجب الاتحاد والتآخي لنعوبة الروح العربيـة الحقة والتضحية الصحيحة ٠ لنغذ الشعور بتلك المسؤولية وذلك الواجب ، اذ بهما يزول ماء الذل فنعود ونمخر المجد نسيّر بواخر النصر والمجد مرددين قول الشاعر :

لا تسقني كأس الحيـاة بذلـة
بل فاسـقني بالعـز كأس الحنظـل

التصوير رقم (٦)
المؤلف في حدائق كولورادو (انظر الفقرة ٦)



التصوير رقم (٧)
المؤلف في كلية تكساس العسكرية (انظر الفقرة ٦)



التصوير رقم (٨)
المؤلف في كلية تكساس العسكرية
(انظر الفقرة ٦)

٧ ـ مغامرات غرامية

ما من ذكريات ترسخ في ذهن المرء بعد بلوغه سن الشيخوخة مثل مغامراته الغرامية عبر مسيرة حياة الشباب . فقد صدق المرحوم الشيخ الشبيبي حين قال :

« عهد هوى كنا عهدناه
يعني اصطباري عند ذكراه

لا انا انساه فاسلو ولا
تذكره انت فترعاه . »

ان الحب مفتاح القلوب تخضع لسلطانه الغني والفقير ، الحاكم والمحكوم ، القوي والضعيف على السواء ، فهو الذي يصمم جسر الحياة بين جرف الامل والسعادة وبين اليأس والشقاء ، فان وجد له تربة صالحة ازدهر واثمر ثمارا يانعة ، والا كان نقمة ووبالا ... وما اصدق قول الشاعر في ذلك ايضا :

« يا زمان الحب قد ولى الشباب
وتوارى العمر كالظل الضئيل

وانمحى الماضي كسطر من كتاب
خطه الوهم على الطرس البليل »

وانا لم اكن الا واحدا من هذه الزمرة البشرية التي تتأثر بعاطفة الشباب وتحس بشعور الحب والغرام ، وخاصة ما كان يحدثه تأثير انتقالي المفاجيء من محيطنا الشرقي المحافظ الى محيط العالم الجديد بما يتميز به من حرية وتطور فكنت والحالة هذه كمن كان نائما ثم استيقظ فجأة ليواجه عالما غريبا غير عالمه بكل حواسه . والعلاقات بين الجنسين تلعب دورا بارزا في المجتمع الامريكي . وأهم ما تأثرت به في هذا المجتمع الجديد ما كنت اشاهده على شاشة السينما من تبادل الغرام بين الجنسين واذا بي اشاهد ذلك يطبق عمليا تماما كما هو على شاشة السينما ، ولم اسلم من الاكتواء بناره فوقعت في شركه فعلا في اولى سني دراستي في امريكا وظل يلازمني سنة بعد أخرى حتى انتهى بزواجي . وانا اذ اقص هذه الحوادث الشخصية التي اسميتها بمغامرات غرامية انما استهدف من ذلك الكشف عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية في امريكا ، تلك الحياة القلقة غير المستقرة التي يواجهها الطالب الشرقي في المجتمع الجديد حين يحتك به لاول مرة .

وخلاصة الحادث الاول اني تعرفت على أحد زملائي في الصف عندما كنت

في كلية ارلنكتون اسمه استر بيكر كان هو وزوجته وطفله نازلين في بيت قريب من الكلية فدعاني لزيارته وعرفني على زوجته . وفيما كنا جالسين في الصالون دخلت فتاة رائعة الجمال فعرفني زميلي عليها وقال انها ابنة رب الدار واسمها ماكيلي وهو يرعى شؤون كنيسة البلدة ثم دخلت امها فعرفني عليها أيضا . واخذنا نتبادل الحديث في مواضيع مختلفة أكثرها عن العراق ، ثم طلب زميلي من الفتاة ان تشنف آذاننا بعزف قطعة موسيقية على البيانو فعزفت وقد صفقنا لها . وقد علمت من سياق الحديث ان الفتاة متخرجة من معهد الفنون الجميلة وهي وحيدة لاهلها . والفتاة آية من الجمال تقرأ على نضرة وجهها وحلاوة ملامحها الاحتشام وهي تمثل نموذجا من حياة العوائل الامريكية المسيحية القديمة وتعتبر محافظة بالنسبة للعوائل في المدن الكبرى من الولايات الامريكية . ومرت الايام وأنا اتردد عليها بين حين وآخر فنخرج الى المنتزهات القريبة ، ثم كثرت لقاءاتنا فصرنا نلتقي يوميا دون انقطاع حتى تطورت علاقتنا الى حب وغرام . وكان صاحبي ينقل اليّ باستمرار أخبار الفتاة وشعورها نحوي وخاصة ما تبوح به لزوجته عن وقوعها في حبي، وكنت واثقا من أنها تحبني حبا صادقا لا شائبة فيه وانها مستعدة ان تضحي كل شيء في سبيل تحقيق حلمها بارتباطنا برباط الزوجية ، وباختصار ان كلانا وقع في الشرك . وكم كنت اتمنى هذا الزواج لو كنت مستعدا له لان الفتاة كانت كاملة الصفات من جميع الوجوه وهي تحبني من اعماق قلبها وانا احبها وهنا أخذ يدور في ذهني التفكير في المستقبل : لقد تغرّبت عن وطني وقد جئت الى هذه البلاد لتحقيق هدف معين هو اتمام تحصيلي والعودة الى الوطن لانضم الى الاخوان في خدمته . فهل اضحي بكل ذلك ، هل انسف كل أحلامي وآمالي لانتهي بمغامرة مجهولة النتائج قد تجرني الى ان اهجر وطني لاعيش حياة الغربة طيلة حياتي ؟ لا . لا . لن يكون شيء من ذلك . ولن احيد عن الهدف الذي عاهدت نفسي على تحقيقه . فلا بد من انقطاع هذه الصلة والرجوع الى الوفاء بالعهد الذي قطعناه نحو الوطن . وهنا قررت الابتعاد عن مصدر هذا الشرك ومغادرة هذه الكلية باقرب وقت ، وقد تم ذلك فعلا ، فبعد انقضاء الدورة الدراسية مباشرة غادرت كلية ارلنكتون لالتحق بكلية كولورادو في غرب الولايات المتحدة الامريكية . وبعد وصولي مباشرة الى البلدة التي تقع فيها الكلية أرسلت الى فتاة أحلامي رسالة رقيقة ومؤثرة شرحت لها فيها ظروفي وهي ان واجب الوطن يدعوني بان اكرس كل جهدي وطاقتي في سبيل تحقيق الهدف الذي جئت الى هذه البلاد من اجله اي اكمال تحصيلي والعودة الى بلدي لذي هو باشد الحاجة الى ابنائه من الشباب المثقف لينهض به الى ما يصبو اليه من تقدم وتطور ولما كان ذلك قد يستغرق عدة سنوات فلا يمكن أن يتم في مثل هذه الظروف زواجنا . لذلك ان الواجب يقضي بأن ننسى الماضي على الرغم من الألم الذي يخلفه لافسح المجال لها ان

بعد رفض حياتها وهي لا تزال في ربيع شبابها ، وودعها بكلمات عاطفية رقيقة ولا ازال احتفظ بتصويرها وتصوير صاحبي وزوجته وطفله وهو الذي كان سببا في ورطتي دون قصد وهكذا انهيت مغامرتي الاولى بسلام .

ذهبت الى كولورادو ، وما اجمل كولورادو ، وما اروع مناظرها الساحرة الخلابة !! هي بلد الحب والغرام . فقد حباها الخالق باسمى آيات الجمال حيث الطبيعة بارعة مظاهرها .. وكولورادو مشهورة بمساقطها السبعة (Seven Falls) اي شلالاتها السبع . وما كنت احسب حسابا للقدر الذي ما كاد ينقذني من ورطتي الاولى الا ليرميني باحضان ورطة ثانية لم استطع التغلب عليها والافلات منها هذه المرة فغلبت على امري ولازمتني طوال السنوات التالية التي قضيتها في امريكا . وهذه قصتي الجديدة اشرحها باختصار :

كانت البلدة التي قصدتها تسمى « مساقط كولورادو » (Colorado Springs) نسبة الى المساقط السبعة التي تجاورها وهي تقع في ولاية كولورادو . وما ان وصلت اليها حتى راجعت ادارة الكلية مرودي بقائمة اسماء العوائل التي تقبل عندها الطلاب . فاخترت احدى هذه العوائل القريبة من الكلية وهي تسكن بيتا جميلا مؤلفا من عدة غرف اخترت احداها ونقلت امتعتي اليها . فأصبحت هذه الدار ملجأي الدائم طوال سنيي وجدت فيها كل اسباب الراحة فضلا عن التمتع بالجو العائلي الذي نفتقده في غربتنا، اذ كان لدى العائلة طفلان جميلان يزيدان الجو العائلي زهوا ونعيما . لم يمض اسبوع على وجودي في بلدة « مساقط كولورادو » حتى نزلت في نفس الدار في غرفة مجاورة فتاة جميلة ناهزت العشرين من عمرها ومعها امها جاءتا في سيارتهما من كنساس سيتي في ولاية مزوري للاصطياف في بلدة « مساقط كولورادو » المشهورة ، فعرفتني ربة الدار على الأم وابنتها وقد عرفت فيما بعد ان الفتاة وحيدة لاهلها مثل فتاتي الاولى واسمها « روبي » وان اباها احد رجال الاعمال الامريكيين في حالة لا بأس بها من الرخاء . ولا يحتاج المرء ان يتكهن ما سيحدث نتيجة هذا اللقاء غير المنتظر بين شاب وشابة في ربيع العمر يسكنان في بيت واحد ويجتمعان على مائدة طعام واحدة ويجتمعان في صالون واحد للاستماع الى الموسيقى عدة مرات في كل يوم . وسرعان ما نمت صداقة واثقة بيننا حتى صارت الأم وابنتها تدعواني لمرافقتهما في نزهاتهما اذ كانتا تذهبان يوميا في سيارتهما الى احدى المتنزهات في منطقة المساقط ، كما كنت انا والفتاة نخرج لنزهة مشيا على الاقدام في كل امسية بعد العشاء ونعود الى البيت في وقت متأخر وقد تطورت هذه العلاقة الى ان تحدث بيني وبين الفتاة فصرنا نذهب الى المسرحات لوحدنا في السيارة وقد ظهر لي ان الفتاة هي التي طلبت من امها ذلك لكي نأخذ حريتنا . وكانت

هذه المرة الاولى التي نذهب فيها بالسيارة لوحدنا ، فصعدنا الى منطقة الشلالات وجلسنا هناك بين الاشجار في أجمل بقعة اخترناها الى جانب المساقط . وما ان جلسنا حتى صرنا نتبادل الحب والغرام بصورة تلقائية كمن كان مكبوتا فانطلق من حبسه ، وكان ذلك بشكل مثير وعنيف جدا بحيث استأثر بكل حواسي وأفقدني شعوري ، فاحسست اني وجدت الحب والحنان لاول مرة في حياتي . وتكررت هذه السفرات بالذهاب الى نفس المكان يوميا فكنا نصحب معنا طعامنا ونقضي النهار كله متجولين بين المساقط والغابات مغتبطين بتلك العزلة الهادئة وتلك المناظر الساحرة . وكانت الايام تمضي بسرعة في غمرة هذا الجو المملوء بالحب والتآلف وسرعان ما دنت ساعة الفراق ساعة مغادرة روبي لتعود مع امها الى بلدهما . فشعرت بفراغ تركه هذا الفراق لم يملأ الا بعد افتتاح الكلية في ١٢ ايلول ١٩٢٧ وانشغالي بالدرس . ولكن لم تكن هذه النهاية بل هي البداية ، فقد تبع ذلك تبادل حب وغرام في مراسلاتنا المتواصلة استمرت طيلة السنة الدراسية حتى اصبح لدي كوم من الرسائل تحتاج الى خزانة خاصة ، هذا مع تبادل هدايا في مناسبات خاصة مثل يوم عيد ميلاد احدنا أو يوم عيد من الاعياد مثل عيد (الكريسماس) وما الى ذلك من المناسبات الاخرى . فكان كل منا ينتظر بفارغ الصبر حتى يحين موسم الصيف لكي يتم اللقاء بعد فراق قدر له ان يدوم تسعة أشهر . وما ان حل هذا الموعد حتى جاءت روبي هذه المرة لا تصطحب مع امها ولكن لتشبع من حبيبها . فكان اللقاء مقرونا بحرارة الشوق والحب واصبحت العلاقة اشبه بعلاقة الخطيب بخطيبته فكنا نتردد يوميا الى البقعة التي اخترناها قرب المساقط ونرتاد نوادي الرقص حيث نقضي ساعات متأخرة من الليل . وهذا كله لم يعزلني عن منهج الدراسة الذي قررته فكنت أواصل دراستي في خلال الصيف بالتحاقي في الدورة الصيفية ، فمرت هذه الصيفية بين الدرس والغرام بسرعة فتوطدت بيني وبين فتاة أحلامي رابطة قوية اتفقنا على أثرها الزواج حالما أتم دراستي وأحصل على شهادة الدكتوراه ثم نذهب سوية الى بلدي ، فوافق والداها على ذلك واستمرت مراسلاتنا بصورة متواصلة حتى حصلت على شهادة البكالوريوس في الهندسة من كلية كولورادو . وقد دعيت في خلال هذه الفترة لقضاء عطلة عيد الميلاد عند اهل روبي ، فذهبت الى كنساس سيتي حيث تعرفت على والد روبي وبعض المقربين من الاهل حتى صرت اشعر وكأني احد افراد العائلة وليس هناك أية قوة تستطيع ان تفرق بيننا . وقد احتفى بي اهل روبي باعتباري خطيبها ، وما كان كل ذلك الا تكريما لروبي التي اختارتني ربما لتستقبل حبيبها وتحتفي بحبها .

وبمناسبة تخرجي في كلية كولورادو أرسلت العائلة اليّ برقية تهنئة ، ثم غادرت كولورادو متجها الى واشنطن حيث دخلت دورة صيفية في جامعة

واشنطن ، وفي طريقي الى واشنطن عرجت على كنساس سيتي حيث قضيت ليلة عند أهل روبي فخرجنا تلك الليلة الى احد نوادي الرقص حيث قضينا وقتا ممتعا الى ساعة متأخرة بعد نصف الليل . فكانت كل امنياتي وتطلعاتي مرتبطة بحبنا ومستقبلنا ، وهذا ما كان يدفعني اكثر فأكثر للانكباب على الدرس على أمل الانتهاء منه بأسرع وقت ممكن على أن لا انتهي الا عند الدكتوراه وهو آخر ما كنت اطمح اليه .

حصلت على شهادة الماجستير من جامعة جورج واشنطن في شباط ١٩٢٩. ثم انتقلت الى جامعة جونس هوبكنس في بالتيمور للحصول على الدكتوراه منها. وفي خلال هذه الفترة بلغنا نبأ وفاة والد روبي فحزنت عليه وبكيته كما بكته ابنته الوحيدة . وقد كان لهذا الحادث الأليم اثره في اشتداد حبنا تعلقا. اذ اصبحت روبي تعلق كل آمالها ومستقبلها على صلاتنا وما وعدتها عليه من الزواج بعد حصولي على شهادة الدكتوراه مباشرة ، فارسلت الى روبي والى امها برقية تعزية ثم رسالة اليها عبرت فيها عن عميق حبي لها وعن مستقبل حياتنا ، مما يعوض عن الفراغ الذي تركه موت والدها .

مرت الأيام بسرعة وأنا منكب على الدراسة فاستأجرت آلة طابعة وانصرفت كليا لطبع اطروحتي . هذا ومراسلاتنا متواصلة لم تنقطع وكلانا ينتظر اليوم الذي صبرنا عليه السنوات الطوال ، ولم يبق الا أسابيع معدودة حتى اتقدم الى الامتحان النهائي ومناقشة اطروحتي .

ومر كل شيء بسلام حتى تدخل القدر فنزل علينا فاجعة نسفت كل الأماني و الاحلام والذكريات بل نسفت ذلك الحب الذي تأجج في نفسي طوال سنين .. نعم تلاشى كل شيء وانطوى الماضي بين دقائق وثوان . فيا لهول المصاب الفادح .

لقد كنت على مائدة الطعام حين سلمتني ربة الدار كتابا ، وما ان فضضته وكدت اتنور بدايته حتى وقعت عيني على دعوة لعقد قران منصورية عقد قران احد اقارب روبي ، ثم تفحصت الدعوة جيدا . وما ان اتيت على آخرها حتى ايقنت أن الدعوة لعقد زواج روبي ذاتها على ... نعم عقد زواجها هي بالذات وهذه هي الدعوة التي كان مقررا ان تطبع باسمينا ..

هل اصدق ما شهدته عيناي ؟. تسمرت في مكاني توقفت نبضتي في صدري وكان وقع الصدمة عنيفا على نفسي .. فتركت مائدة الفطور ولجأت الى غرفتي لأكون وحدي مع نفسي وانطرحت على الفراش وكأني في حلم . فكانت الذكريات تتمازج في ذهني حتى صرت أهذي هذيان المريض في اشد حمته واسائل في دخيلتي : بالله اهذا الذي قرأته حقيقة واقعة ؟ رباه ان لا اصدق. بالله اهذه هي حقا انكون هي التي عرفتها من قبل واحببتها حب العبادة

والحنون ؟ .. وكنت اصب على اسمدي واستشعر المعصب ساحج في نفسي ، اذ كان هذا الحادث طعنه لكرامتي ورجولتي وحيانه للعهد فاحدث الاحاسيس والمشاعر المتضاربه تعمرني فكرهت الحياة الامريكيه وكرهت كل شيء امريكي ولعنت الساعه التي جاءت بي الى هذه البلاد لاذوق هذا العذاب ، فاستولت علي شبوه من العصب وتولدت عندي نقمة عارمه على النساء جميعا .

وبقي هذا الصراع يدور في ذهني اياما بلياليها حتى انتهى بانتصار العقل على العاطفه فادركت ان العلاج الوحيد هو الرجوع الى كتبي لاتم دراستي باسرع وقت كي يتسنى لي مغادره هذه البلاد بسرعه غير آسف على تركي اياها . وهكذا بدا وقع الصدمه يخف شيئا فشيئا ، فكتبت رسالة مقتضبه مهنئا فيها فتاة احلامي بعقد زواجها متمنيا لها السعادة والهناء . وفي الوقت نفسه جمعت كل رسائلها واودعتها في حقيبه كبيرة وشحنتها في القطار - ولما عرفت ربة البيت بقصتي وهي مطلعة على سبق علاقتي بروبي اخذت تنصحني بان انسى الماضي وانصرف الى اتمام دراستي فعملت بنصيحتها وصممت على ان انجح واتخرج في جامعه شفرق ثم اغادر هذه البلاد التي عشت فيها ست سنوات من ربيع الحياة حرت خلالهـــا حسناتها وسيئاتها غير آســف على مغادرتها .

ومرت الايام بعد هدوء العاصفة واقترب يوم تخرجي بعد ان اديت الامتحان بنجاح كبير واذا برسالة تصلني من كنساس سيتي ، وما تناولت الرســالة حتى اخذ قلبي يدق فتفضضتها بيد مرتجفة واذا بها من أم روبي تحمــــل بين طياتها خبر حادث خطير وقع لروبي اثار المشاعر من جديد .. ما هــو هــذا الحادث الخطير ؟. هاك نص خطاب ام روبي وهو يوضح ما حدث :

عزيزي ..

الآن وانا اكتب اليك هذه السطور يتنازعني وخز الضمير لما اقترفته بحق روبي وبحقك .. فانا وحدي مسؤوله عن كل ما حدث .. ولا ادري كيف اكفر عن هذا الذنب الذي ارتكبته بحقكما .. لذلك جئت بهذا اطلب اليــك ان تغفر لي عما حسب عنك وعلى ابني روبي .. وان كانت هذه المغفرة لا تفي شيء بعد فوات الاوان .

ان روبي هي الآن في بيتنا تركت زوجها بعد اول لقاء للزوجية وعــادت الى بيتها بعد خطها ، لاني انا التي حمتها على الزواج من ... وهي لا تحب سواك .. وهي تصر على طلب الطلاق من زوجها ..

ولما كانت روبي عاجزة عن ان تكتب اليك فجئت بهذا لاخبرك بما حــدث ورجائي الآن ان تكتب لروبي وتواسيها على ماساتها هذه وهي ترغب في لقائك

و رحلت من الاحوال فقد استمحت ترعيتها تمرح في سماء النعماء في مكان ما يعرف عنه . هذا واكرر رجائي بأن تغفر لي عما حصل وارجو لك دوام وفيق مع اخلص التحيات .

المخلصة

(...)

ولا حاجة لأعبر الى القارئ عما أصابني من الذهول بعد تلاوة هذا الخطاب من روبي . فقد وقع وقوع الصاعقة على نفسي اذ عراني ضعف وانتاب كل مشاعري من جديد ، هل أصدق عيني بما قرأت ؟ وهل لي تخلص بعد كل ما حدث ؟ فقد كنت في حيرة من امري . ولكن كان علي أن اتخذ قرار حاسم دتحدته دون تردد وهو ، لا مراسلة ولا لقاء . فكتبت جوابا مقتضبا بهذا المعنى هذا نصه :

عزيزتي ..

تسلمت مع الشكر رسالتك . اننا كلنا نأسف لما حدث ولو كان للاسف والندم مجال لاصلاح الحال واعادة الامور الى مجاريها لدب الأمل في محيط هذه الظروف . فعليك وانت بالذات ان تواجه حقيقة الواقعة رغم ان الواجب يقضي بقطع صلتي بروبي في الظروف الحاضرة على اقل تقدير . فروبي متزوجة شرعا من شخص ثان وان افترقت منه ؛ وبهذا للشخص الحق وكل الحق ان ينقم علي من ينافسه على زوجته الشرعية فخير لكلينا أنا وروبي أن ننسى الماضي ويبدأ كل منا حياة جديدة ، لان الماضي لن يعود ثانية . محبتي لروبي .

المخلص

لقد كنت اظن ان جوابي هذا سيكون خاتمة المطاف وسيسدل الستار عما مضى ولكن خاب ظني ، فبينما كنت منكبا اعد امتعتي استعدادا للرحيل والعودة الى الوطن واذ بيد . بلغوني من كنساس سيتي فدتني صاحبة الدار وهي مطلعة على كل شيء وقالت أظنه روبي او امها . تناولت السماعة وقلبي يخفق حتى صرت أسمع دقاته باذني . فقد كانت روبي بالذات . قالت بصوت مكلوم وقد تحطمت معنوياتها فكانت كالقائد المنهزم في ساحة الحرب ، قالت : وهل لا تزال ناقما علي يا حبيبي ؟ .. قلت هذا حكم القدر وقد شاء ان يختبر مدى حبنا وهو يهزأ منا ، فكانت تجربة قاسية علينا .. قالت اريد ان اراك قبل مغادرتك للبلاد ولو للمرة الاخيرة فهل تسمح لي بالمجيء الى بالتيمور لاحضر حفلة تخرجك ؟

وهنا بدأ الصراع بين العاطفة وتحكيم العقل فكانت تتنازعني عوامل الحب

والاسقام والمصائب ، تمت دون شعور : طبعا كيف لا اسمح لك ان كنت راغبة في ذلك ؟ وعند ان عينت يوم مجيئها وساعة وصولها وكان ذلك يوم الحفل وبعد سفري بيوم واحد ودعتني بقولها : الى اللقاء يا عزيزي .

عدت الى غرفتي وصرت اسائل نفسي مستعرضا شريط الاحداث : هل كان خضوعي لعاطفة ضعفا مني ؟. وهل اغفر لها استهتارها بعاطفتي وهجرها لي. وهل اغفر لها خيانة العهد ؟. ثم اعود فاقول لنفسي : كيف لا تغضب العاطفة؟ فهل انسى تلك السنين التي قضيناها ونحن منغمسون في حبنا نتذوق اشهى طعام الغرام منها ؟. فكيف انسى تلك الاعوام التي مرت كسحاب امام هواء العاصفة ؟. لكانت الدنيا كلها ترقص واياها على نغم حبنا حتى حلت المصيبة فقضت على كل آمالنا . يا لها من ذكرى مؤلمة مريرة .. يا لها من حسرة لا تفنى حتى الموت .. لقد مر على تلك الحادثة خمس وعشرون سنة ولا تزال روبي ماثلة امامي وهي مشتبكة في صراعها النفسي وعذاب الضمير الذي كان يؤنبها .

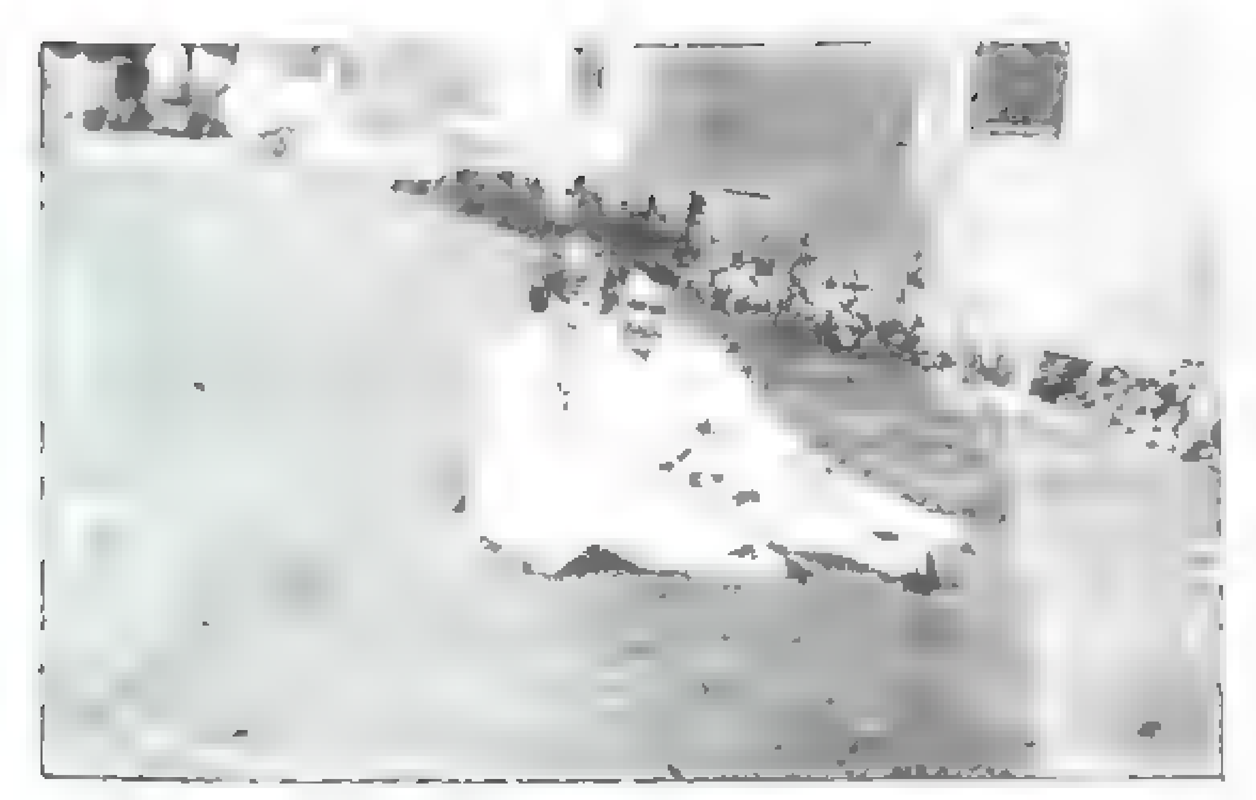
ذهبت لاستقبال روبي في محطة القطار فكانت تتصارع خواطر في ذهني. هل لنا الحق ان نتخلص عند اللقاء ؟ وهل تسمح لنا التقاليد المرعية بأن نعود الى الماضي ونستأنف تبادل الحب والغرام ؟. استغفرته وما كان مجال للتخلص عند اللقاء فاضطررت ان اقضي كل وقتي معها فحضرت حفلة التخرج وعانقتني بقبلات حارة . وفي اليوم التالي (يوم ١٧ حزيران ١٩٣٠) ذهبنا الى الباخرة التي ستنقلني الى فرنسا (S.S. De Grasse) فكانت روبي ترافقني وانا انقل امتعتي الى الغرفة المحددة لي . فجلسنا على الاريكة ، وهنا اخذت تدور في ذهنينا خواطر وذكريات ، فقد كنا ننتظر هذه الساعة بفارغ الصبر لنحتفل بزواجنا ونأتي الى الباخرة التي ستقلنا الى اوروبا لقضاء شهر العسل ، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، فكانت مشيئة القدر ان نجتمع على الباخرة لنودع آخر لقاء بعد ان حدث ما حدث من تطور قلب الامور الى هذه النهاية المحزنة . وفيما نحن نطلق العنان لهذه الخواطر اطلقت الباخرة آخر صفير لها فدنا وقت الرحيل فودعتني روبي بقبلاتها الحارة وغادرت الباخرة والدموع تسيل من مآقيها مدرارة تارة تمسحها بمنديلها وتارة تجهش بالبكاء وهي تندب حظها الذي حطم كل آمالها فطلبت عنواني في باريس وفي العراق فاعطيتهما لها وقالت انا ماضية في سبيل معاملة طلاقي من عقد الزواج الذي ارغمت عليه وارجو ان لا تحرمني من حبك . ثم وقفت عند سياج الباخرة لاتابع خطوات روبي وهي تغادر الباخرة لتقف عند الرصيف واخذت تهف بيدها وقد ظلت واقفة تتابع تحرك الباخرة من مراسيها حتى غابت عنها في عمق البحر .

رجعت الى غرفتي فكنت متعبا وكانت اعصابي متوترة نتيجة السهر

ـوامل لاعداد اطروحتي والتحضير للامتحان النهائي ونتيجة ما اصـــابني من
ـرهق بسبب الخاتمة المفجعة التي انتهى اليها صـــراع حب محطم آمالـــي
ـعضي لمستقبل سعيد مع فتاة احلامي . فلجأت الى وحدتي التمس الراحة
ـل مرة بعد ست سنوات قضيتها في امريكا تحت ضغط حياة مرهقة لا تعرف
ـة والهدوء . اضطجعت على السرير واخذت استعرض في مخيلتي شـــريط
ـداث التي مرت وما كان من نهاية علاقتي بروبي وزواجها وقد كان للمـادة
ـو رئيس فيها ، فقد ارادت أم روبي زوجـــا من اصحاب البنوك لابنتهـــا
ـمن مستقبلها وهدمت كل ما كانت تصبو اليه من حياة زوجية ســعيدة
ـوامن الحب والحنان . مرت تلك الخواطر في ذهني كما يمر البرق الخـاطف
ـاءل نفسي واقول : اهذه هي الحياة التي عشتها ست ســـنوات في
ـريكا خبرت حسناتها وسيئاتها تجولت في كل انحائها وتعمقت في صـــميم
ـاتها الاجتماعية ، فهل نعتبر هذه الحياة القائمة على المادة الحيـــاة التي
ـاها المرء لضمان سعادته واستقراره النفسي ؟ وهل هذه هي الحيـاة التي
ـق التقدم البشري ؟ وفي الوقت نفسه كنت اسلي نفسي بقرب عـودتي الى
ـطني وانا احمل اعلى شهادة بل ارفع شهادة دكتوراه يحملها عراقي من امريكا
ـرف ما يؤهلني للدخول في ميدان الخدمة العامة وهو الهـدف الذي مـن
ـه تحملنا مشاق حياة الغربة لسنوات الطوال .

وحياة الباخرة تمثل عالما مستقلا قائما بذاته ، عالما عائما فوق ســـطح
ـاء ، يضم مسافرين من انحاء العالم كافة ، تجمعهم الباخرة فوق سطح واحد ،
ـاة الباخرة ترسخ في ذهن المرء وتوطد اواصر الصـــداقة العالمية . وليس
ـل من حياة الباخرة خاصة اذا كان البحر هادئ .. فكنت انسطح على
ـرسي المستطيل واتأمل مياه البحر ذلك العمق الذي لا نهاية له فلا ترى غير
ـاء والسماء يبعثان بلونهما الازرق الصافي جوا من السكينة وراحـة الاعصـاب
ـدوء البال ، فصرت اتمنى أن تطول رحلة الباخرة لاشفي غليلي من هـــذا
ـو الرائع فأعوّض فيه عما تحملته من التعب والارهاق .

وانا في مثل هذا الظرف كنت اتصور كل شيء الاّ شيئا واحدا ، وهو
ـ ادخل في مغامرة جديدة مع فتاة اميركية جديدة بعد الذي حدث . ولكـن
ـكم القدر والنصيب هو اقوى من الارادة ، وهو الذي يفرض حكمه في امــور
ـاس . وما أصدق المثل العامي القائل (كل شي بالقسـمة والنصيب) ..
ـكذا فقد لعب القدر لعبته وأعد خطة ليطرحني في غمرة مغامرة غرامية جديدة
ـع فتاة اميركيه جديدة كانت على ظهر الباخرة . وهذه الفتاة الجديده ظهرت
ـي الباخرة وهي في طريقها الى باريس وكأنها كانت على موعد مع روبي جاءت
ـديه لتودعني والاولى لتحل محلها . فما اغرب حكم القدر (والقسـمه) .
ـد تبدأ قصتي الجديدة شهدت الباخرة اولى ادوارها وانتهت هذه المـــرة



التصوير رقم (٤٩) ـ المؤلف مع ماكي لي في محاضرته الرابعة الاولى .. (انظر الفقرة ٧)



التصوير رقم (٥٠) ـ تصوير آخر للمؤلف مع ماكي لي في محاضرته الاولى ..
(انظر الفقرة ٧)



التصوير رقم (١٥) — المؤلف مع روبي في مغامرته الغرامية الثانية في حدائق كولورادو . (انظر الفقرة ٧)

بالزواج من الفتاة الجديدة وهذه خلاصتها :

دخلت ذات يوم الى صالة الرقص حيث تقام حفلات الرقص كل مساء ، فيجتمع ركاب الباخرة في هذه الصالة رجالا ونساء على اختلاف أعمارهم ، فبعضهم يتمتع بالرقص والبعض الآخر يجلس على المقاعد لمشاهدة الرقص وسماع الموسيقى . فدخلت الصالة لاقضي بعض الوقت فصادف جلوسي الى جانب فتاة امريكيه ، وما أسهل التمييز بين الامريكي وغير الامريكي فسلمت عليها وأجابتني بلطف ، نظرت اليها واذا بها فتاة ممشوقة القد ، رشيقة الجسم ، بيضاء اللون ، كستنائية الشعر ، أنيقة الثياب ، قد ناهزت الرابعة او الخامسة والعشرين من عمرها ، كان يبدو على وجهها سيماء الخجل والحرج مما يدل على انها من عائلة محافظة تخرج لاول مرة خارج بلادها . وبينما انا انظر اليها لمحت انها قد علقت على صدرها المفتاح الذهبي الذي يمنح لمتخرجي الجامعات بتفوق ، اي انها عضوة في جمعية (فاي بيتا كابا) التي اتمتع بعضويتها(٧) ، فسألتها مشيرا الى المفتاح الذهبي في صدرها عن الجامعة التي تخرجت فيها فذكرت انها تحمل شهادة الماجستير من جامعة آيوا الامريكية وهي الآن تدرس اللغة الفرنسية في نفس الجامعة التي تخرجت فيها وانها ذاهبة الى باريس لقضاء العطلة الصيفيه وممارسة الفرنسية بين

(٧) انظر ما تقدم في الفقرة ٥ من هذا الباب « دراستي في أمريكا »



التصوير رقم (٥٢) ـ المؤلف في زي التخرج من جامعة جونس هوبكنس سنة ١٩٣٠م

[illegible] . وما [illegible] ذكرت [illegible] في عصر [illegible] [illegible]
[illegible] شهادة [illegible] مذكورة من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] غير [illegible] . [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] وممرضة [illegible] . [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] الوجوه عن الفتيات اللواتي عرفتهن [illegible] [illegible] . وكانت
[illegible] [illegible] مثل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] احتشامها . ووزراتها قد [illegible] في الريف على مزرعة [illegible]
[illegible] [illegible] الانكليزية [illegible] [illegible] [illegible] في
[illegible] القرن السادس عشر للميلاد . أما اسمها [illegible] [illegible] [illegible]

والغريب في هذه الفتاة انها لم تزل محافظة على تقاليد [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] . والأكثر من ذلك [illegible] [illegible] [illegible] مع [illegible]
[illegible] [illegible] من الوجوه [illegible] [illegible] [illegible] .
[illegible] كانت تعتقد مع تقاليدها الحديثة بانه لا يجوز [illegible] [illegible] مع
[illegible] [illegible] [illegible] . [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] يوم الاحد محافظة في ذلك [illegible] [illegible]
[illegible] . وخلاصة القول انها كانت تجمع بين [illegible] [illegible] [illegible]
والثقافة الغربية الحديثة .

[illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] . [illegible] [illegible] .
[illegible] صديقه الأديم ، وابتدأ [illegible] اشعته الذهبية على وجه البحر [illegible]
[illegible] على الكراسي [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible]
[illegible] . [illegible] لي انها كانت [illegible] [illegible] [illegible] مع [illegible]
[illegible] [illegible] كنت احاول [illegible] [illegible] [illegible] في
[illegible] : [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] الوجه وابتدأ [illegible] [illegible] عشر [illegible] في [illegible]
[illegible] ما حدث لي مع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible]
[illegible] [illegible] . ثم [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible]
[illegible] أو على سطح الباخرة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] ما [illegible] الى الآخر في [illegible] [illegible]
[illegible] في باريس [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] وجودي في باريس . [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] في باريس لاطلع على معالمها السياحية [illegible] [illegible]

الى بلادي وارتبط بعملي . وهكذا كان ان نفترق بعد نزولنا الى البر في مرفأ الهافر في شمال فرنسا فركبنا القطار توا قاصدين باريس . ولما وصلنا الى باريس نزلنا في فندق واحد في غرفتين متجاورتين ، ثم أتذكر اسم الفندق ولكني اتذكر انه كان يقع في شارع ضيق وبنايته واسعة مؤلفة من طبقتين فقط وغرفه واسعة وسقفها مرتفع على النحو الذي كانت عليه البنايات القديمة . وقد وضعنا منهجا وهو ان نقوم كل يوم بزيارة الى الموضع الذي نحدده لذلك اليوم . وكنا نتناوب بيننا في تولي مسؤولية الصرف على جولاتنا وعلى طعامنا فيوم اتولى انا هذه المهمة ويوم تتولاها هي . وفي المساء كنا نذهب الى السينما أو المتنزهات العامة او نقضي سهرتنا في الفندق . ثم نترك مكانا سياحيا عاما او متحفا أو معرضا أو موقعا تاريخيا الا زرناه واخذنا لها بعض التصاوير . فمضى اسبوعان ونحن نسير على هذا المنوال حتى دنا وقت الرحيل فشعرت باني باشد الحاجة الى الركون الى الوحدة والانفراد للتمتع بالراحة والنوم الكافي لاستعيد صحتي ونشاطي . فصممت على الذهاب الى سويسرا لقضاء بضعة ايام هناك ، ثم الذهاب الى لبنان لقضاء بضعة ايام هناك أيضا قبل عودتي الى العراق ، فكانت صاحبتي ترغب في مرافقتي في رحلتي هذه ولكني لم اشجعها على ذلك لاني كنت أود ان أسيح بوحدي كما ذكرت . فودعتها دون ان أقبلها وان كنت أشعر بانها كانت ترغب في ذلك ، وقد تعمدت عدم تقبيلها استجابة لما كانت تعتقده من أنه لا يجوز للفتاة ان تمنح القبلة الاولى لغير خطيبها ، فودعتها وانا اشعر بصراع تركته رغم رغبتي في الانفراد والركون الى الراحة والهدوء . ولم يخطر ببالي حينذاك فكرة الزواج واهم ما كنت ارنو اليه هو الراحة والاستجمام ، وكنت اظن ان انتهى بي المطاف الى هذا الحد ولكن النصيب يعود فيتدخل القدر كما سنرى فتتطور الامور حتى تنتهي بزواجنا .

قضيت عدة ايام في سويسرا متجولا في مناطقها الجميلة ، ثم ذهبت الى لبنان مسقط راس دراستي الاولى وانا أعود اليه بعد غياب ست سنوات . وأول شيء اجتذب انتباهي ما كان يدور في الاندية والصحف آنذاك حول موضوع فلسطين المنكوبة ووعد بلفور المشئوم فأثار احساسي وسخطي على الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية مما حملني على كتابة مقال نشرته في جريدة الاحرار البيروتية في عددها الصادر يوم ٢٨ آب ١٩٣٠ بعنوان « فلسطين بين العرب والصهيونيين » شرحت فيه المطامع الاستعمارية البريطانية ودورها في تبني مشروع استعمار فلسطين على يد الصهيونيين ودعوت في ندائي وجهته الى اليهود العرب الى شجب واستنكار وعد بلفور وتوحيد الجهود في سبيل مناهضة المساعي لاستعمار فلسطين العربية وتشريد سكانها العرب

والنيل من حقوقهم في بلدهم.(٨)

وفي لبنان قصدت زحلة حيث كنا نمضي صيفياتنا عندما كنا طلابا في الجامعة الامريكية في بيروت ، ومما استثارت بي ذكريات ايام دراستي الاولى ، فاعادت الى ذهني صورا من صور تلك الايام البهيجة التي كنا نمضيها مع اخواننا العراقيين ، اذ كانت تجمعنا رابطة الوطن الذي كان يعاني من طغيان الانكليز وتعنتهم ، وخاصة في أعقاب الثورة العراقية الكبرى (ثورة العشرين) تلك الثورة التي بعثت الحماس والطموح والاندفاع لتحقيق الوحدة العربية المتماسكة والوحدة العربية الشاملة . ولم تكن هذه الثورة الا مظهرا من مظاهر حركة التحرر من نير الاستعمار الغاشم الذي سلب العرب استقلالهم وحريتهم وكرامتهم . وما ان تشكل الحكم الوطني المرتقب في العراق حتى وضع



الصورة رقم (٥٢) — المؤلف في زحلة مع الاخوة العراقيين وهم من اليمين : المؤلف ، المرحوم الشاعر الشيخ مهدي البصير ، عبدالوهاب كمونه ، علي الواسي ، عبود شلاش (اخذت في ٢٩ تموز ١٩٣٠)

(٨) انظر الملحق (٢) « فلسطين بين العرب والصهيونيين »

الانكليز مخططاتهم فرسموا السياسة التي اناطوا مسؤولية تنفيذها بزمرة من اهل البلاد . وهكذا شرعوا التشريعات حسب ما يقتضيه منهج مخططهم هذا الذي ضمن لهم ما يبغون من امتيازات ومواثيق تربط العراق بعجلة المصالح الاستعمارية البريطانية . ثم اخذوا يبثون سمومهم باحداث التفرقة بين ابناء الشعب وتشجيع النعرات الطائفية ، فغرسوا في النفوس الحقد والبغضاء ، ليتمكنوا من التلاعب بمقدرات بلاد العرب وفق مصالحهم .

كان هذا الغليان مستحوذا على أوضاعنا السياسية والاجتماعية حين رجعت الى العراق فتولد في نفسي خيبة امل ورد فعل ، وفي غمرة هذه التأملات وردتني رسالتان ، رسالة من روبي تقول فيها انها عزمت على ان تنهي معاملة الطلاق من زوجها وتطلب الي ان اكتب اليها واوافيها باخبار ماري ، والثانية من ماري ونعيمة الباخرة وباريس ، فبعثت جوابا على الرسالة الثانية واهملت الاولى ، وبعد ايام قلائل وصلتني رسالة ثانية من روبي تخبرني فيها انها حصلت على طلاقها وهي ترجو ان اراسلها . وشاء القدر ان تتطور علاقتي مع ماري بعد تبادل رسائل بيني وبينها اكثر من سنتين نشأت بيننا علاقة متبادلة من الود والتقدير . وكلما كانت تمر الايام كلما زادت قناعتي بأن ماري هي الفتاة الشرقية الغربية التي جمعت الصفات المطلوبة لاتخذها رفيقة حياتي ، ومع ان رسائلها كانت تعبر من طرف غير مباشر عن ميلها الي لم اكن متأكدا من موقفها فيما اذا فاتحتها بطلب الزواج ، ففاتحتها في ذلك . وكم كانت دهشتي حين جاءني الجواب بانها كانت تنتظر بفارغ الصبر ان اتقدم بهذا الطلب وقد كانت تخجل ان تفاتحني في امر حبها لي قبل ان تتأكد من شعوري نحوها ، وهكذا فقد ربطت ماري حبها ومستقبلها بي مضحية بكل ما كانت تتمتع به من توافر وسائل العيش لتعيش في بلد غريب ومجهول مع من احبته عن صدق واخلاص ، فتركت وظيفتها واهلها وجاءتني الى بيروت حيث عقد زواجنا في القنصلية الامريكية ببيروت بتاريخ ٩ مارس ١٩٣٢ . وقد وقفت ماري موقفا حازما امام معارضة اهلها حتى اضطرتهم الى الرضوخ لارادتها . وهكذا فقد حكم النصيب (او القسمة) كما نعبر عنه بهذا الزواج وكانت نهاية المطاف بان ارسلت بطاقة مطبوعة بالانكليزية تحمل خبر زواجي من ماري الى روبي لاحاطتها علما بذلك فكفت عن مراسلتي . وبهذا فقد سلكت نفس الطريقة التي سلكتها في مفاجئتي بخبر زواجها بدعوتها اياي لحضور حفلة زواجها وكانت تبادلا دعوةً بدعوة .

وكان علي بعد عودتي الى الوطن مع ماري ان نعيش لوحدنا وذلك لمقاطعة الأهل لنا ، فاستأجرت دارا صغيرة في بغداد واشتريت بعض الاثاث البسيط بقدر الحاجة وامضينا بعض الوقت على هذا النحو حتى انيطت بي مهمة تفتيشية خارج بغداد ، فخشيت من امرين ، اما ان اتركها لوحدها في بغداد

واما أن اصطحبها لتعيش معي في الحيبة التي كانت مقر عملي ، فصرنا تارة نعمل بالطريقة الاولى وتارة اخرى بالطريقة الثانية وكانت تتحمل كل ذلك من غير أن تتذمر • وفي غضون ذلك اصابت ماري بداء الحماق • وهو مرض معد نادرا ما يصاب به الكبار ، فعزلنا في دارنا ولم يسمح لأحد أن يتصل بنا او يزورنا ، فكاد يقضي هذا المرض عليها لولا الاهتمام والعناية الخاصة من احد الاطباء الانكليز يومذاك يدعى الدكتور كراهام على ما اتذكر ، فكان يزورنا يوميا وفي بعض الاحيان مرتين في اليوم حتى انقذ حياتها بعد أن يئسنا من شفائها ، ولم يتقاض منا اي أجر بل كان يزودنا بالادوية المطلوبة دون ان يتقاضى ثمنها • فبقيت ممرضة لها طيلة ايام مرضها الذي دام حوالي خمسة عشر يوما لم يدخلنا في خلالها احد غير الطبيب • وكنت اقوم بنفسي باحضار الطعام وتنظيف الدار وغسل الالبسة ، وكان خادمنا يأتي مرتين كل يوم يجهزنا بما نحتاجه من المؤن ويسلمه لنا من الباب دون أن يدخل الدار • وكانت زوجة مديرنا البريطاني (مدير الري) تأتي يوميا وتجهزنا من الباب بطعام خاص لماري دون أن تسترجع الاواني فتجمعت عندنا ، وعلى اثر شفاء ماري تم تعقيم كل شيء في الدار •

كانت هذه اول صدمة اعترتنا في حياتنا الزوجية الاولى قاومنا مصاعبها بحزم وثبات ذللها لنا ذلك الطبيب الانساني العظيم فكان نموذجا للمثل الاعلى الذي يجب أن يتصف به كل طبيب ، هذا بغض النظر عن الدوافع التي حملته على قيامه بهذه العملية الانسانية النادرة ، اي الرابطة القومية التي تربطه بها • وقد كانت ماري تقول في اثناء مرضها انني سأتحمل كل شيء كي ابقي حياتي وحبي لك واني واثقة بعون الله اني سأشفى • وقد زادت هذه الحادثة رغم آلامها تعلق ماري بي حتى صارت تستهون كل العقبات في سبيل تكييف نفسها للمحيط الجديد • فضينا بعد ذلك قسطا من الراحة والاستقرار فترة من الزمن في بغداد رزقنا في خلالها بطفل ذكر سميناه (فيصل جميل) وكان ذلك في التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٣٤ المصادف لليوم الثالث من عيد الفطر المبارك • ثم بعد أن بلغ الطفل حوالي الشهر الثامن من عمره صدر الامر بنقلي الى بعقوبة مهندسا مسؤولا عن منطقة ري ديالى وهي اول مسؤولية فنية مستقلة ذات صلاحيات يتسلمها العراقيون الفنيون من المهندسين البريطانيين ، فمكثنا في بعقوبة حوالي ثمانية اشهر بين ١٩٣٤/٩/٢٠ و١٩٣٥/٥/٢١ ثم نقلت الى الحلة مسقط رأسي ووطن صباي مهندسا مسؤولا عن منطقة ري الفرات واشرفت على ادارة مشروع سدة الهندية الذي واكبته وهو في مرحلة البناء في عهد الصبا ، ذلك المشروع الذي اوصل الماء الى بلدة الحلة بعد انقطاعه عنها•(٩)

---

(٩) انظر ما تقدم عن هذا المشروع في الفقرة (٥) من الباب الاول من هذا القسم .



التصوير رقم (٥٤) ــ ماري في بغداد قبل اصابتها بالخناق اخذت في تموز ١٩٣٢ (انظر الفقرة ٢٧)

وهنا بدأ القدر يشاكسنا فبدأت المشاكل تظهر فأصيب الطفل بمرض عجز الاطباء عن تشخيصه ، اذ كان يتنوع تدريجيا في طريقه الى لفظ انفاسه الاخيرة بدون جدوى من ادوية الاطباء ، اذ جربوا انواع الادوية دون ان يحصلوا على اي تحسن في صحة الطفل . واعقب ذلك مرض امه متأثرة بحالة طفلها اليائسة فأشار عليّ الاصدقاء ان اذهب بماري وطفلها الى اهلها في امريكا فعملت بنصيحتهم . وكان الموسم في لب الشتاء فكان عليّ ان انتقل مع زوجي وطفلها وامتعتنا على مراحل بالسيارة اولا ثم بالباخرة ثم بالقطار بعد الوصول الى بر امريكا ثم بالسيارة الى المزرعة حيث اهل ماري ، في ذلك البرد القارس ، ولكني تغلبت على هذه المشاكل بطول الاناة والصبر على الملمات حتى بلغنا الهدف ووصلنا ثلاثتنا بسلام الى مزرعة اهل ماري في (فنتون ــ ايوا) . وما ان وضعنا اقدامنا على عتبة باب بيت اهل ماري حتى شعرنا بان الحياة عادت الينا من جديد ، وكانت هذه المرة الاولى التي التقي بها بذوي ماري . واول عمل قامت به عائلته انها استدعت طبيبها الخاص بالموبايل فحضر على عجل واخذ يفحص الطفل فحصا دقيقا وهو في حالة شبه احتضار . وصار يسأل ماري عن تفاصيل اعراض المرض وعن وصفات الاطباء في علاجه ، فشخص المرض في الحال وعين العلاج اللازم واعطى التعليمات الخاصة بعناية





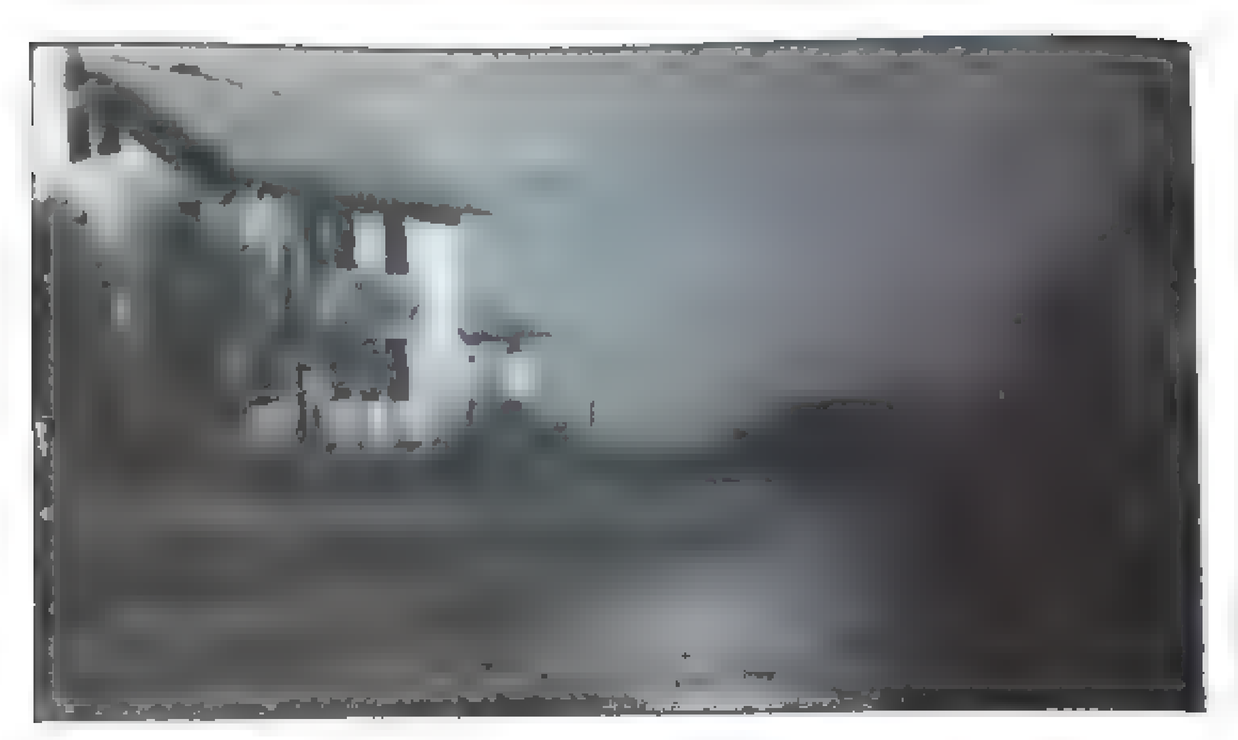


التصوير رقم (٥٥) ـ فيصل جميل وهو في السنة الثانية من العمر

اللازمة من حيث استعمال الدواء ومن حيث نوع الطعام الذي يعطى للطفل ٠ وكان الطبيب يستوضح للعوبيا بين ساعة وأخرى عن حالة الطفل اثر العلاج الذي وصفه له فصار يتحسن بسرعة مدهشة اذ لم تمض ثلاثة ايام حتى استعاد الطفل صحته وازدادت شهيته للطعام ٠ وانا لا ابالغ حين اقول ان ما كابدناه من الهم والقلق في خلال حوالي ثلاثة اشهر من الزمن قد زالا نهائيا في خلال ثلاثة ايام بفضل العصا السحري الذي جاء به الطبيب الامريكي ٠

قضينا بضعة ايام في دار أهل ماري في المزرعة ولم أكن اعلم ما كان يخفيه حكم القدر بعد ذلك ، فبينما كنت استعد للعودة الى الوطن مع زوجي وطفلي بعد ان شفيا واستعادا صحتيهما فوجئت بماري تطلب اليّ بل تتوسل أن ابقى الى جانبها بحجة ان الاطباء قرروا ان مناخ العراق لا يوافقها صحيا ، ولكني ابيت ، واخذ ابواها يضمان توسلاتهما الى توسلاتها واضعين تحت تصرفي ثروتهما ٠٠ فابيت أيضا ٠ وجاء دور الطفل وهو ينصت للحديث مبادرني قائلا : « الى اين تذهب يا (داد) اي يا ابتي ؟! لماذا لا تبقى معنا ؟ » مكان موقفا مثيرا جدا وحرجا جدا ٠٠ وكان لا بد من قرار : «البقاء مع الغنى ومجال العمل » او « العودة الى الوطن مع الكفاح » وهو يعني خسارة زوجي وولدي أيضا ٠٠ وكان القرار الحاسم « العودة الى الوطن » ٠ وهكذا كان ٠ فغيّر ذلك القرار مجريات حياتي كلها وسار بي القدر الى ما انا عليه اليوم ٠٠ وانا لست بنادم على ما فات ولا على ما اخترته في حينه ، وان كان الحنين والشوق الى تلك الزوج وولدها يكويانني بنارهما ٠٠ الوطن عزيز وان جفاك ، وما اجفى حياة المرء في ديار الغربة حتى مع اوفر الظروف المعاشية المادية ٠

مرت الأيام وتلتها الشهور والسنون وانا اشعر بفراغ بعد أن هجر علي اعز ما امتلك في حياتي ، فلم اطق احتمال العزوبة طويلا فخطبت فتاة من عائلة محافظة متوسطة الحال لم تتجاوز دراستها الابتدائية ٠ والزواج عندنا (حظ ونصيب) كما يقال ٠ فاما ان يحظى المرء بينت حلال تسعده طول حياته واما ان يسوقه القدر الى زوجة تنغص عليه حياته كلها ٠ ولحسن حظي ان ساقني النصيب الى زوجة صالحة ذات خلق رفيع وتربية اسلامية بيتية فائقة ، كان زواجي منها يوم ٩ مارت ١٩٣٩ فملأت الفراغ الذي كنت احس به وزاد تعلق بعضنا ببعض بمرور الزمن ، غير أن هناك أمرا كان ينغص علينا الحياة وهو انا قضينا عدة سنوات دون ان نرزق بطفل يرعى الجو العائلي ويقوي الوشيجة الزوجية لان المرأة بطبيعتها تشعر بالنقص فيها اذا ما كتب لها ان تكون عقيما ولكن الحظ قد حالفنا فاستجاب الى مرادنا بعد مرور عشرة اعوام فرزقنا بابنة يوم ٢٨ نيسان ١٩٤٩ سميناها عالية ، ثم رزقنا بمولود ذكر يوم ٣٠ حزيران ١٩٥١ فسميناه علي واكتفينا والحمد لله بهما وعنينا بتربيتهما كل



التصوير رقم (٥٦) — صورة بيت ماري في المزرعة في « ايوا سيتي »

ادية للمكنة ضمن حدود وضعها المالي الثابت حتى تخرجا من الكلية ٠

هذا ما مر بي من أحداث عائليـــة بعد افتراقي من زوجتي الاولى مـاري وابنها ، ولنعد الآن اليهما لنرى ما حل بهما الدهر ٠ فماري صممت على ان تبقى عانسا وان تعيش مع ابنها وفية لحبها الاول واستأنفت عمل التدريس الذي كانت تمارسه قبل زواجها وظلت تمارسه ١٣ سنة ٠ وفي غضون ذلك توفي والداها الواحد بعد الآخر ٠ اما جميس فكان يواصل دراسته وقد تجاوز الثامنة عشرة من عمره ففوجئت ذات يوم برسالة منه هذا نصها مترجمة الى العربية :
ديتون — ايوا

٢٠ حزيران ١٩٥٢

دادي العزيز(١٠)

انقضى اكثر من شهرين وانا مغلول اليد عن مكاتبتك تارة بانهمـــاكي في دروسي وتارة اخرى بالاعتلال عما يضمره لنا المستقبل ، وقد سبق ان شرحت لك تفاصيـل هيامي بغرام «جودي» ومدى تعلقي بها وما نبنيه من اماني عذاب بعد ان تتخرج من الكلية حين يتم زواجنا ٠ ولكن شاءت الاقدار ان تعاكسني فحملت الغيوم تتراكم في سمـاء علاقتنا الغرامية بما وضعته من العراقيـل في طريق تحقيق امنيتي ٠

---

(١٠) « داد » اصطلاح عامي امريكي يقابل كلمة ابي او ابتي عندنا .

ولا ادري يا (دادي) كيف ابدا رسالتي هذه ومن اين ابداها ، لأني اخشى ان يكون وقع الصدمة عنيفا عليك . لقد تركتني وانا في الثامنة من عمري ، وقد مر الآن اكثر من ستة عشر عاما على افتراقنا وان امضي في الحياة . اراك وتراني قبل ان يقضي الدهر عليّ او عليك . كما ان «جودي» تحمل في قلبها ذات الامنية وهي تدعو من الباري تعالى ان يمنحنا نعمة الحياة حتى تقضي شهر العسل في ربوع العراق حيث بغداد مسقط راسي في كنف عطفك الابوي .

ولم يبرح من ذاكرتي رغم صغر سني ذلك اليوم الذي تركتنا انا وامي وانا طفل ابن حولين آنذاك أتوسل اليك أن لا ترحل عنا وكيف توعدتنا بالعودة الينا . وها انا ابن عشرين تقريبا شاء القدر ان يحرمني طيلة هذه السنين من عطف الوالدين وما زلت اعيش في حلاوة ومرارة تلك الذكريات السعيدة والأليمة . وقد اصبحت الآن في غمرة من اليأس والقنوط من تحقيق امنيتي باللقاء بعد ان اتخذت قراري الذي ابسطه عليك فيما يأتي :

لا شك في انك سمعت باندلاع نار الحرب في كوريا وان الولايات المتحدة الامريكية هي التي احتلت العبء الاكبر في هذه الحرب الضروس ، وقد اذيع علينا نحن الطلاب بيان رسمي يدعونا الى التطوع في سلك الخدمة العسكرية والالتحاق فورا بمعسكرات الجيش الامريكي لتلقي التدريب اللازم هناك قبل الاشتراك في المعارك الدائرة في كوريا ، وتلبية هذه الدعوة او عدمها مقرونة بالاختيار الشخصي لا يجبر عليها الطالب . وقد لبى الدعوة غالبية رفاقي من طلاب صفي ، وبقيت انا في حيرة من امري فكان عليّ ان اختار احدى الطريقين: اما البقاء حيث اتم دراستي واتمم زواجي من «جودي» التي تعيش في حبها او الالتحاق مع رفاقي ملبيا نداء الواجب تاركا مصير المستقبل الى يد الاقدار وما كتبه الله لنا . وبعد تفكير ملي ومداولة طويلة مع فتاة احلامي «جودي» تغلب الشعور بالواجب الوطني برغم حبنا للحياة في كنف الرابطة الزوجية ، فاستقر رأينا من غير اي تردد ان احذو حذو اصحابي بالانخراط معهم في سلك الطيران الذي اتخذته كفرع اختصاصي في تدريبي العسكري . وقد تم تسجيلي فعلا بتاريخ ٢٧ حزيران بعد ان اجتزت الفحص البدني كمتطوع بمحض ارادتي في الجيش الامريكي لمدة اربع سنوات . وليس هناك من لا يحب الحياة يا والدي العزيز ، خاصة بالنسبة لنا نحن الشباب وانا ما زلنا في عنفوان وجودنا نتطلع الى المستقبل امامنا ، فيبعث طموحنا ومصدر آمالنا واماننا في العيش الرغيد في ظل مدنيتنا العظيمة الجبارة . وقد اتخذت هذا القرار قبل ان استشيرك والاستئذان منك لعلمي الاكيد بان ما قررته ينال رضاك ، وهل ترضى ان يقال عن ابنك انه جبان ؟! ولا حاجة لي ان اؤكد لك ، يا والدي العزيز ، انني لا استطيع ان استغني عن توجيهاتك المفيدة

وعطفك وارشادك رغم تجاوزي السن القانونية لتي تخولني حرية الاختيار في شؤوني الشخصية ، وأرجو ان تثق بانني حريص كل الحرص على الواجب محتفظ بكل ما تحبه من شريف المبادىء ومكارم الاخلاق ، وانا دوما بحاجة الى عطفك ودعاك .

فاستودعك الله وادعو الباري تعالى ان يمد بعمرك ويحفظ حياتي في مغامرتي من أجل المصير والواجب وان يجعلك راضيا عني . واذا قدر لي النجاة فساعود اليك والى جودي وسوف نلتقي كما بين احضان السعادة والهناء ، واما اذا ناصبنا الدهر العداء وقضى عليّ فسيكون هذا الفراق الاخير الذي لا لقاء بعده ولا رجعة ، وساحمل معي في كل مكان صورتك وصورة جودي رمزا لمودتي ومحبتي الصادقين لكما والقي عليهما آخر نظرة قبل توديع الحياة ان كتب لي ذلك .

ولدك المطيع (جيم)

وما ان تلوت هذه الرسالة حتى انهمرت الدموع عنها وثارت في نفسي العاطفة الأبوية وصرت اهذي بيني وبين نفسي مرددا قول الشاعر :

امن اجل ان يسلم الواحد
تطل الدماء وتفنى الألوف

ويزرع اولاده الوالد
لتحصدهم شفرات السيوف

امور يحار بها الناقد
وتعمي فؤاد اللبيب الحصيف

فيا ليت شعري متى نفهم
معاني الحياة واسرارها ؟

واي والد يستطيع ان يملك نفسه ومدامعه وهو يرى بأم عينه فلذة كبده يساق الى الموت وسط حرب ضروس لا ترحم ولا تشفق .. واي ذنب ارتكبته تلك الأرواح البريئة حتى تساق الى الموت سوق النعاج الى جزارها ؟.. بل واي جرم اقترفته هذه الأنفس المطمئنة وقد غمرها حب الحياة حتى تساق سوق الاغنام الى ميدان القتال لتلقى حتفها او لتصاب بجرح خطير يقعدها طول العمر ؟. واي ذنب جناه اولئك الشبان وهم في عنفوان شبابهم حتى يقادون الى اتون الوغى ؟. فما اقسى الانسان على بني جنسه !. فحتى الوحوش الضارية لا تفترس الا اذا جاعت ، وهي لا تقدم على افتراس اصنافها من جنسها .. فالانسان اذن اضرى منها واشرس ولا يحق له ان يدعي لنفسه

المعول على الحيوان في تصرفه هذا ، اذ اخذ يستخدم عقله وادراكه في التفنن بكيفية ازهاق روح اخيه الانسان ويبذل كل جهده وطاقته في اكتشاف وصنع اقوى الوسائل فتكا لحصد بني جنسه بالجملة .. ان تاريخ الانسانية منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا تاريخ اسود مليء بحوادث الصراع الدامي والظلم الغادر ، إن هو الا قصة مسلسلة لا نهاية لها من الغزو والقتل والاخضاع والاستعباد والحقد والطمع ... وهل من يستطيع ان يغيّر طبيعة البشر هذه بالاقلاع عن المجازر والمصارع الانسانية ؟ .

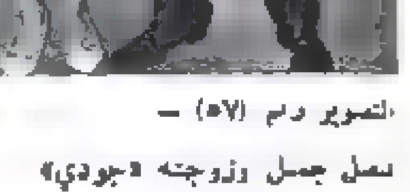
اما جميل فبعد ان بعث برسالته المتقدمة انقطعت عنا اخباره فترة من الزمن . وقد كنت اتوقع بين لحظة واخرى تسلم خبر نعيه لما كان يتعرض له الطيارون من الاخطار نتيجة اسقاط طائراتهم من الجو . وقبلما كنت ارقب ساعي البريد والقلق قد اخذ مني مأخذه واذا برسالة تصلني من اليابان وهي معنونة بخط جميل فكانت مبشرة بالاطمئنان ، ففضضت الرسالة وقد كانت قصيرة لا تتجاوز بضعة سطور ينبئنا فيها انه على احسن حال وانه قدم الى اليابان مع بعض رفاقه لقضاء فترة استجمام فيها ، كما افاد فيها انه ارسل الينا رزمة تحتوي على بعض الهدايا من اليابان ، وقد تسلمنا الرزمة فعلا بعد بضعة ايام فكانت تحتوي على رداء من النوع الذي يلبس فوق الثياب وهو رداء حريري في منتهى الجمال لما كان يحتوي عليه من نقوش وزخارف يابانية زاهية الالوان ، وكان مع الرداء هدايا صغيرة اخرى . ثم مر اكثر من سنتين لم يصلنا شيء عن اخباره حتى فوجئنا ذات يوم برسالة وصلتنا من امريكا معنونة بخط جميل مما يشير الى انه لا يزال في قيد الحياة . وقد انبأنا فيها انه اعيد الى امريكا ليقضي فيها المدة الباقية من السنوات الاربع التي تطوع لخدمته فيها ، فاطمأن بالنا .. وما اصدق قوله تعالى (قل لن يصيبنا الا ما كتبه الله) وقوله تعالى (وسيجعل الله بعد عسر يسرا) .

وهكذا فقد اراد الله لجميل سلامة العودة فاكمل دراسته بعد تسريحه من الجيش وتزوج من خطيبته جودي ورزق منها ولد في ٢٣ تموز ١٩٦٨ اسماه « جفري » عمره الآن اكثر من سبع سنوات . وهو يعيش مع امه وزوجه وولده على مزرعة العائلة حيث يقوم بادارتها .

والآن وقد ادركني ختام هذا الحقل فخير ما اختتم به قصة مهجري في امريكا وعلاقتي العائلية معبراً عن ذكريات الماضي قول الشاعر :

يا زمان الحب قد ولى الشباب
وتوارى العمر كالظل الضئيل

وانمحى الماضي كسطر من كتاب
خطه الوهم على الطرس البليل





التصوير رقم (٥٧) —

يصل جميل وزوجته «جودي»

التصوير رقم (٥٨)—

جيفري سوسة ، وهو في الثالثة والنصف من عمره .



التصوير رقم (٥٩) —

ـ لقاء بين فيصل جميل

ـة احد عالية عندما كانت

ـع بوسالة في امريكا سنة

١٩٦ .

الملحق الاول

دراسة مقارنة بين الاسلام والمسيحية

الاســـلام والنصـرانية (١)

عن الانكليزية ــ مقال وضعه المؤلف في ســـنة ١٩٢٩
اثناء دراسته في جامعة شـيكاغو الامريكيـة

(يلوح انا نحن المسيحيين متصفون بهذا العجز الذي لا يطيق التســـامح من يشتق عن مبادئنا الدينية ، فقديما كما نحرق من خالفنا في معتقدنا . بيوم فبالرغم من سلبنا الحرية الدينية لانفسنا في الغرب فانا لم نفسح حتى في النظر الى كافة الاديان والاجناس بنظر التســـامح الرحب الذي ينازبه الاســلام)

(كلير برايس في كتابه « نهضة تركيا »)

مضامين البحث :ــ

(١) المقدمــة (٢) الاســـلام والنصرانية (٣) الاســــلام وتعدد الزوجـات الاسلام وكيفية انتشاره (٥) الاســلام والاصلاح (٦) ملاحظات وخلاصة

المقدمـــــة

كان قد أغفل شأن الاســلام في الأعصر القليلة الماضية ولم تدرك الأمـم الغربية خطورته الا في سني الحرب العالمية بحيث اضطرت الدول الكبـرى اذ ذاك الى الاعتراف بخطورته فحسب بل السعي الى خطب وده واجتـــذابه الى جانبهم ، فتلك الشعوب التي كانت تعتبر جامدة متأخرة وليست خليقة

---

(١) كان قد انشيء هذا المقال اصلا في اللغة الانكليزية من قبل المؤلف وذلك اثناء دراســـته موضوع « مقارنة الاديان » في جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٩ على يد استاذ اللاهوت المعروف وهو الدكتور هيدن وقد ترجمه الى العربيـة حضرة السيد وهبي توفيق المترجم في وزارة الاقتصاد والمواصلات وان النص المنشور في هذا الكتاب هو النص بعد أن نقح من قبل المؤلف نفسه ، ويود المؤلف بهذا الصدد ان يعبر عن شكره وامتنانه الى المترجم الذي كان المشجع المباشر لنشر المقال في اللغة العربيـة ، وكان المؤلف قد قدم المقال الى الاستاذ هيدن مع كتاب وجهه اليه اليك نصه ادناه :ــ

جامعة شيكاغو في ٢٢ آب ١٩٢٩

عزيزي الدكتور هيدن :

بعد أن قضيت عدة سنوات في هذه البلاد وبعد ان اتيح لي الالتحاق بســت جامعات عالية في مختلف ولايات الاتحاد الامريكي اني اشعر للمرة الاولى باني حر للتعبيـــر عن

الا ان تحكم قد استيقظت من سباتها العميق ثائرة على الظلم والاستبداد ولصمة قلبها وروحها في مطاليبها للحرية والاستقلال والعدل والاعتراف بكيانها ، مها هي الافغان تتمتع بمزية الاعتراف بها كامة اسلامية مستقلة ، اما تركيا فلسنت تتمتع بهذه المزية فحسب بل انها طردت النفوذ الاجنبي الذي كان متغلغلا فيها الى الاعماق مدى عصور ، وها هي ذي مصر في طريقها الى الاستقلال التام وقد افلحت ايران في تقويض هيبة الاجانب غير انها مع ذلك لم تفتها قيمة المشورة الغربية المخلصة فاقبلت تتلمسها على ايدي امريكا ، وهو ذا موطن الف ليلة وليلة فان الانظار متجهة اليه وقد يكون مكمنا لسيادة مجيدة في المستقبل القريب . ان ديار العرب هي مهد لاعظم المدنيات وهي تناضل اليوم من اجل كيانها كامة عربية تستمد قوتها وسلطانها من قلب الجزيرة العربية وليس بعيد ان يأتي يوم يحدث فيه التدخل الغربي الطامع حافزا لتاليف مصلحة مشتركة تكون من القوة بمكان بحيث توجد اتحادا من الامم لاسلامية ضد الاستغلال والاستثمار الاوروبي بالرغم من الخلافات الكائنة فيما بينها الآن في امور اللغة والثقافة والمركز الجغرافي وذلك

▶ آرائي في المقال الذي اقدمه لكم مع كتابي هذا ، وذلك لما وجدته في شخصكم من سعة التفكير وبعد النظر والتسامح ؛ فلي وطيد الثقة بانكم ستنظرون الى ما في المقال بنظر واسع خال من التحيز والانتقاص .

ولعلكم تظنون من مجرى البحث في المقال باني مسلم فاحطكم علما باني لست مسلما واني قد تطرقت الى البحث دون التحيز الى جهة ما وانما قد حافظت على واجب سرد الحقيقة والانصاف حسب ما تراءى لي من نتيجة تنقيبي ودراستي .

المخلص لكم

وقد يتساءل القارىء عن الداعي لتوجيه مثل هذا الكتاب وله الحق في ذلك الا اذا تصور الوضع في الولايات المتحدة ، فان الكنائس وجمعيات التبشير المنتشرة في امريكا قد جعلت عامة الامريكان يعتقدون بان الاسلام هو مثال الضلال وشيء من الوثنية وعليه فمن يظهر حقيقة الاسلام او يكتب عن حقيقة امره فاول شيء يخطر على بال الامريكي انه مسلم .

ـ واما الاستاذ هيمن فقد اعاد المقال الى المؤلف مع مطالعته التالية عليه :ـ

« اني لاقدر روح التفاهم والتسامح ؛ انه مقال مفيد . »

ولا يغرب عن البال ان هذا المقال كتب اصلا في اللغة الانكليزية وفي بلاد غريبة القارىء الامريكي مع مراعاة تاثيرات المحيط وذلك بالاستشهاد بما دونه الغربيون انفسهم في الموضوع . وعليه فلو كان المؤلف يكتب هذا المقال في اللغة العربية لكان حرره في غير هذا القالب والاسلوب . هذا كما ان لا يخفى ان المقال قد كتب في امريكا كرسالة مطلوب تقديمها من قبل كل تلميذ قبل انتهاء الدورة التدريسية وقد كانت مصادر المطالعة كلها كتب اجنبية لكتاب غربيين .

ن المصالح المشتركة يمكن ان تؤلف وحدة حتى بين العناصر المعادية بعضها بعض كما انها قد تغذ الخلاف والخصام بين اشخاص وجماعات كانوا دواما على ود مقيم .

وعليه فلا غرابة فيما نجد من اتجاه الانظار وبذل الاهتمام الزائد في دراسة الاسلام خلال السنوات القلائل الماضية ، وليس قليلا عدد الكتب التي صدرت حديثا عن هذا الموضوع ومصداق ذلك ما قاله المستر جون موت في هذا الباب بكلماته التالية :ـ

« في الواقع ان اهتمام المسيحيين يتجه اليوم نحو الاسلام اتجاها لم يسبق له مثيل منذ غارة المسلمين على اوروبا وان موقف اتباع الدين الاسلامي وسيرهم لهما تاثير حيوي على علاقات البشر من الناحية الدولية والجنسية ومن ثم على سلام العالم . » وان العالم ليلتفت الآن الى الوراء الى ذات البقعة التي ترعرعت فيها الروحية والرسالة التمدنية لتكون حافزا مباشرا لتكوين النية الطيبة والتفاهم بين المسلم والمسيحي ، بين الشرق والغرب ، ومن المؤكد ان في هذا الامر خطورة جوهرية للسير في سبيل السلام العالمي ، وبهذا الصدد يقول الدكتور جاسترو في كتابه « المسالة الشرقية وحلها » ما يلي :

« لم تنته الحرب بعد ، كلا ولن تنته ما لم تحسم المسالة الشرقية وانه ليس ادعاء طائشا ان نقول بوجوب اعتبار المئتين وخمسين مليونا من اتباع محمد (ص) قوة كبرى يجب مصافاتها قبل ان يكون في الوسع حل المسالة الشرقية . ان العالم الاسلامي اليوم برمته في غليان شديد وثمة انقلاب هائل يجري الآن على قدم وساق وسيتمخض عن نتيجة لا بد ان تؤثر على البشر كافة . . » .

وغالبا ما سمعنا من منابر الكنائس كما قرانا في افتتاحيات الصحف لا سيما في اميريكا وبالاخص خلال فترة الكفاح العالمي وهي الفترة التي بلغت بها الدعاية اقصى ذراها ان المسلم متوحش بربري وانه يدبح المسيحي وديدنه السلب والنهب و لاغتصاب وان دينه دين قوة وسفك دماء وهكذا كان الراي العام الذي بنى معلوماته على هذه الاقوال اخذ يطالب بوجوب استئصال قوة الاسلام وانه يجب ان يجرد من مزية الحكم واخيرا فان « تركيا العاجزة عن قيامها بواجبها الانساني يجب ان تخرج من قائمة الامم . » ذلك هو الراي العام الاميريكي وهو ما يزال راي الكثيرين ممن لم يبصروا نور الحقيقة بعد .

هذا وان الاعتقاد في كون الاسلام عقيدة زائفة وان مؤسسه دجال قدنال درجة من الرواج لدى عامة القراء الاميريكيين بحيث يظهر انه اصبح من الصعوبة بمكان بيع كتب ادبية تحبذ الاسلام او بالحري تذكر عنه الواقع الحق .

ان العرآن الذي كان قد ترجمه « سيل » الى اللغة الانكليزية قد اصدر حديثا بطبعة جديدة من قبل شركة « برت » بيد ان مقدمته لمهيديه التي دبجها يراع « سيل » المندمجة مع الترجمة الاصلية قد حذفت بالمرة وحل محلها في الطبعة الصادرة اخيرا مقال بعنوان « حياة محمـــــد » بقلم (فردريك مايتون كوبر) • وثمة دليل كاف لليقين بان الدافع الذي ادى الى هذا التغيير مرتبط بغرض الكسب التجاري والرواج لان المقال الجديد الذي كتبه المستر كوبـــر احتوى على اسطورة دارجة مما يرويه خصوم الاسلام عن الديانة المحمديـــة • ولقد اطلق المستر كوبر قلمه العنان وكتب ما شاء ان يكتب في محاولـــة البرهنة (وهو ما عجز عنه في الواقع) على ان محمدا (ص) دجـــال وناس وشرير وان قرآنه تزوير واضح بحيث انه لم يذكر فعلا اي شيء عن الموضوع الرئيسي الذي يشير اليه في عنوان مقاله • ولقد كتب المستر كوبر ما كتب بصفته كاتبا لكي يشبع شهوته الذاتية ويسجل رايه المتحامل الا انه لم ينجز اي شيء جدير بالالتفات اذ ان معالجة موضوع من بروح غير نزيهة وغير مجردة عن الغرض والتحيز لم تبق ثمة اية قيمة ادبية تاريخية للبحث ، واني احيل ما كتبه المستر كوبر الى الواقفين على دراسة الاسلام ليحكموا انفسهم في امر تحيز الرجل في بحثه • واقول انه ربما لا توجد كلمات تيمت في هذه المناسبة افضل من الكلمات التالية حول سوء استعمال اللغة من قبل بعض رجـــال العلم اذ قيل :ــ

« اذا اراد اي امرىء ان يتامل الاخطاء والارتباك والغموض والاغـــلاط التي تنتشر في العالم عن طريقة اساءة استعمال الكلام فسيجد سببا للشك فيما اذا كانت اللغة ــ على قدر ما يتعلق الامر بطريقة استعمالها ــ قد ساهمت في تحسين المعارف بين الجنس البشري ام في تاخيرها الى الوراء • »

وليس بين المطلعين على الديانة الاسلامية من يقرا مقال المستر كوبر دون ان ترتسم على شفتيه ابتسامة اسخرية ، وهذا المقال على كونه يحمل عنوان « حياة محمد » فان مضامينه لا تحتوي في الواقع على اية حقيقة تاريخيـــة بل لا تتطرق فعلا الى البحث في تاريخ حياة محمد الذي يعرفه المطلع ، ولقد ذهب الكاتب برايه المتحامل المتعصب على طول الخط ومن ثم فقد بنى افتراضـــه على ان محمـــدا دجال وشـــرير وان « لله اقامه لارهاب الجنس البشـــري وارعامه على الشر والســوء • » وانه لمن الميسور ان يبني المرء فرضـــا او اعتقـــادا بيد ان النجـــاح الحقيقي انما يكون في مجـــال التحقيق والاستشـــهاد والتدليل ففي هذا المجال كان نصيب الكاتب الاخفاق التام •

ولكي يدلل المستر كوبر على افتراضه فقد ركن الى الاساطير والخزعبلات التي يرويها خصوم الاسلام ولكن هذه الروايات لا تقنع غير الجاهل بشـــؤون الاســلام والذين لم يقفوا على حقيقته ، هذا ويدعي الكاتب ايضا ان الاسلام

غير جدير بان يسمى دينا وقد ذهب الى ان الاسلام في طريق الاضمحلال ومن المؤكد ان هذا الزعم وحده كفيل بان يقدم دليلا كافيا على نقص معلومات المستر كوبر من الناحية التاريخية لموضوعه وجهله الحقائق الملموسة لأنه لو تسنى له أن يدرك كم هو عدد المسلمين الذين تنصروا واصبحوا مسيحيين وذلك بمراجعة تاريخ نشاط واعمال البعثات التبشيرية في الاقطار الاسلامية لاتضح له بكل تأكيد خطأ مدعياته . ومن الغريب ان المستر كوبر جاء بأمر كون محمد (ص) اقترن من الارملة الغنية خديجة دليلا للحط من شأن نبي الاسلام وللبرهنة على انه دجال فقد قال :

« لو لم تكن مرامي الدجال الطموحة بالنسبة له لتحل محل كل شيء آخر لما كان من المرجح ان يقترن بامرأة تكبره اثني عشر عاما بيد ان ثروتها الطائلة فتحت امام عينيه الآفاق المبهجة للوصول الى جني ثمار اعذب رغباته . »

وهكذا يعود المستر كوبر فيظهر نقصا في معلوماته عن تاريخ حياة محمد. لأن التاريخ ينبؤنا ان محمدا ضحى بكل شيء من اجل رسالته اذ اتيحت له مرات فرصة الاختيار بين أمرين أولهما حياة راحة وهناء وغنى على ان ينبذ انجيله وثانيهما حياة عسر واضطهاد مقرونة بنشر رسالته وقد فضل الامر الثاني لأن ايمانه برسالته كان قويا وكان قد اوحي اليه بانه قد اختاره ربه لبث هذه الرسالة الى الانسانية جمعاء فكان ما اراد الله له .

وعلى أساس مثل هذه التلفيقات التي تنشر على الدوام وتلقى على مسامع الجهلاء فقد صار الاسلام بحد ذاته ينقل الى ذهن عامة الاميريكيين فكرة البربرية والقسوة والجهل بغض النظر عن كلمة « الاتراك » التي لا يفهم الاميريكي منها سوى التجرد عن البشرية والخيانة ، ولم يمض زمن بعيد حينما احتج عدد من الرعايا الامريكيين ذوي المكانة على تصريحات المستر كوليدج فيما يخص الموافقة على دخول السفير التركي الى الولايات المتحدة وقد بني احتجاجهم بصورة رئيسية على الادعاء القائل بان السفير المذكور ساهم في المذابح الارمنية في تركيا وعلى ان الاتراك يجب الا تعترف بهم حكومة الولايات المتحدة بالنظر لما ارتكبوه من الجرائم ضد الانسانية . ان وقفة تامل وامعان حول هذا الموضوع كفيلة بأن تفهم المحتجين بان « المسؤولية الكبرى عن وضع الأرمن الحالي يجب أن تقع على عاتق الدول الكبرى(٢) وان الجيش العثماني النظامي كان بريئا كل البراءة من مذابح الأرمن . ولقد تجوهلت الحقيقة جهلا تاما وهي أن المانيا المسيحية كانت تسيطر على دفة البلاد التركية والقوات العسكرية هناك والتي كان في يدها حياة الاتراك وحياة الأرمن على السواء

---

(٢) ميرز في كتابه « تركيا الحديثة »

كان في وسعها بدون أقل صعوبة الحيلولة دون تلك الكارثه وليلاحظ كذلك ان الاتراك قد ذبحوا على أيدي الأرمن بذات القسوة والفظاعة التي ذبح فيها الاخيرون على أيدي الاولين ويقول اللورد كرزن بهذا الصدد :

« لا بد من الاعتراف والجزم بان الأرمن خلال اسابيع ١٩٢٠ لم يتصرفوا تصرف الحمل البريء كما يتوهم بعض اناس اذ انهم في الواقع قاموا بسلسلة من الهجمات الوحشية واثبتوا على انهم قوم متعطشين الى الدماء . »

ومن المهم ان نلاحظ اننا لو راجعنا تاريخ قيام وسقوط الامبراطورية العثمانية لوجدنا انه حينما كان المسيحيون يقومون بالمذابح كانت اعمالهم تنعت بمجرد الظفر والانتصار الا انه من الجهة الاخرى حينما كانت ذات الطريقة تجري على أيدي المسلمين فعندئذ تكون المذابح مذابح حقيقية بالحرف والمعنى ، وحيث ان المجزرة في كلا الوجهين ليست سوى ابادة البادرة للظفر فان المسيحيين كانوا على الدوام بمنجاة من تهمه القسوة والفظاعة وكانوا يهنأون على ما نالوه من انتصار في حين كان الاتراك يلعنون ويتهمون بأنهم ارتكبوا جرائم بربرية . وهي جرائم تقع مسؤوليتها على عاتق المدعين انفسهم في اغلب الاحيان . ان فكرة الاصغاء الى جانب واحد فقط في المسألة التركية قد عبر عنها الماجور باول تعبيراً رائعاً اذ قال :ـ

« اننا نستنكر الاتراك ونحن في ذلك محقون كل الحق وذلك لما ارتكبوه من المذابح تجاه الارمن واليونان ناسين الآلاف التي لا تحصى من الاتراك الذين ذبحوا على أيدي الارمن واليونانيين في آسيا الصغرى وعلى أيدي الأرمن والروس في القوقاس واليونانيين والألبانيين في البانيا وكريد واليونانيين والصربيين والبلغاريين في ماكدنيا وتراقيا والحقيقة هي ان الشعب الاميركي قد ضللته واعمت بصيرته دعاية ضد الاتراك تآمرت فيها الصحف ومنابر الكنائس دعاية تدر أن تضاهي في وقاحة الكذب ومهارة التمويه والتضليل ، ويا لها من دعاية منظمة توفر فيها الغدر والمخاتله واستغل الدعاة عن طريقها تعصبنا الجنسي والديني بحيث سلمنا بها دون تمحيص موقنين ان التركي هو كل ما تصمه به أعداؤه . »(٣)

الاسلام والنصرانيه

من الواضح لكل من وقف على مبادىء الاسلام ان معظم ما قيل عن الديانة الاسلامية من قبل رجال الدين الغربيين مبني على الأغلب على العاطفة ويكاد لا يوجد دليل لاثبات وجود اي اتجاه للركون الى الحقائق في مجال التاريخ

---

(٣) عن كتاب « الكفاح من اجل السيادة في آسيا الاسلامية » لمؤلفه أي . ا . باول .

إسلامي . ان الاسلام ديانة شرقية وكذا المسيحية . وفي الواقع فهنالك على مدى غير بعيد من المرية التي كان المصري ينفي اليها علامات نجيبة وقد اتى العربي مباعاً رسالته الى شعبه بل الى الانسانية جمعاء . ولا يزال الكثيرون ممن يحيون تعاليم محمد الاسلامية – ودلت نسبتهم تعود الى سيدهم التعصب وفقهها لعرض متمسكين بالفكرة ان الاسلام والوثنية على صعيد واحد عن العرب فان الحقيقة الثابتة هي ان الاسلام ينطق بحرارة وبهاء بالاعتراف في الديانتين المسيحية واليهودية وانه مبني اساسيا على قاعدة التوحيد وعبادة اله رب الجميع . وانه لمن المستحسن تضمين هذه المقالة سردا مسهبا لحياة محمد والديانة التي انزلت عليه ولكننا نقتصر على موجز من القول وقد نكون افضل خلاصة ما كتبه السير ريتشارد برتون في كلامه عن محمد اذ يقول :

« انه لشاب ذو حسب نبيل وكموسى الرسول والمشرع الاسرائيلي فانه اشتد عوده عن طريق الاستقرار والوحدة والتأمل فقد كان جبل حيره له بمثابة جبل حوريب (حربه) لموسى وكان يفكر تفكيراً قويا رائقاً ولقد كان سيد الفصاحة والبلاغة وكسبته براهنه لقب الامين فمكنته سجاياه السامية ان يقترن بالارملة الغنية ، وبعد مضي زمن طويل من التامل وقد انهك عصبيا من جراء تعصب اليهود الديني السخيف وخرافات النصارى من السوريين والعرب وعبدة الأصنام الاقباط من مواطنيه عزم وهو المتهيب حماسة – وانه روح كبيرة لم تكن متحمسة وثابة – على اصلاح عادات المفسد التي جعلت الوحي الالهي والايمان امرا مرذولا لدى العقلاء ومجحفا مضرا لدى السوقة ولقد برز لجماعة من اقربائه ورفاق قسمه كرسول نزل عليه الوحي والالهام . »

فيما خلا الثالوث وبعض نقط ثانوية ان الاسلام يعترف بالنصرانية ويبجل الاسفار المسيحية وكذلك اليهودية مع انه يوضح بعض التحريف فيها . كلا من النصرانية والاسلام مبني على ذات المبدأ الجليل وهو كون الله خالق الكون ولا يختلفان الا في كون الاولى تتصور رمز العربي متشخص بالله وهكذا تسمو بالانسان الى مستوى الاله في حين ان الثاني يترك الانسان الى اضعف المراتب بالنسبة الى خالقه رافعا سمو الاله الى مستوى لا نهائي غير محدود « الله أكبر ، لا اله الا الله » هكذا يقول المسلم . ان الثالوث الذي يلمح الى وجود بشر الهي وقربى لله قريبة لاواصر من المرء تزيل في اعتقاد المسلم العقاب البشري ويكون مفادها بالضرورة ان الانسان يجب ان لا يؤدي حسابا عما تجنيه يداه . ولا بد ان نشير بهذا الصدد الى اننا اذا راجعنا تاريخ بلدة بوستون الاميركية لوجدنا انه كانت في وقت من الاوقات جماعة من المسيحيين تدعى بالانتينوميين الذين ادعوا ان المسيحي لا يمكن ان يرتكب منكرا او جريمة وانه يجب ان يكون مستثناة من القانون وطائلة العقاب؛

[illegible]

ومن الجهة الأخرى فإن الإسلام يوصي بالخضوع المطلق لإرادة الله الأكبر والذي [illegible] إلى الله ومن الله [illegible] ذلك عن [illegible]

[illegible]

[illegible] الإسلام [illegible]

[illegible]

[illegible] « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » !

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » [illegible] سورة البقرة [illegible]

[illegible]

[illegible] ظهر ذلك بخصوص الإسلام أمرا مستغربا فإن الحقيقة التي لا تنكر هي [illegible]

فهل يمكننا أن نستنتج مما أوردناه أعلاه سوى أن الإسلام دين تسامح

لا يرضى بالتعصب السخيف الذي اتصف به بعض الدين وانه لا يوصي بالحط من كرامة المسيح كما ادخل في عقل الكثير من الناس ... ومصداق ذلك ما ذكره الفيلسوف الاشهر توماس كارلايل حول علاقة الاسلام بالمسيحية حيث قال :ـ

« نحن نسمية الاسلام ضربا من النصرانية [illegible] الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق لانما انه كان خيرا من تلك النصرانية التي كانت [illegible] [illegible] [illegible] النصرانية [illegible] راس محشوة بـ الكاذبة وترك اتباعه بطلالها قفرا خيبا !.. وعلى كل حال فلنا ان نكرر ان دين محمد هذا ضرب من النصرانية [illegible] للمبصرين شرف معاني الروحية واعلاها فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ولقد مضى عليه مئتان واثنا عشر عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم [illegible] ومن زال فوق ذلك [illegible] يؤمن به اهله من حبات افئدتهم ولا احسب ان امة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم » (كتاب الابطال مؤلفه توماس كار لايل) .

وختاماً دعنا ندون ادناه ما ذكره الدكتور ماركس دورس حول نبي الاسلام ورسالته اذ قال :ـ

« ليس محمد نبياً ... من المؤكد ان له اثنين من اهم الخصائص للزعامة النبوة ، فقد راى الحقيقة عن الله ـ تلك الحقيقة التي لم يرها اصحابه ـ والهد ... دافع داخلي لا يقاوم في سبيل نشر هذه الحقيقة . اما فيما يخص الناحية الثانية فلمحمد ان يقارن باشجع الابطال من انبياء اسرائيل ... الحقيقة غامر بحياته وقاسى اضطهاداً مستديماً سنوات عديدة ، ... مرارة النفي وضيع ما يملكه وحسن معاملة مواطنيه وثقة اصدقائه ، وتصدى الكلام فقد قاسى ما يقاسيه من ذاق صنوف الآلام حتى الموت الذي ... منه الا بفراره ، ومع ذلك فما ... يبشر برسالته ولم يسكته اي وعيد او رشوة او اغراء ومما قاله :ـ

« والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » (...) .

الاسلام وتعدد الزوجات

هناك عدد من الاتهامات التي يتخذها خصوم الاسلام ذريعة لمواقفهم العدائي ومن ابرز هذه الاتهامات هي قضية تعدد الزوجات في الاسلام ، ولا نرانا بحاجة للاسهاب في شرح حالة الجزيرة العربية في الوقت الذي ظهر فيه

النبي الاسلامي حملا رسالته الى شعبه ، ويتضح لمن يحملون فكرة صحيحة صادقة عن المحيط والظروف ابان نشر الدعوة الاسلامية ان الخطوة الجبارة المتخذة من قبل النبي العربي في مجال الاصلاح الاجتماعي والادبي لا يمكن التفريط في تقديرها ، ونكتفي بالايجاز دون التطرق الى التفاصيل فمعول به حسبنا ان نذكر في هذه العجالة بعضا من العادات التي حرّمها الاســـلام كتضحية البشر وتعدد الزوجات غير المحدّد وشرب الخمرة والقمار والقسوة في معاملة العبيد ووأد البنات .

لا جرم ان هذه العادات كانت ستجري مجراها دون ما تعرض لو لم يظهر راعي الصحراء النبي العربي الذي وضع حياته على مذبح الاصـــلاح والتنوير فقد الغى عادة الزواج بأرملة الأب و بالاقرباء الاقربين وذلك بقوله تعالى :

« حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نســـائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعـــوا بين الاختين الا ما قد ســـلف ان الله كان غفـــورا رحيما . » (ســـورة النســـاء)(٤) .

نستنتج من هذه الآية الكريمة ان العادات التي حرمت فيها كانت متبعة في الجزيرة العربية كامر معتاد قبل أن يضع محمد لها حدا . وان من ضمن الأمور الاخرى التي قضى عليها الرسول هي عادة تعدد الازواج اي زواج الامرأة بعدد من الازواج التي كانت في الانتشـــار واسع فقد قيل عن احـــدى النســـاء المسماة « ام خارجة » انها تمارت بتعددها اربعين بعلا . ولقد كانت المرأة في ديار العرب قديما مجرد متاع مجرد ذكرها أمر ممتهن . هكذا كان الوضع حينما برز صاحب الجمال العربي على المسرح ناشرا تعاليمه وحقا انه قد رفع مقام المرأة في آسيا من وضع المتاع الحقير الى مرتبة الشخص المحترم الذي له الحق في الحياة حياة محترمة كما ان له الحق في أن يملك ويرث المال قال توماس كارلايل :-

« وقد قيل وكتب كثيرا في شهوانية الدين الاســـلامي وارى كل ما قيـــل وكتب جورا وظلما بان الذي اباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكـــن من تلقاء نفسه وانما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الأزل وقد قلل محمـــد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان في امكانه ان يجعل . »

---

(٤) ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد بان الديانة اليهودية لا تحرم الزواج ببنـــات الاخت او بنات الاخ .

ولنعد الآن الى قضية تعدد الزوجات فنقول ن الاسلام في الحقيقة يبيح هذا التعدد ولكنه قد حدد عدد الزوجات بأربع على شرط العدل مع تفضيل الزوجة الواحدة بمجرد الخوف من عدم العدل وفي الوقت نفسه التأكيد بأن العدل غير مستطاع وعليه فان تعدد الزوجات في الاسلام قد حلل على طريق الاستثناء وبموجب قيود اوجب مراعاتها ، ولا يغرب عن البال بأن تعدد الزوجات كان امرا محبذا ان لم يكن ضروريا عندئذ في الوقت الذي كان معظم المؤمنين يستشهدون في اقتتال عدا الاوبئة والثورات التي كانت تحصد الكثير منهم ، لذا فقد امنت اباحة تعدد الزوجات اعالة الأرامل من النساء مع اطفالهن كما انها كفلت استبقاء الجنس وهو امر حيوي لتأمين بقاء الرجال المطلوب في حياة البداوة المحفوفة بشظف العيش وعسره ٠

وعدا ذلك فقد صانت المجتمع من تفشي البغي والفجور وقد قال اسحق تيلو بهذا الصدد :ـ

« واذا قلنا بمضار تعداد الزوجات فانا نرى لها منافع تفوق تلك المضار لانها ازالت واد البنات ومنحت كل انثى حمى شرعيا تخلصت بها البلاد الاسلامية من الحرف الممقوتة التي خزيها في المسيحية اشد واكثر من تعداد الزوجات ـ فيما عدا تعداد الزوجات المنتظم في البلاد الاسلامية فانه اقل اهانة للنساء واكثر حصانة للرجال من البغي والفجور الذي هو خزي عظيم على البلاد المسيحية وهذا البغي غير معروف لدى الامة الاسلامية فهل والحالة هذه يمكن لبغاة الانكليز ان يرشقوا المحصنين الاسلاميين بحجارة الطعن والملام فلنخرج الحمر اولا من اعيننا قبل ان نخرج القذى من عين اخواننا ٠ »

ومما يدل على ان الاسلام هو دين ابدي قد انزل لكل وقت ومكان نجد ان عادة تعدد الزوجات لم تعد تتبع في كثير من الانحاء الاسلامية الا ما ندر وقل ذلك لسبب التطور الذي طرا في حياة معظم الجماعات بحيث جعل العسر الاقتصادي والظروف الحالية تعدد الزوجات متعذرا تطبيقه وبكلمة اصح ان المؤمن اصبح غير قادر على ان يعدل فيما اذا اتخذ له اكثر من زوجة فاعتصم امتثالا لكلامه تعالى بعدم تجاوز الواحدة ، هذا واذا دققنا كم هي النسبة المئوية من المؤمنين بالدين الاسلامي الذين يطبقون عادة تعدد الزوجات في الوقت الحاضر نجد فعلا انها نسبة جد قليلة واشد ما يكون هذا التطبيق بروزا في الاقطار النائية حيث لم يدخل الا تغيير بسيط في نظم حياة الماضي الذي هم فيه الآن يحيون ٠

ومن الغريب ان في البلاد المتمدينة (ونعني بالمتمدينة البلاد التي اقتبست الحضارة المادية الحديثة) التي اصبح من المتعذر على المسلم وفقا لتعاليم القرآن تطبيق عادة تعدد الزوجات فيها لسبب حياة المدنية المرتبكة الحالية

وعدم امكانه اعدد نجد اتباع الطائفة المعروفة بطائفة « المورمون » وهم عرسون يعيشون في وسط المدينة العربية الحديثة لا يزالون يمارسون عادة تعدد الزوجات وليك ما يقوله المبحر ناول في هذا الباب اذ يرى :ـ

« ان عادة تعدد الزوجات لا يطبقها اكثر من اربعة في المائة من مجموع النفوس في تركيا الاسلامية في حين ان في الوقت نفسه نقرأ بكل هدوء ودون ما استغرب حول ممارسة ابراهيم ويعقوب وسليمان وآخرين من انبياء التوراة هذه العادة او البعض من ملوك المال واقطابه الاميريكيين الذين قد اعدوا لهم مؤسسات خاصة لنسائهم العديدة بصورة لا تختلف عن تطبيق عادة تعدد الزوجات في سوى عدم مشروعيتها وكونها تجري وراء الستار ، ومن المهم ان نلاحظ بهذا الصدد ان عادة تعدد الزوجات لم تمنع في الولايات المتحدة الاميريكية الا بعد ما يقارب القرن بعد الثورة وكانت تمارس في مدينة «يوتاه» علانية قبل زمن قليل جداً ، وحينما توفي احد الوجهاء المشهورين من «يوتاه» منذ مدة ليست ببعيدة جلست نساؤه الأربع بجانب نعشه اثناء اجراء مراسيم الدفن • »

لقد كان من الضروري أن يعتاد قوم يعيشون في مثل مناخ الصحراء حيث تقصر مدة البلوغ وفي كل نظام اجتماعي ينطوي على حروب مستمرة يتعرض معظم السكان الذكور فيه الى الموت على ممارسة عادة تعدد الزوجات لكي يتسنى لهم محافظة الجنس وحينما حدث التطور الهائل في القسم من هذا المحيط فبات هذا غير ممكن ، ويروى عن نابليون قوله « ان محمداً كان اول مشرع شرقي حاول فرض قيد على تعدد الزوجات اذ هذه حقيقة يجب وضعها نصب الأعين • » وقد عزا السر ريجارد برتون في كتابه « الاسلام » ممارسة تعدد الزوجات وتعدد الازواج الى العامل الجغرافي ، وقد عبر تعبيراً رائعاً عن استنكاره الشديد للخطأ الشائع القائل بأن الاسلام دين شهوة اذ قال :ـ

« من الصعب التوصل الى معرفة كيفية حصول هذا التقدير المتناهي من الخطأ ولا أرى تعليلا لحصول ذلك غير الجهل المطبق ولربما كان هذا الاستنتاج الشرير الفاسد قد بني على الزعم ان جنة المسلم جنة شهوة وعليه فلا حد لشهوانية المسلم في هذا العالم ، ومن الممكن ايضا ان العناصر التي لا تتزوج بغير امرأة واحدة والتي تقطن الاصقاع الشمالية ـ لأن الزواج بزوجة واحدة وتعدد الازواج والزوجات من الامور التي تتحكم فيها الجغرافية ـ قد صدمهم اباحة الاقتران بأربع زوجات الا انهم قد اغفلوا ـ لدى تفسير سنة محمد ـ الحدود الدقيقة التي اودعها فيها فيما يخص حياة الترف والشهوة ، اذ ليس للمسلم أن يأخذ لنفسه زوجة واحدة ما لم يكن قادراً على اعالتهن واكسائها وارضائها وعليه أن يعامل افراد البيت بصورة يتمثل فيها عدم التحزب الصارم متحاشيا بكل دقة ان يظهر اي افضلية في غير محلها الواحد على الآخر ولقد

ابيح له الاقتران باربع زوجات رغبة في ان يزيد في عدد افراد بيئته وبضاعفها، ان الرجل الباطن في المحيط الحار والذي يتدرج نحو سن البلوغ والنضوج مبكرا ويفقد القوى التي نشربه على سوء التصرف فيها عاجلا لن يكون قادرا على تكوين اسرة كبيرة اذا كان بعلا لزوجة واحدة يجب ان يكون شأنه شأن اليهود فيخول مبدأ تعدد الزوجات ويمنح صلاحية الطلاق ، ان هذه الصلاحيات ضرورية لزيادة الجنس البشري في الشرق وليس ثمة دين يستطيع ان يسن شريعة يكون من شأنها كبح جماح ذلك التكاثر الطبيعي الذي هو اساس كل تقدم ومدنية . واذا ضربنا صفحا عن هذه الاعتبارات هل في وسعنا ان نرمي بالشهوانية دينا يحظر على الرجل النظر الى تمثال او صورة ويندد بتعاطي المسكرات حتى اذا كانت على ابسطها ، هذا الدين الذي يحتم على معتنقيه اداء الصلاة خمس مرات في اليوم في كافة المواسم ، في الافراح والاحزان ، والمرض والصحة ، هذا النظام الذي يفرض اعطاء الزكاة بصورة غير منقطعة ويحرّم الربى كيفما كان ولدي عاينا ما يصبح صيامه السنوي تجربة من امرّ التجارب التي يتعرض لها الانسان ، ذلك الدين الذي يحتم بصورة الزامية حج البيت القصي بكافة متاعبه ومصاعبه مرة واحدة في الحياة على الأقل والذي نادى نبيه كما نادى مؤسس المسيحية قائلا « الفقر فخري » والذي علم أتباعه موضحاً لهم ان أمرين يدمران الانسان وهما الثراء المفرط والكلام الكثير ، على أولئك الذين يعرفون الاسلام معرفة جيدة ان يرثوا خمرة التنسك والتقشف التي ينطوي عليها هذا الدين بدلا من ان يرموه بالشهوانية . »

الاسلام وكيفية انتشاره

لم يكن ثمة تحامل بين خصوم الاسلام اشد شيوعاً من الاتهام الباطل القائل بأن الاسلام دين قوة وارهاق ، هكذا كانت استنتاجات معظم علماء اللاهوت الغربيين ولا يزالون مستمرين على بثها بالرغم من كونها ادعاءات سخيفة لا يقرها الواقع ، وانهم ليجزمون أيضاً بأن العرب يهوون الشدة وان نبيهم جعل العنف امرا قدسيا ، وثمة ادعاء آخر ذلك ان حركة محمد برمتها كانت مشربة بالروح العسكرية .

القوة !. اجل . ولكن اية قوة كان في وسعها ان تجدي لشخص محاط بالآلاف المؤلفة لمقاومته ؟ اهي القوة التي اكسبت محمدا نصره الأبدي ؟.. لا وربي ، فما كانت القوة التي ضمنت نجاح محمد في بث دعوته ، والادعاء بخلاف ذلك هو باطل وتلفيق وعدوان ... نظرة فيما يدونه التاريخ والتاريخ بالحقائق عليم وبالاختلاف هو الحكم المعني !. نظرة الى اتباع محمد وهم يتجشمون وعثاء السفر الى الحبشة لقصية لتخليص انفسهم وحتى في ذلك المكان القصي طالبت قريش باستردادهم ... لا ، فلا القوة ولا العنف

كلما مر انتشر الدين الاسلامي ولقد كان صدق دين محمد وليس شيء آخر سوى قوة ذلك الصدق الذي اثر في نفس نجاشي الحبشة فجعله يرمض والدموع في عينيه تسليم المتفيين المحمديين . ولنتصور محمداً نفسه مختفيا في الغار مصحوبا بأبي بكر ثلاثة أيام عجاف يتبعه المطاردون من قريش لازهاق روحه ولما ان بلغ القريشيون الغار قال أبو بكر وقد اخذ منه الخوف مأخذه : « لسنا إلا اثنين » فأجابه محمد : « هنالك ثالث انه الله نفسه . » ولنتصور محمداً وحيدا مزدرى به وقد رميت العراقيل في طريقه مرجوماً بالحجارة كلما مر ... حقاً ان محمدا ليس مدينا بطفره الى السيف ولكن لا جرم انه مدين بذلك الى صدق رسالته والى سمو رائده . وليس لنا الا ان نجزم ان الجيوش كانت واسطة التقدم ولكن بعد كل ذلك فان محمدا لم يرغم احدا من أهل الكتاب على اعتناق دينه ولقد كان يسمح للاقوام المقهورة ان تنتخب أي الأمرين اما دين محمد أو اداء جزية معينة وفي حالة اختيار هذه الاقوام الامر الثاني فانها كانت تمنح مطلق الحرية في العبادة . وفعلا قد منع استعمال الارغام في سبيل الهداية الى الدين الاسلامي في القرآن الكريم وذلك بقوله تعالى :ـ « لا إكراه في الدين . »

والآن فلنسأل هل طوت المسيحية كشحاً عن الركون الى الحسام حينما آتتها الفرصة على ذلك ؟ لا شك في ان الجواب بالسلب ! ونضيف الى ذلك انها حينما سنحت لها هذه الفرصة خابت في البرهنة على ان المسيحيين هم اكثر كرماً ورحمة بالاسلام من هؤلاء باولتك . ان البابا اوربان الثاني لدى اثارته أتباعه على خوض المعارك ضد الاسلام كان يقول لهم : « اذا كان لكم ان تريقوا الدماء فاغسلوا أيديكم في دماء الكفار ، اني مكلمكم بشدة لأن مركزي يرغمني على ذلك . اي جنود جهنم كونوا جنود الله الحي . » تلك هي التعاليم العسكرية المسيحية ازاء رسالة محمد التي تنطوي على وجوب مراعاة الرفق في القتال حتى مع عبدة الاصنام . ولا ادري كيف تعلل اعداء الاسلام ادعاءاتهم الباطلة ومفترياتهم السخيفة حينما يقرون العنف والقوة الغاشمة الى الدين الاسلامي وكان الأحرى بهم أن يراجعوا ما صرح به مؤسس المسيحية حيث قال :ـ

« ما جئت لألقي سلاما على الارض بل سيفاً . » (عاشر متي ٣٤)

« وهل توقف موسى من وضع السلاح بايدي قومه ؟. فقد صادق المشرع الاسرائيلي الكبير على اراقة دم النساء والاطفال من اليسرى هدرا ، وحتى الملوك بترت رؤوسهم جهارا . ان هذه الفظائع كلها حرمها محمد بكل صرامة ولم يكتف بذلك بل حرم حتى استعمال الارغام والشدة في سبيل الهداية الى الدين الاسلامي وقد كان الدين تحت سطوته وحمايته لغير المسلمين

يدفعون جزية صغيرة فيسمح لهم بحرية العبادة كما تنص عليه شريعتهم . فضلا عن ذلك فلو كان النبي قد أمكن هذا النظام الجديد لنشر دعايته بحد السيف لما ترك وراءه تلك الاسفار الخالدة التي كان من السهل أن تصبح طعاما للنار بعد موته . كلا ! لقد كان ابن الحل كموسى يعتقد بكل صدق وايمان بانه يطلع بوحي من الله . » (كتاب اليهود والاسلام لمؤلفه السير ريجارد برتون ص٣٣٢)

ولا بد أن نقول بهذا الصدد بانه لو كان الاسلام دين سيف وقوة لأباح مؤسسه ذبح اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون في دائرة نفوذه . بيد ان التاريخ يثبت انه في الوقت الذي كان المسيحيون آخذين بخناق بعضهم البعض مضطرين الى اضطهاد اخوانهم المسيحيين وبينما كان اليهود مضطهدين في المجتمع النصراني كان محمد نبي الاسلام يبيح لغير المسلمين حرية العبادة في وقت كانت له فيه من القوة والسلطان ما يمكنه من ارغامهم على التنصل من عقيدتهم واعتناق دينه . فهل يمكن ان يعد مثل هذا التسامح جورا ؟ الم يكن في وسع محمد ان يعمل السيف في رقاب اليهود الذين قاوموه ماديا ومعنويا ؟ الم يكن قادرا على اضطهاد اليهود والنصارى وتحريض أتباعه ضدهم ؟ نرانا في غنى عن ان نجيب على هذا السؤال اذ مما لا ريب فيه على الاطلاق انه كان في وسع محمد ان يضع مثل هذا العمل موضع التنفيذ بكل سهولة بيد أن شهامته وكرم اخلاقه وعلو نفسه وتسامحه ـ كل هذه العوامل كانت من القوة بحيث تكفي للتحكم من تصرفاته .

ويعود المستر كوبر فيحاول في مقاله « حياة محمد » المنوه عنه آنفا اقناع قرائه في كون الاسلام دين سيف بقوله :ـ

« ان الوعاظ المسلمين ما زالوا معتادين على القاء مواعظهم على الناس وعلى يمينهم سيف لا لكي يكون رمزا للكيفية التي نشر فيها ذلك الدين فحسب بل لكي يكون نذيرا بما سيتوقعه كل من تحدثه نفسه في الارتداد عن دين محمد او النكول عن الدفاع دونه وان لمثل هذا التهديد يعود الفضل في انتشار الدين الاسلامي المترامي الاطراف وبقائه الطويل الأمد اذ لا يجرأ احد على التبرأ منه دون أن يضع نصب عينيه الموت في افظع صوره . »

والظاهر ان المستر كوبر يجهل كون الاسلام كالعقيدة البروتستانية ليس له وعاظ بالمعنى الذي يعرفه المسيحيون ، وان المسلمين في علاقاتهم مع بعضهم البعض ليسوا متساوين دون ان يمتاز احدهم عن الآخر بشيء فحسب بل انهم يعيشون كاخوان في شكل خاص من الحياة الديمقراطية بحيث ليس لهذه الحياة مثيل في اي نظام ديني آخر ، ومن الأمور الطبيعية ان يذهب المسلم او المسيحي الى الحرب حاملا سيفه الى جنبه ولا سيما في ذلك العهد العصيب

الذي كانت الحياة فيه مهدده من كل النواحي فقد كان على المسلم ان يحمل سيفه دوما ، وعلى قدر ما نستطيع ان نراه نقول ان زعم المستر كوبر لا تثبت الا كون المسلمين لم ينسوا إلههم حتى في حروبهم مما يدل على تعلقهم في دينهم وايمانهم به ايمانا لا يزعزعه غير الموت ، وعليه فقد اثبت المستر كوبر في زعمه هذا فضيلة للاسلام الا وهي اداء العباده الى الله حتى في وقت القتال ، ومن الواضح ان المستر كوبر هذا يجهل انه لم يسبق ان اقبل قوم على عقيده ما بشغف شديد كما اقبل المسلمون على الدين الاسلامي اذ لا شيء سوى الموت في وسعه حمل المسلم على هجر عقيدته ، ولو كان المسلمون قد اسلموا بحكم السيف فلم لم ينقلبوا نصارى حيث غزا هؤلاء بلادهم ولم لم ينفضوا أيديهم عن الاسلامية ولم آثروا الموت على الارتداد عنها حينما اتيحت لهم فرص كثيره هذا فيما اذا صدق قول المستر كوبر بانهم اعتنقوا الدين الاسلامي على حد السيف ؟. كلا ! ان اتباع محمد قد اعتنقوا الدين الاسلامي عن طيبة خاطر وهم أشد اخلاصا وتفانيا وخضوعا لعقيدة نبيهم العربي من اتباع اي دين آخر ، وهذا امر يمكن تحقيقه بسهوله من قبل من احتكوا بالحياة الاسلامية . ان في الاسلام قوة وهذه القوة ليست السيف بل انها صدق العقيدة وشدة الايمان بها واخال انه ليس ثمه من ثم جوابا عن هذه النقطة اقرب الى الحقيقة من توماس كارلايل حيث قال :ـ

« ما اكثر ما قيل في شأن نشر محمد دينه بالسيف غير ان اذا جعل الناس ذلك دليلا على صدق دين ما او بطلانه فقد ما اخطأوا وجاروا فهم يقولون ما كان الدين الاسلامي لينتشر لولا السيف ولكن ما هو الذي اوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق ، والراي الجديد اول ما ينشأ يكون في راس رجل واحد فالذي يعتقده هو فرد ـ فرد ضد العالم اجمع فاذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فلا يجديه فتيلا ، واري على العموم ان الحق ينشر نفسه باية طريقة حسبما تقتضيه الحال ، او لم تروا ان النصرانية كانت لا تأنف ان تستخدم السيف احياناً وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون واني لا احفل أكان انتشار الحق بالسيف او باللسان أم باية آلة اخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة او بالصحافة او بالنار لندعها تكافح وتجاهد بايديها وارجلها واظافرها فانها لن تظفر بشيء لا يستحق الظفر به وليس في طاقتها قط ان تفني ما هو خير منها بل ما هو احط وادنى فقط والطبيعة في هذا الكفاح الأعظم تكون الحكم والقول الفصل دون ان تخطىء او تنحرف الى المحاباة ولعمرك ان المذهب الذي تتاصل جذوره وتورق فروعه في الطبيعة ذلك الذي نسميه الحقيقة انما هو وهو وحده الذي يبقى نامياً زاكياً . »

وختاما نورد بهذا الصدد حادثة تاريخية تعود بنا الى تاريخ عهد

النهضة الاسلاميه فتوضح لنا شهامة المسلمين وما اتصف به الاســـــلام من الفضائل وحسن النية في فتوحاته وذلك انه حينما فتح الخليفة عمر القدس عام ٦٣٧ بعد الميلاد لم يحدث ان دمرت أيه املاك او اموال ولا اريقت دمـاء خارج ساحة المعركة والحركات العسكرية خلال الحصار في اثناء الفتح وبعده كان السلم ناشرا رواقه على المدينة المقدســـه ولقد شوهدت مظاهر اواصـر الصداقة والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين خلال المحادثات الودية بين الخليفة الظافر والبطريرق حول تاريخ المدينة حينما كان الاثنان يتجولان نحوها ، ويقول ان البطريرق دعى عمرا الى الصلاة في كنيسة القيامة بيد ان هذا رفض هذه الدعوة خشية ان يتخذ احلافه هذا الامر حقا مكتسبا وبذلك يكونون قــد هدروا حرية العبادة التي كان يحرص على ضمانها للســـكان . هكذا كانت العلاقات بين المسيحيين والاسلام حينما سقطت الارض المقدسة لاول مـرة بيد المسلمين الفاتحين . ومن المهم ان يلاحظ المرء بهذه المناسبة ان التقاليـد التي تقضي بأن يكون حارس باب كنيسة القيامة محمديا يعود الى ايـام فتح المدينه المقدسة على يد عمر وذلك تذكارا لشهامته ونبل غايته حينما ابقى على حياة السكان وصان كنيسة القيامه من العطب والدمار ، ولما ان استســلمت القدس عام ١٩١٧ الى الجنرال اللنبي بعد مضي ١٢ قرنا اضاف الجـنرال الظافر الى منشوره فقرة تتضمن تخويل المســـلمين الذين توارثوا حراسـة الكنيسة ابا عن جد حق الاستمرار على مزاولة هذه الحراسه وذلك اعترافا منه بشهامة عمر .

ومما يبرهن على كون المسيحيين أقل مراعاة للواجب الانساني هو ارتكابهم كل منكر في المدينة المقدسة حينما انتصروا على المسلمين وانتزعوا ســـلطتهم منها وذلك انه عندما هجم الصليبيون تلك المدينة عام (١٠٩٩) واحتلوهــــا اباحوا السلب والنهب والقتل بما في ذلك قتل النساء والاطفال لمدة ثلاثة ايام بلياليها وذبح ٧٠٠٠٠ من المسلمين استشهد عشرة آلاف منهم في جامع عمر نفسه ، وما هو الا زمن قصير حتى دار الفلك دورته وقلب للصليبيين ظهر المجن فغادروا القدس واصبحت تحت رحمة صلاح الدين عام (١١٨٧) . فهل عمد الظافر الى الانتقام ؟ كلا ! لقد كانت شهامة عمر نبراسا لاعمالـــه فقد اباح الحرية للاسرى بعد ان استوفى منهم الجزية وسمح للنصارى الافرنـــج بمغادرة المدينه دون ان يلحق بهم ضررا كما سمح للنصارى الشرقيين بالبقـاء والسكنى فيها بسلام وطمأنينة فساد في المدينة جو السلام والصفاء(٥) هذه هي

(٥) ومما يجدر بالذكر بهذا الصدد انه بعد غزوة خيبر طلب اليهود من النبي محمـد (ص) ارجاع صحائفهم المقدسة فامر بتسليمها لهم وذلك لما لهذه الصحف من المكانة العالية في نفس الرسول بخلاف ما حدث في عهد الرومان حين فتحوا بيت المقدس سنة ٧٠م فقد

حقيقة لا يمكن نكرانها ولكن العربي المتعصب يتجاهل شهامة الاسلام وسموه وفضائله . ان الاسلام ارفع من ان يمس من قبل المتعصبين المرضيين بالقسوة والعنف فانه بالعكس نصير الضعيف والبري، وقد اوصى القرآن بوجوب الرفق بغير المحاربين اذ قال :

« لا ينهاكم الله من الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . » (سورة الممتحنة) .

تلك هي روح هذا الدين الذي كثيرا ما روج عنه البعض انه دين السيف . فالى ضميرك ووجدانك ايها القارئ، نرجع الحكم فاحكم بنفسك وانصف وان الله يحب المنصفين ..

الاســــــلام والتقدم

ما اكثر ما قيل وكتب حول تعاليم الاسلام وكونها تعارض اي تطـــور او تقـــدم وكون الاسلام دين ركود وجمود . هكذا كان راي معظم خصوم الاسلام وما زال كذلك ، ولو كانت الفكرة صادقة لما شاهد العالم تقسيم مفكـــري الاســـلام الى شيع عديدة كل لها رايها الخاص كما لا شك ان العالم لم يكن ليشاهد الاصلاحات الجارفة التي ادخلت في العالم الاسلامي خلال العشرين سنة الماضية ولما لنجد تعابير شائعة « كالعالم الاسلامي الحديث » « والعالم الاسلامي اليوم » والى ما هنالك من العناوين المشابهة كلها تؤيد وجود التقدم والتطور في دائرة الادب الاسلامي ، فاذا كانت الحال كذلك فهل يمكـــن ان نكون الاسلام منافيا او معاكسا لمجرى التقدم ؟!

ومن الكتاب من يذهب الى ابعد من هذا فيدعون ان الاسلام والجهـــل على صعيد واحد وللاثنين صلة وثيقة ويقول الدكتور بارتون تعليقا على هذا الزعم: « لو كان هذا حقا اذن لوجب علينا ان لا نتوقع غير تاثير تافــه على العـــالم الاسلامي من جراء حدوث الاحتكاك مع المدنية الغربية وان الحقيقة الواقعـــة هي ان ثمة اصلاح وتطور بارزين قد طرآ في العالم الاسلامي لا يمكن نكرانهما سيما في هذا العصر . »

ان ما الصق بنبي الاسلام بانه بشر بركود الفكر ولم يقبل التطور والرقي حجة مردودة تنقصها احاديثه الماثورة عنه واليك بعضها ادناه :—

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً الى الجنة »

« اطلبوا العلم من المهد الى اللحد . »

احرقوا الكتب المقدسة وداسوها بارجلهم وقد هذا حـــذوهم النصارى في الاندلس حيث اتلفوا صحف التوراة ايضا ولا ريب في ان القارىء ليقدر البون بين مسلك المتعصبين من النصارى وسيرة رسول الاســـلام .

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . »
« اطلبوا العلم ولو بالصين . »
« الحكمة ضالة المؤمن يطلبها اينما وجدها . »
هذا وان القرآن الكريم قد ايد ذلك اذ جاء بقوله تعالى : « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدني علما » . وادل على ذلك قول الامام علي بن ابي طالب « علموا اولادكم علوما غير علومكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » .

فهل يمكن ان يكون دين ينادي قرآنه ورسوله بمثل هذا البلاغ دين جهل وجمود ؟ وان ثمة احاديث اخرى كثيرة تعزى الى محمد وكلها توفر حجة وسندا للمسلم النازع الى التقدم . ان اللهفة التي يبديها المسلم العصري نحو العلوم والثورة الهائجة ضد الجمود والجهل والخرافات واظمأ الى العلوم العصرية ان هذه الظواهر التي تبدو للعيان اليوم في طول العالم الاسلامي وعرضه ليست سوى دليل واضح على ان الاسلام يقبل الاصلاح والتقدم بل انه يميل الى الانحراط والسير في مجال النهوض والتنوير .

لقد جاء الاسلام بتربة خصبة للاصلاح والتسامح وكما قال جودا بوجش « ان المسلمين غير معيدين في اتحاد كلما هو مستحسن من اية مدنية وان كافة الاديان متماثلة في مبادئها الاساسية وليس في تعاليم محمد ما يتنافى مع التجدد والتمدن الحديث . » وختاما يحسن في هذا المقام ان نورد ملاحظات الدكتور بارتون الذي يقول :ـ

« ان الاسلام الجيل الأخير يدخل حياة جديدة وثمة ثورات اجتماعية ودينية وثقافية قائمة على قدم وساق في العالم الاسلامي وهذه الحركة اوسع مدى وارسخ اساسا من اي حركة دينية مماثلة منذ حركة الاصلاح الديني في اوروبا . »

ملاحظات وخلاصة

وقصارى الكلام لنا ان نقول انه لا يوجد دليل على ان العالم الاسلامي يكافح المبادىء المسيحية الجوهرية او انه يمقت العقيدة المسيحية بل انه بالعكس يحترمها احتراما وقيرا ، وقد برهن الاسلام على تسامح وتساهل ديني تجاه المسيحية واليهودية لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الديانات البشرية وذلك بالرغم من الموقف العدائي الذي اتخذته الديانتان المذكورتان تجاه الاسلام .
ان ما يستنكره الاسلام هو غير المسيحية وفي الحقيقة انه يناوىء الشكل الجديد للمسيحية ـ تلك المسيحية التي تطورت لملائمة رغبة الغربي في ممارسة مختلف شرور المجتمع الحديث ، لقد خابت اوروبا المسيحية في اظهار دليل يبرهن على كونها راعت جوهر المبادىء المسيحية في معاملتها للعالم

الاسلامي وتراها في غنى عن ان نستعرض ذكريات الحـوادث التاريخية بين المسلم والمسيحي وانا لنشير الى الادوار التي لعبتها الـدول الغربية على مسرح السياسة اذ ليس قليلا هو عدد المرات التي صارت فيها قوات المسلمين والمسيحيين جنبا الى جنب كحلفاء امناء ضد جيوش مسيحية معادية ، ولقد استعمل الدين آلة للدعاية واثارة الرأي العام ضد المسلمين حينما كانت الضرورة تتطلب تغيير سياسة التفاهم أو التحالف مع الدول المسلمة .

وفي الواقع ان المسألة ليست مسألة دين .. ان ما يحاربه الاسـلام هو الروح الاستعمارية الفاشمة وليست المسيحية . ان المسيحية دين شرقي وان الاسلام ليعترف بهذه المسيحية الأصلية كما ورد وصفها في القرآن الكريم واما المسيحية التي حورت وادخل عليها كثير من التحريف والتعاليم لكي تلائم الاوضاع السياسية والنفسية الغربية فهي هذه التي لا يقر بها الاسلام .

ويجدر بنا ان نشير بهذا الصدد الى ما ذكره (المغفور له) جلالة الملك فيصـل حينما سئل عن رأيه في رجال السياسة المصريين فقال :ـ

« انهم كالصور الزيتية المصرية يجب ان يعلقوا في القاعات وينظر اليهم من بعيد . »(٦) ذلك هو رأي مسلم عربي قح ـ مسلم مؤمن لقن لكي يكون مخلصا للعهود وصادقا للمواثيق ـ في المخاتلة المسيحية العصرية .

وعلى كل فان المسيحية قد حرّفت لملائمة الاطماع الاستعمارية وتبـرير الادعاءات كادعاء (الحق للقوة) و (اخضاع الضعيف من عمل الطبيعـة) و (الابيض النورديك هو السيد السـامي) الخ.. ان الألوان كالأبيض والأسود والأصفر والأسمر لم تكن معروفة لاتباع المسيح الاولين ومع ذلـك فانك تراها في انجيل المسيحية الحالية . ولنا ان نقول بهذا الصـدد بان مبادىء الحب والأخوة التي تنادي بها المسيحية في بعض تعاليمها والتي لم تتعد حدود النظريات ينفـذها الاسلام بالفعل وبكل دقة . ان الاسـلام لا يعرف جنسا او لونا وكل المسلمين سواء غنيهم وفقيرهم ابيضهم واسودهم كلهم متسـاوون نظريا وعمليا . ان الروح الديمقراطية الحقة التي حـاول العالم المتمدين تقريرها فحسـاب داخلة في صلب الاسلام ومرعية من قبـل المسلمين . ونورد فيما يلي انتقادا لقاضي مسلم في بنغال بشأن المسيحية العصرية اذ قال :ـ

« نحن لا نعترف بان المسيحية العصرية المطلاة بفلسفة اليونان تمثل الدين الذي بشر به المسيح ونرى ان الاسلام يمثل المسيحية الحقة ، انا لا نعتقد

(٦) انظر مجلة آسيا لشهر آب ١٩٢٠.

ان المسيح الذي عاش مع الفلاحين وصيادي الاسماك ماء ماي بلميح يبرر اتباع التحريف والزينة المحمة في العبادة المسيحية العصرية بما يتبعهما من ذيول خداعة تحير العقول وتحول القلب عن عبادة الله الاكبر . (٧)»

لقد أساء معظم علماء اللاهوت الغربيين تعريف الاسلام وهذا ما يؤسف له لأن ذات الرجال الذين تقع على عاتقهم مسؤولية نقل الصدق قد افلحوا في توجيه الراي العام شطر وجهة نظر خيالية خداعة غير حقيقية عن الاسلام .

ولقد نسبت الى بعثات التبشير اقتراف اخطاء عديدة أهمها جهلها الأديان الشرقية والظهور بمظهر التفوق والكبرياء وفي الواقع قليلون هم الغربيون الذين عاشوا عيشة شرقية ودرسوا الحياة الاسلامية درسا وافيا ولم يعرسوا عن تقديرهم وتعظيمهم للمبادىء الاسلامية .

أن ما يحتاجه العالم هو ذلك الصنف من الرجال ذوو الفكر الواسع وبعد النظر الذين يحملون أستعدادا لمعالجة الموضوع بروح غير متحيزة او مغرضة وتكريس حياتهم من أجل خدمة الانسانية ـ تلكم الخدمة الصادقة التي تنطوي على التفاهم المتبادل والتعاون الاخوي في سبيل اظهار الحق والحقيقة . فلكي يسود السلام والتفاهم بين الناس يجب أن يفهموا بعضهم بعضا . ان العالم لينادي رافعا صوته من أجل السلام ولكننا نغض النظر مهملين افضل طريقة للتقارب ان لم تكن الطريقة المرضية الوحيدة ، فما اكبر الخدمة التي في وسع كبار الوعاظ اسداؤها الى البشرية لو انهم استغلوا نشاطهم وفصاحتهم في بث انجيل التفاهم والاخوة واظهار فضائل الديانات الأخرى بدلا من أن يوجهوا عنايتهم ويبذلوا كل ما في استطاعتهم من الجهود في محاولة التاثير على عقول السذج وتهويل اخطاء المذاهب غير المسيحية امامهم !

لا يمكن اخضاع الاسلام بالقوة لان للمسلم حياة مفعمة بالاباء والشمم وله ماض مجيد يجعله يفضل الموت على حياة الذل والهوان . وفي الوسع اخضاع المسلم وقهر قوته اما روحه الصميمية وايمانه الثابت ويقينه الصادق فلا تخضع ولا تقهر ، وان الطريقة الوحيدة للنفاذ الى روحه واكتساب قلبه هي الثقة والصدق والصراحة . لقد ارتضى المسلم بالاسلام به دينا وتقبل عقيدته الروحية ، فاقبل عليه بصميمية نادرة وشغف نفسي بلغ درجة جعلته يصبح مثالا باهرا للصدق والصميمية والاخلاص . والقليل من الدول من

(٧) ومن الغريب ان بعض الكتاب الغربيين لا ينكرون بان المسيحية الغربية التي يدين بها الغرب هي غير المسيحية السامية التي يعرفها الشرق وان كانت مشتقة منها ويؤيدون هذه الفكرة لتبرير مزاعمهم وغلوهم في تفوق العنصر الاري وانقطاع صلاته بالمرة مع مذهب السامية .

حاول التقرب من المسلمين من هذه الناحية ، فقد فرض الغرب على العربي الأبي وضعا مزريا ، فضربوا عاصمة الأمويين التاريخية بالقنابل ودمروا غوطتها وحدائقها الذائعة الصيت وقتلوا الأبرياء واعملوا السلب والنهب في دورها غير المحصنة كما انهم ادخلوا شراذم اليهود من الصهاينة الى البلاد العربية تحت تهديد الحراب ، وقد استعملوا القوة ضد الفلاح الاناضولي في محاولتهم تجريده من أرض آبائه واغتصابها منه وحرضوا جيرانه المسيحيين ضده لكي يضمنوا مصالحهم ويشبعوا شهواتهم ومطامعهم ، وعلى ذلك فلا مجال للاستغراب اذا راينا الشعوب المسلمة تنضم الى الصفوف المعادية والقائمة بوجه أساليب الدول المسيحية .

واود ان اعيد ما صرح به المستر آ.و.بي. سميث الذي يقول : « في الحق انه اذا كان للمبشرين المسيحيين أن يفلحوا في كسب المسلمين الى صفوف المسيحية فان عليهم أن يغيروا أساليبهم وذلك لا يكون عن طريق الحط من شأن النبي العربي العظيم ولا بالقاء بذور الشكوك والريبة في رسالته بل عن طريق اداء الاكرام الذي هو به جدير وبيان كيفية تماثل المسيحية والاسلامية لا اختلافهما ... بهذه الطريقة وبها دون سواها تستطيع المسيحية أن تكسب ود الاسلام وليس بمحاولة اكتساحه لان لصدق الذي يحمله في رسالته ـ وهو كثير ـ لا يمكن أن يمحى أو يندثر . »

علينا ان نلاحظ في هذه المناسبة ان العالم المسيحي اخذ يدرك اهمية روح التسامح المثمرة بالتآزر ويسير البعض من مبشري الاميركان في طليعة هؤلاء الغربيين لأنهم باتخاذهم سياسة التفاهم والاحترام ازاء الدين الاسلامي قد افلحوا في كسب ثقة العالم الاسلامي ووده . وقد لا يكون ثمة دليل او مثال انصع بيانا لخطة مثل هذه الارساليات الاميركية من الجامعة الاميركية في بيروت . وللمرء أن يقول دون ما تردد انه لم يسبق لأية مؤسسة مسيحية ان اكتسبت المودّة وحسن الثقة التي تتمتع بهما هذه الجامعة في العالم الاسلامي ، فلقد كانت منذ نصف قرن مضى منارا لمسلمي آسية الغربية ، سورية والعراق ومصر وفلسطين وايران كانت وما تزال تبعث طلابها الى هذا المعهد وقد تخرج منه معظم الزعماء المتنورين الوطنيين . فاية خدمة في وسع العالم المسيحي اسداؤها الى المسلم يمكن أن تكون اشد فائدة واقرب الى الانسانية من المهمة التي اخذتها هذه المؤسسة على عاتقها ؟! ـ المدنى ؟!

أجل . ولكن ماذا عسى ان يفعله التبشير بالمسيحية لشعوب تحاول خلع نير العبودية المسيحيه عن كاهلها ؟ وماذا عسى ان تكون نتائج الجهود لتنصير شعوب قد لاقت الويلات من هؤلاء الغربيين الذين يسمون انفسهم مسيحيين؟! في الحقيقة ان المسلم لا يرى في هذه المحاولة ـ محاولة التبشير بالدين

المسيحي ـ الا وسيلة لتعليم الحر كيفية الخضوع والاستسلام ، ومن المؤكد انه لا يفهم منها سوى أن المبشرين يحاولون اقناع من يطمح بارجاع مجده الغابر بقبول الذل والوضاعة . هذه امور ادركها الاميركي الثاقب الفكر .
لذلك فلا غرابة اذا كانت رغبته في خدمة البشرية قد دفعته الى اتخاذ سياسة العطف والتفاهم . وارى ان الرجـال الذين كرسوا حياتهم في تنفيـذ هذه السياسة منتظرين ما تأتي به الأيام من مصير جديرون بشكر عميم من البشرية اذ لا جرم ان ما ادوه من خدمات للبشرية اثمن من ان يقارن باعمـال معظم الواعظين الذين يحرقون الأزم والأرم سعيا منهم وراء المناداة بنقائص الأديـان غير المسيحية ناشرين جراثيم التحامل والتعصب والمغالطة .

ان جامعة بيروت الاميركية تحاول ـ على عكس المؤسسات الاخرى ـ ان تجعل من الحدث المسلم مسلما صالحا ومن الشاب المحمدي رجلا مخلصـا لوطنه بصورة خاصة وللانسانية بصورة عامة ، وهي مع بعدها عن اي غرض او نية تنطوي على فرض التقاليد او اللغة الاميركيه على تلامذتها ومع بعـدها عن التحمس باي تعصب او تحامل ديني لقد استطاعت ان تنجز في نصف القرن المنصرم المقاصد والغايات الكبرى التي كان في عزم المستر اندرو كارنيجي واضرابه من محبي الخير للبشرية تحقيقها بواسطة الملايين من الدراهـم التي اراقوها في مجرى الانسانية .

ومما يبشر بالتفاؤل ان عدة مؤسسات اميركية في العالم الاسلامي قد احتذت بخطة الجامعة البيروتية واما لنامـل من اعماق القلب ان تنحو الإرسـاليات الغربية الأخرى هذه السياسة في البلاد الاسلامية الشرقية .

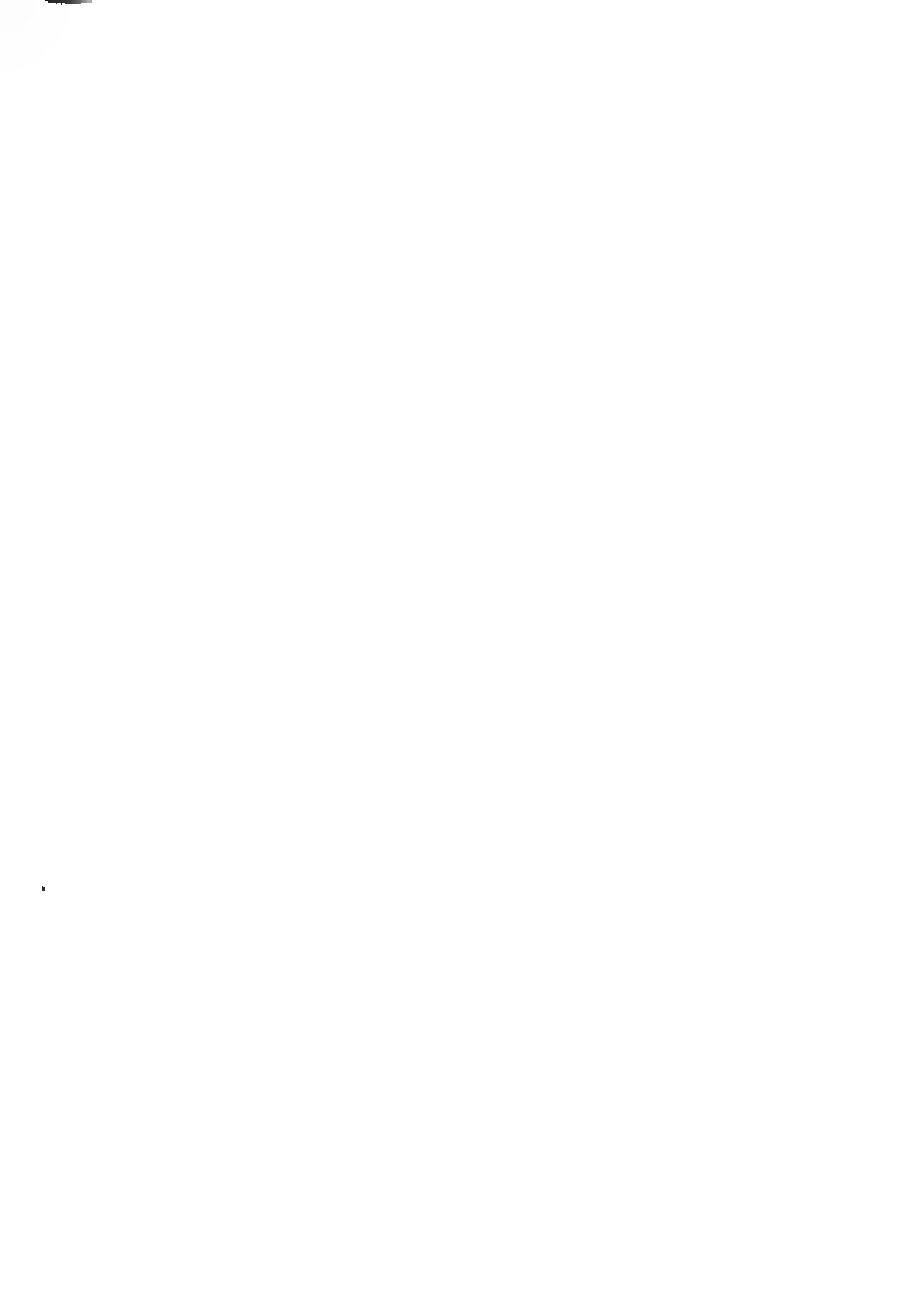
وختاما اقول انني اود أن لا يبرح عن ذهن القارىء ان الاسلام هو آخر دين عالمي عظيم وانه يكوّن جسـر المثل الاعلى للنهضة الروحية يوصـل بين العقيدتين الأساسيتين ، اي اليهودية والمسيحية ، فلما كان كذلك فانه يجب ان يعطى المركز الذي هو به جدير في تاريخ الجنس البشري . ان الاسلام ليدعو الى التسامح والتفاهم ولقد حـان الوقـت الذي يجب على العـالم المسيحي ان يجيب على هذه الدعوة بروح التعاون وحسن النية . وليس الا بعد ان يتفق الفريقان ويلقن المسيحيون المسلمين ان يحيوا كمسلمين صادقين مقدرين للدين الاسلامي حق قدره ويلهم المسلمين المسيحيين لكي يعيشوا كمسيحيين حقيقيين حتى يمكن ان يسود التفاهم والتضافر بين هذين الدينين الرئيسيين .

ان الاسلام بالرغم من اهتمامه القليل باعمال التبشير فانه مع ذلك قد عاش وظل حيا ولن يموت . اما محاولات بعض المسيحيين الرامية الى استئصاله والقضاء عليه فقد باءت بالفشل والخذلان وان مجرى الحوادث يدل بكل جلاء ان العالم المسيحي يجب ان يقلع عن خصومة الاسلام وان يستبدلها بالصداقة

والتفاهم لكي يتسنى وضع الحجر الاساسي للعلاقات الودية والتوثيق بين الشرق والغرب . يحمل الاسلام بلاغاً سامياً ورسالة مقدسة الى النصرانية كما ان هذه تحمل رسالة معترف بها ، في طريق التسامح والتفاهم المتبادل وبهذه الطريقة فقط يمكن ان تحل روح الاخوة محل خصومة العقيدة والمذهب .

الملحق الثاني

فلسطين بين العرب والصهاينة



فلسطين بين العرب والصهيونيين
مقال للمؤلف نشر في جريدة الاحرار البيروتية
بتاريخ ٢٨ آب ١٩٣٠

ما عرف التاريخ في جزيرة العرب منذ ظهور نبي الاسلام (ص) منشوراً شديد الأثر كالمنشور الوجيز (منشور بلفور) وهل عممته حكومة انكلترا حباً باليهود او مقتاً للعرب ، او دفعاً عما للامبراطورية البريطانية من المآرب والأغراض في شرقنا العربي ؟!

لا وربي . فما الشغف باليهود ولا المقت للعرب ما دفع انكلترا لاعلان عهد بلفور !!

قبل أن اقلب صفحات التاريخ اقول . ان غرض انكلترا الاول هو القبض على أبواب البحور ولا غرو فحياة انكلترا قائمة في سلطتها على ممر المياه . إذاً فمن واجب كل انكليزي وطني ان يضحي بنفسه في سبيل حفظ سلطانها هذا . واهم ميدانه في البحر المتوسط . فهو الحلقة الغربية التي تجمع انكلترا بالهند .

وهذا جبل طارق يخضع لارادة انكلترا ، وهكذا قناة السويس .. وبعد التفكير نجد ان حفظ قناة السويس يستوجب القبض على ضفتيها من جهة مصر ومن جهة فلسطين وهذا يفسر لنا سبب اندفاع حكومة انكلترا في ارسال القوات وانفاق الاموال لانشاء القطار بين مصر وفلسطين والقبض على الاخيرة . فضلاً عن ان ميناء حيفا مركز حيوي من اهم القلاع على ساحل البحر المتوسط . فالقبض عليه لا يستهان به سيما وقد كان في بال الانكليز ان مصر ماشية بسرعة نحو استقلالها .

نأتي الآن للجواب عما يتساءل القارئ ازاء غرض انكلترا من اعلان منشور بلفور ، وما ابسط جوابه ! ان انكلترا تحكم الهند الواسعة دون قوات جسيمة ، تحكمها بجراثيم المشاحنات الطائفية التي تستقي غذاءها المستمر من ذهب انكلترا ، وهكذا اراد دهاة بريطانيا العظمى ان يقضوا على فلسطين بجراثيم المشاحنة والقتال بين ابناء العرب والصهيونيين وما احسنها من فكرة ؟ فان كانت جراثيم المشاحنات الطائفية في الهند تستمد نموها من ذهب انكلترا فجراثيم القتال بين اليهود والعرب تستمد غذاءها من ذهب يهود العالم ، والنتيجة المطلوبة ان يبقى الانكليزي حاكماً ما دام هناك مشاحنة واضطراب .

إذاً فالحركة الصهيونية آلة ابتدعها الانكليز لانفاذ مشيئتهم ومآربهم في شرقنا العربي لا حباً باليهود ولا مقتاً للعرب . وكل صهيوني بعد اليوم جندياً بريطانياً ، وبه قد ضمنت انكلترا سلطانها في فلسطين بلا ذهب

ولا جمود ، وما اعلنه السير هاورد مبعوث بريطانيا في امريكا ايام الاضطرابات في فسطين السنة الفائتة يؤيد قولي ، فقد اعلن قبول حكومة انكلترا انضمام متطوعين اميركيين من الصهيونيين الى جيش انكلترا لاعادة السلم في فلسطين.

الاحتجاج العربي

يقول العربي « الحق يعلو ولا يعلى عليه » فهذا اس حضارة الأعراب ووحي شعرائهم ! اما مدنية الغرب ويا للاسف فاقول انها قائمة على مبدأ مادي ، مبدأ القوة والمدفع ، « القوي يعلو ولا يعلى عليه » هذا اس حضارة الغرب التي اضطرتنا الظروف أن نحني الرأس أمامها ، لما قدم الغربي على العالم الجديد اغتصب أرض الهندي الاميركي ، واستعبد سكان الارض ، ثم اخذ باستئصال نسلهم شيئا فشيئا ، وحجته بعمله هذا ان الهندي وحشي والحق للغربي « المتمدين ! » بأن يستثمر الارض ويستعبد الضعيف وهكذا جاء لانكليزي يريد ارض فلسطين بحجة ادخال مدنية الغرب على سكانها الذين يلقبون بالمتاخرين ، وبعد دخوله معروفا يجب ان يشكره عليه ابناء العرب قاطبة ، ويا له من معروف جميل !!

والاحتجاج العربي اليوم ، لا سيما أيام الاضطراب الفائت اثار الغضب في العرب على بني العرب عامة لما كان من الاذاعات الموجهة ضدهم ، فلا يسعني وانا اكتب هذه السطور الا أن انقل الى العربية ما نشرته أحدى صحف اميركا في هذا الباب ، قالت :ـ

« ان واجب الأمة الاميركية أن تعلم بأن القتال في جزيرة العرب لم يكن قتالا بين عربي وصهيوني فهو قتال بين همجية ومدنية ، هذا وقد مضى مئات السنين وفلسطين خاضعة الى العربي فلم يكن في خلالها تقدم او حضارة ، ولم تشاهد فلسطين طرائق المدنية الحديثة الا بعد ان دخلها الانكليز وبنو صهيون[1] من منا ابناء اميركا اليوم يؤيد القول بان الغربي استملك ارض الهندي الاميركي بلا حق ولا عدل ؟ »

وهكذا فقد اصبح العربي بين الغرب همجيا يشبه بالهندي الاميركي ، وباسم الخدمة والانسانية امست بلاده الحرة العريقة البيئة المنشأ قيد لرق والاستعباد . الا لقد دنا الأوان لأن ينهض بنو العرب عامة من سباتهم

---

(1) يظهر أن كاتب هذه السطور لم ينتبه الى الحقيقة التاريخية بأن جمود وتأخر فلسطين وجزيرة العرب كلها لم يكن خضوع هذه البلاد الى العربي ولكن من خضوعها الى الاجنبي فقد كانت خاضعة الى الاتراك الذين اخمدوا فيها روح المدنية العربية وقتلوا نفوس الاعراب العالية .

يبرهنون للملا ان اكثر ما للغرب من مدنية وعلوم مستمد من مشعل الحضارة العربية الذي اثار الغرب باضوائه يوم كان الغربي يتمرغ في جهله المطبق . ولكن كيف نبرهن على ذلك ؟ نبرهن عليه بتوطيد عرى الاتحاد بين الاعراب من مختلف مذاهبهم باحكام التفاهم بينهم !!.

حقوق فلسطين ركن من اركان النهضة العربية تهم كل عربي حر . بقطع النظر عن الدين ، قاتل بنو العرب في سبيل تحرير الامة العربية عامة . ولم يقاتلوا مقتاً بالاتراك بل قاتلوا حباً بالاستقلال العربي وارجاع مجد غابر كان له اثره المجيد ورنة مردد صداها في العالم باسره ، قاتل الاعراب في سبيل مبدأ شريف كنهه روح عربية حقة واساسه استقلال عربي تام ، موعد سور اعتداء على مبدأ الحق والعدل ، اعتداء على الانسانية ، مقابل اسل المطالب ، هذه اميركا المتمدنة تقاوم دخول الاجنبي داخل حدودها ، وتطرد الياباني والصيني ، وتحصر الشرقي والهندي ، وحجتها انها امة مستقلة تعمل ضمن حقوقها فباي حق يريد الغرب اغتصاب ارض فلسطين وادخال الغريب اليها ؟ يقولون ان لهم مدنية عظمى وهم يقبلون مبدأ الهمجي القائم على قدرة القوي . لا وربي فلا يحق لهم ان يرفعو رؤوسهم فخراً بمدنيتهم الا بعد ان يحترموا حق الضعيف ويكفوا عن اعمال تهمل مبدأ الانسانية والعدل . « الحق يعلو ولا يعلى عليه !! » هذا مبدأ المدنية الحقة . وما لنا بني العرب عامة الا ان نرفع رؤوسنا فخراً بأسّ حضارتنا !!.

بنو اسرائيل

لنعد الآن الى بني اسرائيل وما ادل من التاريخ ، فلم يقم فيه دليل واضح على ان الاسرائيلي يقبل المعيشة في وطن واحد بين بني جنسه ليؤلف منهم امة قوية متحدة . فهو يشترك بالعواطف والشعور مع بني جنسه ما دام بعيداً عنهم ولكنه لا يكاد يقترب منهم ليعيش واياهم في موطن واحد حتى يفتح الاحتكاك باب مشاحنة موضوعها ملك وثراء تؤدي الى عدم الوحدة اذا كان هناك وحدة !

اجتمع بنو اسرائيل في الازمنة الغابرة فما مضى الا القليل بعد انشاء مملكتهم حتى هدمتها الضغينة والشقاق بينهم !

ان الاشتراك في العواطف مبني على الحنو على بني جنسهم وهم محرومو الحرية لا على روح قومية مرامها انشاء مملكة اسرائيلية متحدة . لم توجد ولن توجد قومية اسرائيلية ليتسنى للصهيونيين احياءها . يوحد الدين الاسرائيلي ، والفرق ولا ريب مبين بين القومية والدين . واذا بحثنا في امر الاسرائيلي العربي مثلا فانما نجد انه ولا شك بعيد بعد الثريا عن الثرى من اسرائيلي الغرب كما انه قريب من الاعراب بقدر قرب الدار .

اليكم ايها الناطقون بالضاد من اسرائيلي الشرق العربي اوجه الآن كلامي ولست بحاجة الى القول بان الفكرة الصهيونية المشؤومة عدوة لدودة للنهضة العربية ولأماني الدول العربية .

وما كان وربي لأي شخص ولد وترعرع ، عاش وسعد ، تحت سماء العالم العربي الصافي الجميل مهما كان قد ورثه عن دين آبائه ، ان يجاري النعمة التي تصم رغبات أبنائه واحفاده سطوعه الى حسب اعدائها ! وانما سنظر بعين الأمل الى ذلك النهار الذي يقوم فيه اسرائيليو الشرق العربي محتجين امام سطوة انكلترا طالبين تمزيق منشور بلفور والرجوع الى صراط العدل والحق فيرجع السلم والهدوء الى جزيرة العرب .

فلسطين لأهلها تعود ولهم تكون !! قد حول الغريب اليها سجنها تحت تهديد الحراب وطنا قوميا له يكون كمن يحل على رب الدار يريد اغتصاب بيته او مشاركته في سكنه ، وليت شعري هل من يسمم داره دون الـذود والدفاع عنها ؟ هذه حقيقة راهنة يجب أن يصادق عليها ذوو العقول مهما كانت رغائبهم !..

اذا حق للصهيونيين ان يطالبوا في فلسطين كوطن قومي ليهود العالم فالعرب احق بالأندلس وما يتبعها من البلدان التي كانت تحت سلطان العرب قبل أمد طويل !.

كل صهيوني يرى موطنه الجديد في فلسطين لا يكون به الا مسكنا موقتا لا وطناً دائما ، وما بنو صهيون سوى مرقاة بريطانيا يصعدها الانكليز لنيل مآربهم في الشرق العربي !

وكلمتي الأخيرة : يا اسرائيليي الشرق العربي : لقد ولتكم بلاد عربية ثراءً طائلا وعيشاً هنيئاً فاهتفوا بصوت واحد :

« اننا اسرائيليو المولد ولكننا اعراب قبل كل شيء » . قوموا الصهيونية بكل ما وهبتم من نفوذ ، فهي عدوة لدودة لدين الحق والعدل ، واجب على كل شخص حر عادل ، موسويا كان او مسيحيا او مسلما ، ان يتطوع لمكافحتها ، وان الله نصير محبي الحق والعدل .

زحلة (لبنان) في ٢٠ آب سنة ١٩٣٠

ن . س

الملحق الثالث

القضية الصهيونية والروح العربية



القضية الصهيونية والروح العربية[1]

بحث طريف شيق بقلم الدكتور نسيم صوصه

كاتب هذا المقال شاب مثقف ولد من ابوين يهوديين في بغداد وبعد ما درس العلوم الثانوية فيها انتقل الى جامعة بيروت فحصل على البكالوريا ودرس الهندسة ثم سافر بعد ذلك الى الولايات المتحدة فدرس العلوم القانونية وتخرج في جامعة بلتمور برتبة « دكتور » في علم القانون .

وعاد الى وطنه بغداد بعد اتمام دراسته فعين مهندسا في ري الحلة فعكف على دراسة الشريعة الاسلامية فمال الى الاسلام وما لبث ان استقال وجاء الى القاهرة للدخول في الدين الاسلامي ودراسة الشريعة الاسلامية واللغة العربية وربما اعلن اسلامه قريبا بعد استيفاء الاجراءات القانونية ، وهذه اولى مقالاته للرابطة العربية في القضية الصهيونية وقد درسها دراسة وافية قال :

لولا قضية فلسطين وسياسة بريطانيا العوجاء الخرقاء فيها لصح القول بان صلة العرب ببريطانيا على ما يرام وان البلاد العربية جمعاء تسير في الميدان بخطوات واسعة في سبيل تحقيق رغباتها ووضع الاساس لوحدتها المنشودة .. ولكن قضية فلسطين شوكة في سبيل هذا التقدم وعثرة في طريق نهوض البلاد . وهنا يساورنا شيء من العجب : « لماذا انكلترا تصر على خطتها العوجاء هذه ؟! » والتفسير لهذا ان السلطات المستعمرة تدرس قبل كل شيء مواطن الضعف في البلاد التي ترغب في بسط نفوذها عليها لاغراض سياسية او اقتصادية او عسكرية ثم تبحث عمن يضمن لها تثبيت سلطانها في البلاد وذلك باستغلال المواطن الضعيفة ، ومن سوء حظ فلسطين ان يكون بسط هذا النفوذ مرغوبا فيه من الوجهات الثلاث .

وعند المستعمرين ما يسمونه (رجل الساعة) فان ارادوا ان يحدثوا نزاعا عمدوا الى البحث عن (رجل الساعة) الذي تتوفر فيه الشروط المطلوبة لتحقيق ذلك بواسطته ، وان ارادوا ان يحدثوا انحلالا واضطرابا في ادارة البلاد

---

(1) مقال للمؤلف نشر في مجلة الرابطة العربية لامين سعيد ـ العدد ٩٥ لسنة ١٩٣٦ ١١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦ ص٢٠-٢١ والعدد ٩٧ لسنة ١٩٣٦ ٢٥ نوفمبر ١٩٣٦ ص٢٥-٢٧ (انظر الفقرة ٨ من القسم الاول)

المستولي عليها صاروا (رجال الساعة) الرجال الخونة من اهل البلاد يولونهم مناصب الحكم ليقوموا بتنفيذ خططهم الجهنمية . وهكذا يستمر المستعمرون امورهم في البلاد التي يزعمون في بسط نفوذهم فيها على حسب الاصول (الميكيافيلية) في الحكم الاستعماري . واني ارى ان انكلترا استغلت عصبية اليهود ورأت في هؤلاء الصهاينة الذين كانوا يرمزون ويهرجون لتشييد الوطن الفلسطيني (الثمرة المطلوبة) وهم عترة ساعة حاجتهم لتستفيد من اموالهم ولتحقق غاياتها الاستعمارية في فلسطين بواسطتهم من الجهة الاخرى . سيما وهي تعلم موطن ضعف هذا الشعب وواقفة تمام الوقوف على عصبيته المتطرفة الحديثة ، فما كان لها الا ان اعلنت مواقفها على مسرح الحركة الصهيونية في خدمة فلسطين المقدسة ولا حاجة هنا لبيان نتائج ذلك . فالكل يعلم ما كان وما سيكون حتى تخرج الثمرة من الحديقة .

وهل يحتاج هذا الدور الذي مثلته انكلترا على مسرح فلسطين الى تفسير؟ فلو لم تكن الثمرة — وقد اصبحت عزيزة في حديقة فلسطين — فما الذي كان يبعث انكلترا على انفاق الملايين على ميناء حيفا وانفاق الملايين الاخرى على انشاء المكنات التي سوغت انشاءها ، وكيف كان يتم لها ما تنويه من تحصين فلسطين وانشاء المعسكرات الواسعة والمطارات الفسيحة و.و.و. لو لم تكن الثغرات الصهيونية في فلسطين ؟!

انا لا اعتقد ولا يمكن ان يدخل في عقل اي فرد له المام في شئون السياسة البريطانية بان الانكليز بذلوا ما بذلوه من الانفس والمال حبا باليهود او محافظة عليهم من العرب كما يزعمون لان ذلك يخالف الحقيقة والكل يعلم ان لانكلترا مصالحها الامبراطورية وهي عندها فوق كل شيء وتضحي كل شيء في سبيلها .

غير ان ذلك لا يعني ان الانكليز وحدهم هم الذين يلامون على هذه الخطة الخرقاء والسياسة العوجاء في فلسطين فعلى الصهيونيين يقع اللوم الكبير وذلك لقبولهم بان يكونوا (ثمرة الساعة) في تحقيق الغاية الانكليزية الاستعمارية . وعندي ان هؤلاء بعملهم هذا واصرارهم على ان تكون فلسطين وطنا قوميا لهم خانوا مبادئ الانسانية وباعوا ضمائرهم ولم يأبهوا لصوت الحق والعدل .

وكثيرا ما انظر بعين الاستغراب الى اعمال هؤلاء الزعماء الذين انقادوا لتيار العواطف فرقصوا على دف الاستعمار البريطاني وهم سكارى بانتصار رخيص ذاك الدهاء (دهاء جون بول) فتمادوا بانفسهم وجروا وراءهم الحشود والكل يرقصون وراء المزمار مائلين الى حب المدمرات الانكليزية يعادون العرب ومن هم العرب ؟! هم اولئك الذين من دون كل الامم اغدقوا على بني اسرائيل الاحسان المزيد واكثروا من تكريم جوارهم فعاشوا تحت ظل الحماية الاسلامية

احالا وقرونا عديدة في بحبوحة الرغد والثراء .

فبأي وجه أيها الصهيوني تقابل العربي صانع الجميل ؟! وكيف تطاوعك نفسك على الاندفاع في غلوائك وغرورك لمقاتلة أصحاب الفضل والمن على بني جلدتك ؟!

ومن الغريب اننا نجد الصهاينة يمشون حرفيا لخطة الاستعمارية الانكليزية التي اختطتها سياسة الانكليز لهم في فلسطين ويترسمون بها وينكصون عنها كأنهم يمثلون جريدة لسان حال السياسة الانكليزية الاستعمارية - الا وهي توطيد دعامة الاستعمار البريطاني في فلسطين وفصل هذا البلد العربي المقدس عن شقيقاته البلدان العربية فصلا تاما بحيث يصبح للانكليز وعملائهم الصهاينة اشان في هذا البلد العربي .

ومن ينظر بامعان في تصريح الدكتور وايزمن زعيم الصهيونية يتضح له كيف ان هؤلاء هم الاله الناطقة بلسان انكلترا فقد اغلقت عليهم العصبية العنصرية الدينية باب التبصر والتروي .

ان ما يراه هذا الزعيم الحل الوحيد لقضية فلسطين هو التفاهم بين العرب واليهود والتعاون للنهوض بفلسطين فيعيش الفريقان كما تعيش العناصر المختلفة في بلد واحد كما هو الحال في سويسرا مثلا (كذا) وما ابعده من تشبيه !!. ثم يقول : « وهنالك حالة واحدة لحل هذه المسألة وهي تشمل العرب واليهود على السواء - الا وهي ان لا يحكم لا هؤلاء ولا هؤلاء ، وان لا يحكم احدهما الآخر وذلك بغض النظر عن عدد الافراد في اي من الفريقين »

ويستمر بقوله : « ان العرب اليوم يؤلفون الاكثرية في البلاد ، اما غدا فقد يكون اليهود الاكثرية » .

والقصد من ذلك طبعا كما لا يخفى على القارىء ان يكون العرب واليهود تحت حكم بريطانيا وهذا هو الذي تريده بريطانيا يعلن على لسان مواليها .

ومما يجدر بالذكر ان البعض من هؤلاء الصهاينة بل معظم كتابهم وانصارهم يخدعون بعض البسطاء من اليهود بزعمهم انه ليس بين العرب من يستنكر الصهيونية سوى طبقة (الافندية) وان عامة الشعب العربي موالية لهم وانما قد تثور عواطفهم بتحريض الافندية (كذا) مع ان الحال هو عكس ما يصوره هؤلاء فعامة الشعب وهم الحضر بصورة عامة وابناء الارياف بصورة خاصة هم الذين يقاتلون هذه الحركة عن عقيدة راسخة وايمان قوي وهم الذين يرغبون اشد الرغبة في التضحية في سبيل الدفاع عن حق العرب وكيان فلسطين العربية ، وان الثورات العديدة التي حدثت في فلسطين وما بذله العرب (غير الافندية) من التضحيات بالنفس والمال خير دليل على ذلك .

ويستدل من هذا ان هؤلاء الصهاينه لا يزلون مصرين على مواصلة الهجرة الصهيونية وفصل فلسطين من الوحـــدة العربية ٠٠ ولكن هناك ما يسمونه (روح عربية) تستقي ايمانها وقوتها وثباتها من منهل دينها الحنيف ومن مآثر ماضيها المجيد قد كان الله عونا لها فيما مضى وسيمد لها عطفه الالهـــي في كفاحها الحالي لنيل امنيتها ، وان سيف الله هو أمضى من سيف بريطانيا ، واذا ما اختفى نور الحق فلا يلبث حتى تظهر اشعته الساطعة فتنصر العدل على الباطل ٠

ان ذلك الايمان القوي الذي يفيض في قلب كل مســـلم وكل عربي والذي بذلت ولا تزال تبذل من اجله النفوس بنسبة رخيصة بدون وجل ولا تردد هو الذي يضمن لعرب فلسطين نصرهم وفلاحهم ، وان الفـوز لثبات فمهما اراد سيف بريطانيا ان يفعل فانه٠لا يتعدى قتل الانفس اما الروح فتبقى وتبقى حية لا يميتها لا السيف ولا المدفع ولا ولا ولا ٠٠٠

نعم انه ليحق لكل عربي صميم ان يثور بوجه هـــذا الاغتصاب والظلم والباطل وان يمتعض لهذه المأســـاة المؤلمة التي تمثل على مسرح فلسطين ٠ ولكن في الوقت نفسه يجب ان لا يعزب عن البال بأن الصهيونية كانت خير حافز لنهوض الشعب العربي من سباته العميق واستيقاظ الروح الاسلامية التي تنبه وتنشط فيه الايمان لارجاع مجـد الاسلام والعرب واعادة سؤددهم الغابر ، وبنظري ان القضية الصهيونيـــة لعبت دورا مهما في ايقاظ الشعور العربي وشحذت العاملين في سبيل الوحـدة العربية اذ لا يخفى بأن الحركة الصهيونية جعلت البلاد العربية تشعر بأن الاعتداء على أي بلد عربي هو اعتداء على البلاد العربية جمعاء وهنا ما كان له التأثير العظيم في ايقاظ العالم العربي من رقدته العميق وفي ايجاد هذا الاتحاد والتعاون بين البلاد العربية ٠

اجل ، ان على العرب ان يغتبطوا لهذه الحال ٠٠ فان لحركة الصهيونية بعثت في النفوس قوة وأملا ونشـــاطا وايمانا ، ووحدت الصفوف في ســبيل تكوين القومية والمناداة بالوحدة العربية التي لا نجاح للعالم العربي الاســلامي بدونهـا ٠

ولا مشاحة ان هذه النهضة قد تكلف البلاد العربية تضحيات دماء عزيزة ، ولكن اي عمل عظيم تم بسهولة وبلا عناء ٠٠ ان نهضـات الأمم لم تقم على غير جثث الابطال ولا توجد نهضة سامية الا امتلأت بمظالم الاهوال فجاءت بكبائر الأعـــال ٠

ويا حبذا لو افاق الانكليز ونزلوا عن تطبيق فنهم الاستعماري المبني على سياسة احداث الاضطراب لتوطيد قدم الاستعمار وواجهوا الحقيقة الراهنــة وكلموا العرب بلسان الصراحة والتفاهم وهو اللســان الذي يفهمه العرب ما

حملوا عليه من حب الصراحة وكره الختل والخداع ، واما ما لهم من مصالح عسكرية واقتصادية كانشاء ثغر حصين والمحافظة على منتهى خط النفط وغير ذلك فيمكنهم ان يضمنوها بمعاهدة تحالف وصداقة يعقدونها مع فلسطين كما فعلوا في العراق ومصر ، وبذلك يمكن لانكلترا ان تحرز ود العرب وصداقتهم ولا نظن أن رؤوس الاموال التي قد يأتي بها اليهود الى فلسطين وما يبذلونه من المال لانشاء وطنهم الخيالي تفوق ما تجنيه انكلترا من صداقة العرب وولائهم لها اذا عاملتهم باحسان .

واما اليهود فاذا ارادوا الاستمرار على اعتزالهم والمحافظة على تقاليدهم والاستمرار في عصبيتهم العنصرية الدينية فما لهم الا أن يختاروا بلدا من بلاد الله الواسعة غير المأهولة في افريقية او في قارة اخرى ليحققوا امنيتهم المنشودة ، على أن لا يكون هذا الوطن فلسطين فهذ جنون وجنون وجنون.. لا بل خروج عن حد الدائرة الانسانية وعن منطقة العدل والشرف .

لقد سبق ان شرحت في مقال عن فلسطين نشر في جريدة الاحرار البيروتيه بعددها المؤرخ في ٢٨ اغسطس آب ١٩٣٠ بانه ليس في اليهود مزية الاتحاد القومي السياسي لانشاء دولة يهودية مستقلة ، وان اتحادهم الذي نسمع عنه لا يتعدى العاطفة العنصرية الدينية التي تهيج وقت اليأس والاضطهاد وتخمد متى انطفىء لهيب الضغط .

وفي الحق انه ما عرف التاريخ في أي زمن من الازمنة دولة لبني اسرائيل تمكنت من توطيد نفسها في الارض التي حلت بها . وفضلا عن ذلك فان الوحدة اليهودية التي تشكلت في فلسطين في قديم الازمنة قد يتعذر اعتبارها (دولة سياسية) بما في هذه الكلمة من معنى ، فانها لم تتأسس كبقية الدول السياسية الكبرى التي تطمح الى توسيع سلطانها وفتح البلدان واخضاع الشعوب وانما تشكلت بصفة دينيه وكان همها الاساسي المحافظة على الكيان الديني والدليل على ذلك أن ملوكها كانوا انبياء وانبياؤها ملوكا ، واذا ما اضطرت للدخول في المعارك والقتال فما كان ذلك الا للدفاع عن كيان هذا الشعب الذي كان ولا يزال يسير بتاثير عاطفته الدينية . وبناء على هذا يمكن القول بان اليهود ما سبق لهم أن عرفوا دولة ذات نزعة سياسية قومية وذات سيادة وسلطان تطمح الى التوسع والفتوحات والاختلاط بغير عنصر اليهود او نشر تعاليمها ونظامها كما هو شأن الدول الكبرى التي يحدثنا عنها التاريخ بما فيها الامبراطورية العربية الاسلامية ، وقد كان الدافع المهم لتسلحهم وقتالهم هو المحافظة على كيانهم كامة ذات عنصر ودين وصد غارات الدول المجاورة ولا يخفى بانه لو كان لليهود التسامح وبعد النظر الديني الذي اتصف بهما الاسلام لكان تاريخ الديانات والفتوحات غير التاريخ الذي بين ايدينا .

وعندي ان الله تعالى قد شاء ان يحصر السيادة السياسية باتباع الديانتين المسيحية والاسلام فجعل منهم دولا كبرى ووحدات سياسية عظمى وبقيت اليهودية صبغة دينية محضة ذات تقاليد وعادات واخلاق سحابة القرون الماضية بعد ان انقرضت سيادتها المحلية القصيرة العهد ·

ان اليهودية بعيدة في امكان تحولها الى قومية سياسية ذات سيادة مستقلة فان علماء اليهود الذين يأملون الرجوع الى فلسطين لاعادة هيكل سليمان الى ما كان عليه قبل آلاف السنين لا شك سيعيشون حياة معذبة واقول معذبة لا من نفور من تمسكهم بفكرتهم لواهية هذه بل هي العذاب النفسي لانهم يؤمنون بالخيال والاحلام الوهمية كمن يؤمن بامكان تحقق الحوادث في اقاصيص الف ليلة وليلة ·

وعلى ذكر وعد بلفور اقول ان الانكليز هم اليوم اقل ميلا الى هذا الوعد من قبل · وما هو وعد بلفور ؟! هل يعقل ان يكون هذا الوعد ارفع مقاما من الوعود التي قطعتها انكلترا للعرب ، وهي وعود صريحة بعطي لصاحب الحق حقه ؟! وهل يعقل ان تنكث انكلترا بوعودها للعرب وتلتزم من دون كل الوعود وعد بلفور ؟! كان وعد بلفور احدى مقتضيات السياسة في الحرب العامة وقد دلت التجارب بان الوعود التي تعطى في مثل هذه الظروف لا قيمة لها فهي حبر على ورق كما اثبتت الحوادث · ويجب ان لا يغرب عن البال بان فلسطين بلاد عربية محاطة بعناصر عربية فلا تستطيع أن تنسلخ عن البلاد العربية المتاخمة لها مهما حاول الانكليز او الصهيونيون ، وعندي ان الصهيونيين الذين ينفقون الاموال الطائلة في فلسطين لانشاء مستعمراتهم وتشييد ابنيتهم الفخمة وقصورهم المنيفة يعملون لغيرهم ، وقد يأتي يوم تمسي فيه هذه المستعمرات والمباني مواطن للعرب اصحاب البلاد ، ولا بد أن يرجع الحق الى اهله ·

ولا بد ان نشير بهذا الصدد الى ان النزاع في فلسطين بين اليهود والعرب اذا نظرنا اليه من الوجهة العربية هو نزاع سياسي محض وقد يدخل فيه العامل الاقتصادي ، غير أن عصبية اليهود وعاداتهم وتقاليدهم وبالاجمال حياتهم الاقتصادية والاجتماعية اصبحت مندمجة بعقيدتهم الدينية بحيث كونت ما يعرفه الناس باليهودية مما يدعونا الى القول بان النزاع من الوجهة اليهودية هو سياسي ديني اجتماعي اقتصادي واذا قلنا اليهودية فاننا لا نعني الديانة اليهودية فقط بل نعني التقاليد والعادات والعصبية اليهودية بكل ما يتبعها من الصفات التي اتصف بها اليهود والتي اصبحت جزءا من اليهودية وقد تكون الصهيونية منها · واما من الوجهة العربية الاسلامية فالنزاع كما قلنا هو سياسي وكل شيء خلا ان يكون دينيا لان المسلمين قد اشتهروا في علاقتهم مع غير المسلمين بنزعة التسامح الذي لا يعرف حدا ولا نهاية ، ومع ذلك ان العاطفة الدينية تلعب

دوراً مهماً على مسرح القضية الفلسطينية .

والنزاع اذا اصطبغ بصبغته الدينية يصير اشد هولا ولا يقتصر على الناحية السياسية فقط ، ولذلك لا يستبعد حدوث ما لا يحمد عقباه من جراء الخصومة الصهيونية العربية فيما اذا استمر الانكليز في مناصرة الصهاينة وتشجيعهم في الاستمرار على جشعهم الاستعماري واطماعهم في ارض فلسطين .

ان الصهيونيين في موقفهم اليوم بفلسطين اعادوا نفس الظاهرة التاريخية في المناوئة للاسلام ، وقد تذكرنا هذه الظاهرة بالحروب التي حدثت بين اليهود والمسلمين على الرغم من التسامح الذي اظهره المسلمون .

كثيرا ما يدعي الصهيونيون بان يهود العالم باجمعهم يدينون بدين الصهيونية ولا يترددون في تضحية كل شيء في سبيل تأييدها لان الصهيونية هي جزء من الديانة اليهودية ولا يمكن فصلها عنها وكل من لا يدين بها فهو بريء من ملتهم وشعبهم ودينهم ، ومن الجهة الاخرى نجد بعض اليهود وفي مقدمتهم بعض يهود الشرق الوطنيين وعددهم قليل يدعون بانهم لا يؤمنون بالحركة الصهيونية . أجل فليكن ذلك !. ولكن ما هي الاعمال التي قام بها هذا الفريق ليبرهن على انه لا يؤمن بالفكرة الصهيونية ؟! لقد اعتصم بالسكوت وتغافل عما تقوم به صاميمة الصهاينة من حملات جائرة على العرب وتصريحهم باحلامهم الاستعمارية ونياتهم السيئة نحو سكان فلسطين وما يجاورها من البلاد العربية والسكوت رضا ، والراضي بعمل قوم شريك لهم .

أين هم اليهود الذين يدعون معارضتهم للصهيونية هل انخرط واحد منهم في سلك العرب لمقاومة الصهيونية ؟ انني لا اعرف احدا من اليهود عمل عملا كهذا .. ويظهر لي بانه اصبح من الصعب اقناع العرب بأنه يمكن ان يكون المرء يهوديا ومخلصا للقضية العربية في آن واحد .

لقد حاولت ان اشترك فعلا بالاعمال التي كان يقوم بها اخواني العراقيون في سبيل القضية العربية بصورة عامة ومسألة فلسطين بصورة خاصة كما يعلم ذلك خلاني ومعارفي من العرب فلم افلح في الوصول الى الحد الذي اتمناه واما على يهوديتي الموروثة . ويجب ان لا يلام العرب على ذلك لان الصهيونية اصبحت تعتبر من قبل الكثير جزءاً من اليهودية ومن كان يهوديا فيتعذر عليه فصل الصهيونية عن اليهودية ، فعلى اليهودي المخلص الصادق في حبه للعرب والقضية العربية ان يبرهن على ذلك بغير هجران اليهودية بما في ذلك من دين وعادات وتقاليد وعصبية ، لان الصهيونية هي وليدة هذا الدين وان هذه العادات والتقاليد وبالاخص العصبية العنصرية التي تعتبر جزءا من اليهودية هي التي ولدت الصهيونية .

نشر احد اسرائيلي العراق المثقفين تصريحه التالي بصدد الاضطرابات الاخيرة في فلسطين فقال : « واعتقادنا ان الوضع الاخير ينزع من ادمغة الساسة الصهيونيين الأمل الخادع في امكان تحقيق احلامهم وخيالاتهم التي لا يقرهم عليها كثير من يهود العالم انفسهم وفي مقدمة هؤلاء اليهود العرب قاطبة » ولا يسعني الا أن اسأل هذا الكاتب : ما هي الاعمال التي قام بها اليهود العرب ليبرهنوا على عدم اقرارهم احلام الصهيونيين وخيالاتهم ؟ ما هي التبرعات التي قام بها اغنياء اليهود العرب للاشتراك فعلا في قمع الحركة الصهيونية ! واين الاحتجاجات التي رفعوها وهل اشتركوا بأية حركة ضد الصهيونية ؟! وماذا الذي يبرهن على حسن نيتهم ما لم يعملوا عملا يوضح استنكارهم للخطة الصهيونية الجهنمية ؟! اليس سكوتهم دليلا على الرضا ؟! ولا ادري كيف يعلل كاتبنا هجرة البعض من يهود العراق الى فلسطين وهم يتمتعون بأنعم الخيرات في ظل الشعب العراقي النبيل !.

وكم من مرة رست الباخرة في ميناء يافا وانا على متنها فلم تطاوعني نفسي ان اطأ ارض فلسطين وهي على حالتها من الخضوع لنير الاستعمار الانكليزي الصهيوني يؤمها بعض شذاذ من انحاء المعمورة ، وإني لم اطأ ارض فلسطين الا في المرة الاخيرة اثناء رحلتي الى امريكا وذلك في شهر مارس سنة ١٩٣٦ اي قبل الثورة الاخيرة بقليل وكان ذلك بنتيجة الحاج رفيق غرفتي في السفر وهو احد شبان دمشق المعروفين فلبيت الطلب ولكن دون أن اتعدى حدود بلدة يافا اذ كان يؤلمني منظر (تل ابيب) تلك البلدة اليهودية التي اصبحت مصدر فخر ليهود العالم وقاعدة لبث القومية العبرانية الوهمية .

اني لم ازر تل ابيب إذ كرهت منظرها على بعد بالرغم من اضوائها المنيرة وقصورها الشامخة وكان لسان حالي يقول : انها تمثل الغرور والظلم ، تمثل بأجلى بيان نكران المعروف وجشع الاستعمار الجائر والاغتصاب القاهر ، فلن اطأها حتى ينتصر الحق على الظلم والعدل على الباطل فيرجع اهل البلاد الى مواطنهم يهزجون اناشيد النصر رافعين علم العروبة على السواحل موطدين دعامة الوحدة العربية ببهائها المجيد وجلالها المنيف .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٠ لسنة ١٩٨٦

طبع في دار الشؤون الثقافية العامة

تصميم الغلاف زهير النعيمي

طبع دار الشؤون الثقافية العامة

السـ